المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ٧ـ٣٢

التواد الاجتماعي في مصر الرومانية في ضوء الوثائق البردية

نادر فتحي محمد(*)

ملخص

تصف هذه الدراسة وتحلل قيمه التواد الاجتماعي وأثره على الأفراد في مصر الرومانية من حيث التماسك والتواصل الاجتماعي في ضوء ما جاء في أوراق البردي حيث تصور العواطف النفسية الخاصة بهم وشعورهم الحقيقي وأحاسيسهم الصادقة تجاه بعضهم البعض وتكشف السجايا الإيجابية بين بعضهم البعض.

Abstract

This study describes and analyzes the value of social connectedness and its impact on individuals in roman egypt in terms of cohesion and communication in the light of what came in the papyrus papers where they visualize thir psycholoical emotions and their real feeling and sincere feelings towardes each other and reveal the positive attitudes between each other .

* د/ نادر فتحي محمد (كلية الآداب - جامعة دمياط).

*
* *

هذه دراسة تاريخية من واقع المصادر الوثائقية تصف وتحلل قيمة التواد وأثرة على الأفراد في مصر الرومانية من حيث التماسك والتواصل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ومما لا منازعة فيه أن نجد تصوير العواطف النفسية الخاصة بهم في الفخر والهجاء أو الاعتذار أو المدح لمن قدم لهم الخير والمعونة، كل ذلك صُور بمقتضى طبيعتهم وسجيتهم وتحقيقًا لرغبات كامنة في نفوسهم وإرضاء لنزعات ثابته في أرواحهم. فصاغوا كلمات صادقة صحيحة تُنبئ عن أنها نابعة من شعور حقيقي وإحساس عميق صادر من سويداء القلب وأعماق النفس فرسموا بخيالهم الحضوري أو الابتكاري كلماتهم. فطبيعي أن الإنسان مجبول على التواصل مع غيره ولا يمكنه أن يعيش بمنأى أو بمعزل عن غيره فتتبادل المنافع والأفكار والقيم والمشاعر للمساندة والمؤازرة من الأصدقاء والزملاء والجيران سواء كانت معنوية أو مادية. فبالتواد تُكشف السجايا الإيجابية لتفعيلها وإشاعة الإيثار بين مختلف أطياف المجتمع وبناء القيم وترسيخ قواعد الآداب والاخلاق والتراحم والتآخي. ولما كانت الاتجاهات الحديثة في التحليل التاريخي تهدف إلى تكامل العلوم الاجتماعية واستخدامها في تحليل ونقد الأحداث فكان حتمًا مقضيًا عند إثارة هذا البحث الرجوع لتفسيرات مدلولات المشاعر التي تعبر عن التواد الاجتماعي بين الأفراد. وفي اطروحتنا البحثية هذه نتساءل هل كان هناك تواد اجتماعي في مصر الرومانية؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول نعم كان هناك تواد اجتماعي في الفترة محل الدراسة للأسباب التي أحاطت بالمجتمع آنذاك فنظرة الرومان الاستعلائية للمصريين حيث كان لمصر في عصر الرومان بناء اجتماعي خاص يبدأ بطبقة الرومان الذين حصلوا على أكثر الامتيازات لإقامتهم في مصر، وكان عددهم قليل. يليهم في المرتبة الثانية الإغريق ساكني المدن اليونانية في مصر، وكذلك اليهود قبل أن تُسقط الحكومة الرومانية امتيازاتهم. هاتان الطبقتان اللتان احتلتا القمة ارتكزت على قاعدة عريضة وعميقة تختلف عن بقية السكان، والتي تضم

الفلاحين والصناع وملاك الأراضي والتجار الذين كان القليل منهم يتمتع بالثراء ولكن أكثرهم كانوا فقراء، وكان أكثرهم من المصريين. ووضعت العقوبات لمنع التحول من طبقة لأخرى لصعوبة اجتيازها إلا باستثناء من الإمبراطور الحاكم نفسه(١) وأوضحت المادة ٣٩ من مقننة الإديوس لوجوس عواقب ارتباط المواطنين الرومانيين بمواطنين يونانيين أو مصريين ذاكرةً أنه: (إذا ارتبط المواطن الروماني أو المواطنة الرومانية عن غير قصد (أي عن جهل بحقيقة الأمر) برباط مع أشخاص مصريين في مواطنتهم (أو جنسيتهم) فإن أولادهما يتبعون الجنس الأدنى منزلة)(٢). بالإضافة إلى ذلك فإن المادة ٤٤ من مقننة الاديوس لوجوس قد أشارت إلى العقوبة التي تقع على المصري الذي يقوم بتسجيل ابنه على أنه منخرط في منظمة الشبيبة عمدًا ذاكرةً: (إذا قام مصري بتسجيل اسم ابنه على أنه عضو في منظمة الشبيبة، يصادر ربع أموال الاثنين(٣)«أو سدس أموال الأب»)(٤).

ومما يجدر الإشارة إليه أن منظمة الشبيبة كانت المرحلة التمهيدية من أجل الانضمام

---

(١) عن العقوبات التي وضعت لمن يتحلون لأنفسهم جنسيات كاذبة وخاصة الجنسية الرومانية التي وردت في مقننة الإديولوجوس مواد رقم ٤٢، ٤٣، ٤٤ وللمزيد انظر: ذكي علي: مقننة الإديوس لوجوس، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٩٨.

- نفتالي لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني ٣٠ ق.م – ٢٨٤ ق.م، ترجمة امال الروبي، القاهرة- عين للدراسات والبحوث الإنسانية ١٩٩٧، ٢١ – ٢٢.

(2) Ρωμαίου ή Ρωμαιας κατ ἄγνοίzν σνvθόντων ή άστοίς Aίγυπτίοίς τα τέχνα ἥττονι γένει ἀκολουθεί.BGU.V.39.

(٣) " των δύο τέταρτον " يرى بعض المؤرخين بأنها سدس أموال الأب، باعتبار أن الأموال المشتركة بين الأب والأم هي نصيب الثلث للأم، والثلثين للأب، فإنه على ذلك تكون عقوبة الأب هي ربع الثلثين أي السدس وذلك تمشيًا مع القاعدة التي وردت في المادة رقم ٤٢، وهي تنص أن تكون المصادرة تمثل ربع الأموال كعقوبة على الإدلاء بمعلومات كاذبة.

(4) Aίγυπτίου άπογραψσαμένο[υ] υίον ώζ έφηβευκό[τ]α τών δύο τέταρτον ἀναλαμβάνεται. Gnomon. 44.

لطبقة معاهد الجمناسيون(١)، تلك المعاهد التي كانت تمنح المواطنة السكندرية(٢) لأعضائها بعد مرور عام واحد من الانضمام إليها، لذلك فإن الحكومة الرومانية في مصر كانت حريصة كل الحرص على وضع سياج يحول دون أن يتسلل إليها نفر من هؤلاء الأبناء بطريق التدليس عن طريق عدد من الآباء المضللين الذين يعمدون بوسيلة أو بأخرى إلى الزج بأسماء أبنائهم وهم لا يزالون في نعومة أظفارهم في هذه الطبقة، أملًا منهم في حصول هؤلاء الأبناء في الوقت المناسب على حقوق المواطنة السكندرية.

ننتقل بحديثنا إلى سياسة الاستنزاف الروماني لموارد مصر الاقتصادية التي لا شك أدت إلى سوء الأحوال الاجتماعية في مصر مما دفع فئات اجتماعية كثيرة من المصريين للهروب من قراهم إلى المدن الكبرى، ومنذ عهد الإمبراطور سيفيروس ألكسندر (٢٢٢ – ٢٣٥م) وحتى مجيء دقلديانوس ٢٨٤م حدثت فترة من الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث انخفضت قيمة النقود، وارتفعت أسعار السلع. واستخدمت أساليب القهر لجباية الضرائب أو الخدمات الإلزامية، بجانب تدهور وضع القوات الرومانية وعدم تماسك قدراتها العسكرية، فقد تفشت بين القوات عدم الانضباط والهروب من الخدمة، وممارساتهم للسلب والنهب. بجانب كثرة الضرائب وتنوعها والوسائل التي لجأ إليها جباة الضرائب فأثقلت كاهل المواطنين(٣)فحدث انكماش اقتصادي أثناء فترة الدراسة.

---

(1) Λεωνίδης μητρός Ἀμμωνίλλης.

Cf. BOWMAN. A.K, DOMINIC RATHBONE, "Cities and administratration in Roman Egypt", J.R.S. , 82 (1992). P. 121.

(٢) عن المواطنة السكندرية وما تغدقه على حاملها من امتيازات – عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، القاهرة ١٩٦٨،٤٢.

(٣) يتبين لنا اعتصار الرومان للأهالي والضغوط التي كان يتعرض لها الفلاحون والعبيد في ظل تلك الظروف.

وأشارت وثيقة إلى تلك الوقائع تعود لأواخر القرن الثالث الميلادي أو أوائل القرن الرابع الميلادي حيث يكتب ابن لأبيه المتغيب أو الهارب من أعباء الديون والضرائب آنذاك فيبلغه الابن قائلًا: (ذلك أنني أسمع أن هيراقليوس المشرف الحالي يبحث عنك وأشار في أن لديه شيء ضدك من جديد هل عليك له دين آخر)(١).

يتبين لنا قهر الرومان للأهالي والضغوط التي كان يتعرض لها الفلاحون والعبيد في ظل تلك الظروف، وتشير إحدى الوثائق التي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي أن إحدى الأسر لا تمتلك أموالًا من أجل طعامها وفي هذه الحالة يضطرون إلى رهن بعض السلع فنجد أن بطوليمايوس يخبر أخاه قائلًا: (لقد رهنت العباءات البيضاء مقابل جزء من ثمن الحبوب كي نأكل)(٢).

كذلك جاءت ببعض الوثائق حالات استدانة أخرى كمؤشر على تدهور الظروف الاقتصادية ففي خطاب يرجع إلى القرن الرابع يطلب المُرسل من مراسله تجميع ديون خاصة به ويطلب سداد بعض المال الذي كان مدينًا به قائلًا: (ابذل كل ما في وسعك، يا أخي وأعط الأخ زاكون الفطاطري أربعين تالنت من ديوني)(٣) ويستطرد في حديثه فيشرح ظروفه والصعوبات التي يواجهها حينما أثقلت الديون كاهله قائلًا: (وأرجو ألا تتقاعس في مساعدتي يا أخي حيث أنك تعرف مقدار مديونيتي هنا)(٤).

في ظل هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتدني سجلت الوثائق نماذج إيجابية تمثلت في الشهامة والمروءة بحماية الذليل، وتأمين الخائف وكشف الكرب ولين

---

(1) καί νύν γάρ άκού- ω ότι σφόδρα' Ηράκλειος ό νύν έπίτρο- πος ζητεί σε, καί υπονοούμαι ότι πάν-τως πάλιν τί ποτέ έχει προς σε.[εί τ]'Ι ποτέ αύτω χρεωστείς. P. Oxy. XIV. 1980, 12-16. (Late 3nd or early 4th cent. A.D)

(2) [δεδωκας] ύποτέθειμαι τα ϊμά-τια τά λευκά ένεκα τιμής σίτου ίνα ψάγωμεν. P. OXY. XLII. 3060, 13-14 (2nd cent. A.D)

(3) πάν ποίησαν, αδελφέ, δός τω άδελφω μου Ζακάωνι πλακούντα εϊς λόγον μου ως τεσσαράκοντα τάλαντα. P. OXY. XII. 1495, 5-8.(4th cent. A.D)

(4) αλλά μη αμελή-,σης, αδελφέ, ως εϊδώς την όψειλειάν μου ενταύθα. P. OXY. XII. 1495, 13-15.(4th cent. A.D)

الجانب، فنجد إشارة بردية ترجع إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي في إحدى البرديات يُحذِّر فيها كاتب الرسالة المرسل له بضرورة مد يد العون والإغاثة بخصوص مؤامرة ضد فتاه فقدت حاميها أو الوصي القائم على شئونها حيث تُوفي فيطلب يد العون من المرسل له قبل أن يتم إيقاعها في تلك المؤامرة دون أن يذكر تفاصيل تلك المؤامرة قائلًا: «حيث أن زوبيروس قد توفى، فإن هناك أشخاصًا يدبرون خططًا ضد تابديس ابنة أمفيثاليوس، ولقد تحدثت معك ذات مرة بخصوص هذا الموضوع، لذلك فإنني أوضح لك الأمر لكى تتصرف بما هو مناسب قبل أن يتم إيقاعها في هذه المؤامرة»(١).

وتصف لنا وثيقة بردية ترجع للقرن الثاني الميلادي مشاعر الود والمحبة بين الزوج الغائب أو المسافر وبين زوجته وحبيبته، وتصف المُحبَّة زوجها بالشمس التي غابت عنها فبهت لونها لغيابة وضاعت بهجتها ببعده من أجل كسب العيش لها ولأولادها قائله: «يقينًا أعلم. بأنني لن أرَّ الشمس لأنك بعيدًا عني. فانا لا أملك شمسًا سواك»(٢)توضح لنا هذه الوثيقة مدى مكانة حبيبها وزوجها لديها فعند غيابه غابت شمسها ونضارتها وحيويتها مما يبين الأثر النفسي عند غياب الحبيب أو الزوج عن زوجته والانعكاس على حالتها النفسية والعصبية والمزاجية، وأيضًا في حالات كثيرة الصحية كما اشارت الوثائق إلى الحث علي مساعدة الاخرين في التغلب على ظروف محنتهم.

فها هي سيدة تستحث أخاها الأكبر أو ربما زوجها بان يدفع ويساعد ابنها أو أخاها الأصغر المدعو سارابيون للبحث عن عمل قائلة: «يا أخي مطلوب منك ألا

---

(1) έπί (1. έπεί) Ζωπύρου τελευτήσαντος τῆ Ταίδι τοῦ' Αμφιθαλέος ίσίν οί έπεδρεύοντες (Ι.έφεδρεύοντες), ώμείλησας (Ι.ώμίλη- σας) δέ μοί οτε περί τούτου, φα- νερόν σοι ποιώ ίνα έάν (1. άν) δοκι- μάσης οιήσης πρίν προ- λημφθήναι. (P. Oxy. VI. G28. 3. 9 (2nd or3 nd cent. A.D)

(2) γείνωσκέ (1. γίγνωσκέ) με μή βλέπουσαν τόν ήλιον διά τό μή βλέπεσθαί σε ύπ' έμού. ού γάρ έχω άλλον ήλιον εί μη σέ. (P. oxy. Xl11. 3059. 3-5. (2nd cent AD)

تترك سارابيون عاطلًا يهيم على وجهه. أدفعه للعمل»(١).

وهنا توضح هذه الوثيقة القلق النفسي الذي ينتاب الأسرة والأشخاص وأيضًا أفراد المجتمع من وجود شخص عاطل في الأسرة وتداعيات ذلك النفسية من القلق من المستقبل في تحمل أعبائه ومسئولياته سواء الشخصية أو الأسرية إذ كان يعول اسرة.

فالبطالة حدث حياتي ضاغط له انعكاس سلبي مباشر على الحالة النفسية والاجتماعية لأي شخص. ويرجع ذلك إلى أهمية ومكانة العمل الذي يضمن الاستقرار النفسي والاندماج الاجتماعي ويحوله لعنصر إيجابي وفعال بناء في مجتمعه ويحقق الاكتفاء المادي والمكانة الاجتماعية مما يجعله متوازن ومستقر نفسيًا ويترك الفراغ وعدم الفاعلية.

وفي وثيقة بردية ترجع لحوالي عام ٢٩٦م تعتب أبنه على أمها عدم الكتابة لها منذ ثمانية أشهر منذ أن ذهبت إلى الإسكندرية والأبنة تُدعى بولوتوغني ι] ν υτογέ] Πλο α [وتحثها أن تعطي بعض القطع البرونزية التي أعطتها لها إلى امرأة تُدعى أتاس Ἀτᾶς وتعيدهم منها كاملين(٢).

ويقودنا الحديث عن العتاب في عدم التواصل الأسري مع المغتربين وحنينهم لأخبار أسرهم وذويهم وأيضًا تكشف عن مساعدة الغير في ظهورهم بشكل لائق أمام جيرانهم وأقرانهم، حين تأمر أمها بأن تعطي بعض القطع البرونزية لجارتهم لتتزين بها أمام ذويها.

وتصف لنا الوثائق حالة أرملة تُدعى أوريليا ارتيميس Ἀρτέμιτος [Αὐρηλίας من قرية ثراسو في إقليم ارسينوي تشكوى إلى الوالي حيث أن شخصًا يُدعى سريون

(1) ἐρωτηθείς, ἀδελφε, Σαραπίωνα μή ἀφῇς ἀργεῖν καί ῥέμβεσθαι, ἀλλά εἰς ἐργασί-αν αὐτόν βάλε·

(P. oxy. X11. 1581. 4-7. (2nd cent AD)

(2) P. MICH. III, 211. L.L.8.11. Philadelphia (About 296 A.D)

Συρίων ووظيفته ديكابروتس δεκάπρωτος القرية كان زوجها يرعى أغنامه قبل وفاته، وعندما توفى زوجها أخذ سريون منها عنوه عدد ٦٠ من الخراف والماعز بدون وجه حق وتذكر ذلك قائله.

أنها تخص زوجي ليس هذا فحسب، بل اندفع سريون راغبًا في الحصول على ميراث أطفالي وذلك وقت أن كان زوجي مُسجي في البيت مستغلًا في ذلك تأثيره في القرية، وعندما قاومت لإنقاذ املاكي وإعداد زوجي للدفن طردوني وهددوني وحتى الآن مازال في غية(١). وطلبت أوريليا من الوالي استعادة ممتلكاتها وممتلكات أطفالها فعيَّن الوالي الابستراتيجوس ليتولى التحقيق في الأمر(٢)، وأظهر التحقيق أحقية أوريليا أرتيميس في استرداد ما فقد منها ورده إليها. ومع ذلك مازال سريون يراوغ في رد الحق بحجج واهية واساليب مُلتوية. ويتبين من الوثيقة الاستجابة والإسراع من الجيران والشهود إلى إجابة المستغيث والمكروب، وتأمين الخائف، وتهدئة المرتاع خاصة من النساء، وعدم الخضوع لأحد مهما كان شأنه، ونفي السلوك الظالم الغشوم والمحافظة على الوفاء بالعهد وإعزاز الجار لأنها الوسيلة الوحيدة التي بها تهدأ الخواطر وتسكن النفوس.

وننتقل بحديثنا إلى وثيقة أخرى كنموذج مما ذُكر في صنع الجميل تبين أنهم كانوا يقدِّرون المعروف، ويكبرون فاعله ويحبون أن تكون الصلات بينهم قوية وعلى أساس

---

(1) όστις 10 ἀδίκως τάς τοῦ] προκειμένου ἀνδρός αἶγας καὶ πρόβατα τὸν] ἀριθμόν ἑξήκο] ντα συναπέσπασεν αὐτῷ. καὶ ἐφ' ὅσον μέν] -περιῆν] [ὁ προκείμ] ενός μου ἀνήρ, ἕκαστος τά ἑαυτόῦ ἐκαρποῦ] το, Ὅ τε ἐμός ἀνή] ρ τά ἴδια καὶ Ὁ προκείμενος τά ἑαυτοῦ. Ἐπεί οὖν],κατά τρόπον ἀνθ] ρώπων ἐγένετο Ὁ προκείμενός μου ἀνήρ]15 εἰσεπήδησε βο] υλόμενος Ὁ Συρίων καὶ ἀφαρπάζειν τά τῶν] νηπίων μου τέ] κνων τῇ τοπικῇ δυναστεία χρώμενος παρά]αὐτῆς τῆς κοί] της τοῦ ἀνδρός μου καὶ τοῦ σώματος κιμένου] ἐπεὶ] [δὲ ἐσπούδ] ᾳσα τά ἡμέτερα ἀπολαβεῖν καϊ περιστεῖλαι τον] ἆνδρα μου, μετ'] ἀπειλῆς με ἀπέπεμψεν καὶ μέχρι της σημε] 20 [ρον κατέχων τ] υγχάνει τά ἡμέτερα ποίμνια. - SB. VIII, 9912 Neiloupolis (Arsinoite nome) (23May 270 AD)

(2) P. Ryl. II, 114 LL. 34-36.

من الحب والوفاء، ويرحبون بالقيام بمعروف أو جميل يحمده له صاحبه، ويكون له ذخرًا عنده ينفعه وقت الشدة.

فتُشير وثيقة ترجع للقرن الرابع الميلادي تتحدث عن زوج قد اصابه الضرر واليأس جراء إصابته في حادث نتيجة وقوعه من على الحصان الذي يمتطيه في بابليون[١] مما أصابه بكسور بالغة بالعظام وبعد فشله في وجود من يساعده للرجوع إلى قريته رغم مرضه أو في إيجاد مركب يستقلها للعودة، يكتب لزوجته قائلًا: «وبناء على ذلك ساعديني، يا زوجتي العزيزة. ولتحرصي على إرسال أخيكِ لي بأقصى سرعة ممكنة، كما سبق أن ذكرت لكِ. ذلك أنه في مثل هذه الشدائد يتم اكتشاف معدن الإنسان، وبناء على ذلك أرجو أن تمُدي لي يد المساعدة. حقًا حيث أنني أعيش في الغربة ومصاب بالمرض، ولقد بحثت عن مركب لأركب على متنها، ولم أجد من يبحث عني، لأنني في بابليون»[٢].

يقودنا الحديث عن المحافظة على وشائج القربى، وتمكين الصلة، وتوطيد الصداقة، فصورت الوثائق العاطفة الصادقة التي أثارت وجدانهم وألهبت مشاعرهم، فنبعت هذه العواطف من حنايا صدورهم ومن حبات قلوبهم، فاهتزت أوتار قلوبهم فنقلهم من عالم الحس المادي إلى عالم الوحي الروحي.

وتضرع وابتهل الأصدقاء بعضهم لبعض من أجل الصحة التامة[٣]ودفع المرض، والتمني بالشفاء العاجل المصحوب بالعافية ذاكرين أن هذا لن يتم إلا – لو شاءت الآلهة εών βουλομένωνθ – أو بعنايته الآلهة εών σωζόντωνθ وها هي وثيقة توضح الالتجاء

---

(١) بابليون قرية مصرية تبعد عن أوكسيرو نخوس بمسافة ١٢٠ ميلًا شمالًا.

(2) βοήθησον οὖν, κυρία μου ἀδελφή, σπουδαῖόν σοι γενέσθω ὅπως τὸ τάχος πέμψης μοι, ὡς προεῖπον, τὸν ἀδελψόν σου. είς τᾴ ς τοιαύτας γάρ ἀνάγκας ευρίσκονται οΙ ίδιοι του ανθρώπου. ίνα οὖν και σοι (I.σύ) παραβοηθήσης μοι τω όντι επί ξένης καί εν νοσώ όντι. καί πλοῖον έπεζήτησα ένβήναι (I.έμβήναι) καί ούχ εύρον τον έπιζητοϋντά μοι. εν τη γαρ Βαβυλώνεί είμει (I.είμι). P. oxy. XLVI. 3314. LL 12-19 (4th cent. AD)

(3) SB. XII, 2. 11022. 3

للآلهة لدفع الضرر والسوء بالدعاء أو الصلاة εὔχομαί أو التضرع προσκύνημά لمن نحبهم ونودهم فتصور لنا وثائق من القرن الثاني تقديم بعض العطر لحرقه للآلهة من أجل تصاعد الدخان المحروق في المذبح وهو إشارة إلى رضا الآلهة بينما كان هبوط الدخان إشارة إلى غضبها وتذكر البردية أنها مقدمة للإله هاريبيكيس متسائلة... تُرى هل يتلقى مولانا هاريبيكيس البخور منك برضى بالغ؟(١) وربما كان المرسل يؤدي هذه المهام للإله من أجل شفاء المرسل إليه من مرض قد ألم به حيث يقول (أنني أشعر بالامتنان نحو إلالة لأنه أكد لِي مرة أخرى أنك ستعيش في هذا المكان زمنًا طويلًا من أجلي يا سيدي. قسمًا بمشيئة الرب وعونه لو حل بك أي مكروه قبل أن تتحسن ظروفي بوقت كاف سأتعرض للخطر المحدق ولتحل علي النقمة والهلاك)(٢)، وتقدم الأفراد بدعواتهم للإله سارابيس من أجل الخير لأصدقائهم فنجد خطاب من القرن الثاني تذكر فيه سيدة الدعاء لأحد عمالها أو مدير ضيعتها قائله (قبل كل شيء أبتهل أن تحظى بالصحة أنت وأولادك، ووقاهم الله شر الحسد وأتضرع من أجلكم أمام سارابيس العظيم متمنيه لك ولجميع أفراد الأسرة أن تكونوا في أحسن حال)(٣) وتصور لنا وثيقة أخرى تمني صديق لصديقه قائلًا «قبل كل شيء ابتهل أن تكون في كامل الصحة، فها أنا اجثوا للصلاة وأتضرع من أجلك امام مولانا الإله سارابيس كل يوم»(٤).

---

(1) ὁ κύριος ἡμών' Αρπεβήκις ἥδιστα πα- ρά σο[υ λαμβάνει το κῦψι; P. Warr. 13, 4-5. (Oxy. 2nd cent. A.D)

(2) χάριν δ ἔχω ἐγώ τώι κυρίω μου ἔτι μοι καί ἐν τούτωι διαβεβαιωσαμένωι ώς ἐπί πολύν χρόνον ζῄς μοι κύριέ μου Νή τήν γάρ αύτού τύχιν (Ιτύχην), ἐάν πρό του με εὐσταθήσαι ἐφ ἱκανόν - χρόνον συμβή τί σοι, κινδυνεύσω κακόν (Ι.κακός) κακ[ώς] ἀπολέσθαι. P. Warr. 13, 13-18. (Oxy. 2nd cent. A.D)

(3) πρό παντός εὔχομαί σε ὑγιαί-νειν μετά τών ἀβασκάντων σου παιδίων, καί τό προσκύ- νημα ὑμών ποιώ παρά τώ μεγάλφ Σαράπιδι ευχόμε- νη σοι τά κάλ<λ>ιστα πανοικεί. P. OXY. XIV. 1758, 3-8. (2nd cent. A.D)

(4) πρό μεν πάντων εὔχομαί σαι (1·σε) ὁλοκληρείν καί τό προσκύνημά σου ποιώ καθ' εκά- στην ἡμαίραν (1. ἡμέραν) παρά τώ κυρίῳ θε- ῷ Σαράπιδι. - Bell. H.S. " Popular Religion in Graeco Roman Egypt ", JEA. 34. (1948) P.P 82-98 – P. 91.

كذلك عبرت ووصفت الوثائق طبيعية العلاقة بين الابن والاب فنجد وثيقة يدعو الابن لأبيه قائلًا: واتمني لك الصحة والعافية يا أبي(١)وفي إشارة وثائقية أخرى يدعو الأبن لأبيه قائلًا: أبتهل (أن تنعم) بالصحة(٢)وفي إشارة أخرى في بردية ترجع للقرن الأوّل أو الثاني الميلادي اتمنى أن تنعم بالصحة والقوة(٣)وتمنوا لبعض السعادة قائلين – كن في سعادة εὐτύχει حديثنا ينتقل عن المشاركة الاجتماعية في الافراح ففي وثيقة ترجع للقرن الثاني الميلادي تصور إقامة الآباء لحفلات العُرس لأبنائهم وتقديمهم للزواج، فنجده في الوثيقة التالية اب يقدم ابنته للخطبة حيث تذكر الوثيقة أنه «وافق أنطونيوس ماركيلوس الفارس على خطبة أبنة أنطونيا ثايساريون إلى ماركوس فلافيوس سيلوا»(٤).

وهنا في مثل هذا الحدث يجتمع الأقارب من جهة الأب (agnati) والأقارب من جهة الأم (cognate) للمشاركة في هذه المناسبة(٥)وكانت تنظم الحفل ربة الأسرة mater Families فأشارت الوثائق إلى دعوات زواج ولدينا وثيقتين الأولى من القرن الثاني الميلادي جاء في هذه الدعوى ما يلي:

يتقدم ديونيسيوس بدعوتكم للعشاء من أجل زواج أولاده في منزل ايسخيرون غدًا في اليوم الثلاثين – ويبدأ الحفل في الساعة التاسعة(٦)وجاء في الوثيقة الثانية من القرن الثالث الميلادي ما يلي:

(تتقدم هيرايس بدعوتكم للعشاء لحضور زواج أولادها غدًا في منزلها في اليوم

---

(1) Ἐρρῶσθαί σε ευχο (μαι) πάτερ PSI. VIII. 930, 13-14

احتوت الجملة على الضمير الشخصي μπάς ,σε في حالة المنادى.

(2) Ἐρρῶσθαί ευχο μαι P. Tebt. II 412. 5 (2nd cent A.D)

(3) Ἐρρῶσθαί σε (υμάς) εύχο μα SB. XVI. I. 12556, 20.

(4) P.S.I. VI 730 (I. cent A.D.) I. If.

(5) Taubenschlag. R. The Law ... 2nd. ed., p.150.

(6) έρωτά σε Δίον[ϋσ]ιο[ς δείπνή]- σαι είς τούς γάμους τώ, τ[έκνων] έαυτού έν τή Ισχϋρίω(νος) α[ύριον], ήτις έστίν λ, άπό ώρας [θ]. P. OXY. III 5.2.4.

الخامس – وسيبدأ الحفل في الساعة التاسعة[(١)]، أيضًا تُعد عبارات الرثاء[(٢)] والمواساة من أنماط الرسائل المعروفة باسم παραμυθητική بمعنى (التعزية، الرثاء، المواساة) وهى صفة مؤنثة من الفعل παραμυθέομαι والذى يعنى (يؤازر، يواسى، يشجع). ويعتبر هذا النوع من الرسائل قليلًا[(٣)]، وينقسم الى رثاء نوعى وهو ما يشارك فيه اهل واصحاب المتوفى بإرسال الاطعمة كقرابين للمتوفى او المساعدة في تقديم بعض نفقات الطقوس الجنائزية، ورثاء لفظى وهو إحدى الأوعية التي يصب فيها الإنسان بعضًا من مشاعره وأحاسيسه تجاه أحداث جلل تصيبه أو تحدث لأعزاء لديه.

وتمدنا هذه الرسائل بعبارات متعددة يتضح منها تقديم التعاطف للأقارب والأصدقاء الذين فقدوا شخصًا عزيزًا عليهم، كذلك لتقديم الرثاء والإعتذار عن تغيبهم في أوقات الحزن العصيبة التي وجب عليهم فيها تقديم التعاطف والمواساة بوجودهم الفعلي. قد يتسلم هذه الخطابات أصحاب المحنة أنفسهم أو ذويهم أو أحد

---

(1) ἐρωτά σε Ἡραίς δειπνήσαι είς γάμους τέχνων αῦτής ἐν τή οἰχία αῦριον, ἥτις ἐστίν Πέμπτη, από ὥρας P. OXY. I. III

(٢) رثأت الرجل رثأ: مدحته بعد موته، والمصدر رثيت ورثى الميت: عدد محاسنه، رأف لحاله وتوجع له وأسف عليه ورق لحاله وخشعت نفسه لفقدانه. فالرثاء هو تفخيم المُصيبة وتعظيمها عند فقد الأحباب ومفارقة الأليف.

انظر: ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثالث، دار المعارف.

محمد زغلول سلام: جوهر الكنز، الإسكندرية – منشأة المعارف ١٩٨٠، ٥٢١ – ٥٢٢.

كانت المواساة من التقاليد المهمة في العالم اليوناني الروماني، فقد احتلت مكانة كبيرة لدي التعاليم الريطوريقية والفلسفية، كما أنها تعد تدريبًا مهمًا في التدريبات الريطوريقية الأولية، وقد كانت خطابات المواساة من الأنواع الأكثر أهمية لدى كتاب الخطابات المسيحية في القرنين الرابع والخامس، فقد استخدموا العبارات التقليدية والأساليب الريطوريقية وعرضوها بشكلٍ جيد.

انظر:

- R.S. BAGNALL& R., *Cribiore Womens Letters from Ancient Egypt 300BC – AD 800* , University of Michigan Press, (2006) P. 182

(3) REA J. R., *A Letter of Condolence*: CPR VI 81, Revised, ZPE 62 (1986) P.75.

أصدقاؤهم(١). ولهذا يلجأ البعض إلى تدوين خطابات الرثاء والمواساة ليعبروا فيه عن مواساتهم وتعزيتهم(٢). ومن التعبيرات الرثائية الشاملة التي تشير إليها بعض الوثائق هي أن المتوفى مُختار أو محظوظ حيث تخلص من أزمات الدنيا ومِحَنِها.

«لا يوجد مخلوق وُلِدَ في الحياة مُخَلدًا. (البنت) محظوظة، حيث (وجدت) مخرجًا (وتخلصت) من الحياة التعيسة المُجهِدة»(٣).

ولأن فراق الأعزاء بالموت يُعد من الأقدار التي لا يمكن للإنسان فعل شيء حيالها، فقد تعددت العبارات الدالة على ذلك كما يتضح من الوثائق التالية:

«لكن مع ذلك فلا يمكنه فعل شئ تجاه مثل هذه الأشياء»(٤).

وأن الموت مُقدر على الجميع لا مهرب منه (كل نفس ذائقة الموت): هذه الأحداث مُقدرة على الأنسان وتحدث لنا جميعًا(٥)«وقد ورد في خطاب يعبر عن المواساة في موت أحد الأبناء، وهو مرسل إلى أبولونيانوس وزوجته سبارتياتي، وفيه يرثى مينيثيانوس الابن (الفقيد) بأنه مثل ابنه وبأنه جدير بالمحبة كما يواسى أبويه في فقدان

(١) كان الانطباع العام، هو أن مرسلي الخطابات كانوا قادرين على الكتابة بأنفسهم في هذه الظروف. ولكن يصعب على أي شخص أن يحدد كم كان عدد اللذين تمتعوا بقدر من التعليم يؤهلهم للكتابة بأنفسهم. وكان متلقو خطابات المواساة إما أقارب أو أصدقاء مرسليها، وعندئذٍ فقد كانت لهم في أغلب الأحوال المنزلة أو المكانة الاجتماعية ذاتها. انظر:

- TOMASZ. D., *Necropolis Workers in Graeco-Roman Egypt, in the Light of the Greek Papyri*, JJP XXI (1991)

(2) TOMASZ. D., Op. Cit. p. 32.

(3) SB XVIII 13946 (Hermoupolis Magna?; III-IV AD) ll.14–17.

[Reprinted from: CPR.VI.81]

οὐδ̣ε̣ὶ̣ςγὰρτῶν ἁπλῶςγεγ̣νω-

μ̣ένωνἀθ̣[άν]α̣τος. μακαρία μ̣ὲ̣ν̣ [ἐ]κεί-

[νη ἡ] π̣ρὸτῶνσ̣υμφορῶντὸν [δ]ύ̣στη-

νον̣ καὶ μοχθηρ̣[ὸν βίον] φυγοῦσα,See P. Rea J. R., Op. Cit., P. 76.

(4) ἀλλ'ὅμωςοὐδὲνδύναταί τις πρὸςτὰτοιαῦτα- P. Oxy. I 115 (Oxyrhynchus; II AD). l. 9f.

(5) P. Oxy. LV 3819 (Oxyrhynchus; IV AD)l. 12f

ταῦταγὰρἀνθ̣ρώπινά ἐστιν. (κα) \καὶ/ πᾶσι γὰρἡμῖντοῦ̣τ̣οκεῖται

الابن (الفقيد) بأنه مثل ابنه وبأنه جدير بالمحبة كما يواسى أبويه في فقدان ابنهما، قائلًا إنه كابن لي ويستحق كل الحب:

«مينيثيانوس إلى أبولونيانوس وسبارتياتي، طوبى لكما. إن الآلهة تشهد على أنني حينما علمت بما حدث لسيدي (الفقيد) ابنكما، حزنت وبكيت عليه وكأنه ابني، حيث أنه جديرًا بالمحبة. فدفعني هذا للذهاب إليكم (لمواساتكم)، ولكن منعني بينوتيون (من المجيء إليكم)، حيث قال إنك يا سيدي أبولونيانوس قد أمرته بعدم حضوري، لأنك ستكون في إقليم أرسينوي. وعلى أية حال فإن عليكما أن تتحملا (الفجيعة) بالصبر»(١).

ونلاحظ من خلال هذه الوثائق أن المراسلين حريصين على إظهار حزنهم وأسفهم لذلك الشخص الذي حُرِمَ من أحد أقاربه، مما يعتبر تصريحات واضحة وصريحة إلى حزن كاتب الرسالة كشخص عانى بالفعل كمعاناة صاحب المحنة الحقيقي.

وهذا خطاب موجه من إريني إلى تاونوفريس وفيلون تعبر فيه عن عزائها لهم في فقيدهم إيومويروس. وتذكر لهما أنها أيضًا فقدت شخصًا من عائلتها وأن الموت لا حيلة فيه، وأنه أمر يحدث لا محالة لجميع البشر ولا يمكن الفرار منه، كما تنقل لهما أيضًا تعزية كل أسرتها وتحثهما على التغلب على أحزانهما ومواساة أنفسهم:

«إريني إلى تاونوفريس وفيلون، تحياتي. هكذا حزنت وبكيت على (الفقيد)

---

(1) Μενεσθιανὸς Ἀπολλωνιανῶι καὶ Σπαρ- τιάτῃεὐθυμεῖν
μάρτυρεςοἱθεοὶ \ὡς/ πυθόμενος περὶτοῦκυρί-
ουμου, υἱοῦὑμῶν, οὕτωςἠχθέσθην καὶ
5ἐπένθησα ὡςἴδιοντέκνον· κ[α]ὶ γὰρἄξιο-
φίλητον ἦ· καὶ ὁρμὴνἔχοντάμεἐξορμῆ-
σαι πρὸςὑμᾶςΠινουτίων ἐπέσχεν, φάσ-
κωνσὲτὸνκύριόνμου Ἀπολλωνιανὸν
παρηγγελκέναι αὐτῷμὴἀνελθεῖνμε
10ὡς σοῦεἰςἈρσινοείτηνγειν[ο]μένου. ἀλλὰ
γενναίως φέρετε· - PSI. XII. 1248 (Oxyrhynchus; AD 235) ll. 1-11.

إيومويروس بقدر ما بكيت على ديدياس، ولقد قمت بكل ما هو واجب ومفروض (عليّ أنا) وكل عائلتي: إبافروديتوس وثيرموثيون وفيلون وأبولونيوس وبلانتاس. لكن مع ذلك فإن الإنسان لا يمكنه فعل شئ تجاه مثل هذه الأشياء. وبالتالي فإن عليكم أن تتعزوا عن منْ (فقدتم). فلتصحبكم السلامة ١ من شهر هاتور (٢٨ أكتوبر – ٢٦ نوفمبر)»(١).

وتعددت الصفات الرثائية التي يستخدمها الأشخاص من خلال الوثائق البردية والنقوش عند رثاء ذويهم ومن أشكال الرثاء الشجاعة والمروءة والسمو والأدب وكرم الأفعال والأسف والفجيعة(٢).

نجد أن صفة εὔμοιρος بمعنى (المرحوم)، وهى صفة رثائية، قد وردت كثيرًا(٣). كما ذُكرت في رسالة أرسلتها أم إلى ابن لها، تذكر فيها ما حدث لإبنها الآخر الذى توفى وقد رثته بصفة «المرحوم» ويظهر إحساسها بالمرارة على فقده حينما تذكر لإبنها الآخر

---

(1) Εἰρήνη Ταοννώφρει καὶ Φίλωνι εὐψυχεῖν. οὕτωςἐλυπήθην \καὶ/ ἔκλαυσα ἐπὶ \τῶι/ εὐμοίρωιώς ἐπὶ Διδυμᾶτος ἔκλαυσα, καὶ πάντα ὅσα ἦν καθήκοντα ἐποίησα καὶ πάντες οἱἐμοί, Ἐπαφρόδειτος καὶ Θερμούθιον καὶ Φίλιον καὶ Ἀπολλώνιος καὶ Πλαντᾶς. ἀλλ'ὅμωςοὐδὲν δύναταί τις πρὸςτὰτοιαῦτα. παρηγορεῖτεοὖν ἑαυτούς.- P. Oxy. I 115. Ibid.,ll. 1 – 12.

ROWLANDSON J., Woman and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook, Cambridge Univ. Press (2008) p. 341.

(٢) محمد زغلول سلام: جوهر الكنز، الإسكندرية– منشأة المعارف ١٩٨٠، ٥٢٢.

(3) TOMASZ DERDA, EUMOIRIA, A Proper Name or an Epithet of Deceased, ZPE 64, (1986) P. 88.

See also P. Ryl. IV 691 (III AD),Cf. P. Haun. II 17 (II AD) ll. 9f
εἰςτὴνκηδείαν τοῦεὐ- μοίρου «من أجل جنازة (الرجل) الميت»

الذى مازال على قيد الحياة أنه لم يعد لها سواه بعد فقدت أخيه الابن الآخر.

«أريس إلى ابنها أبوللونيوس، كانت رغبتي أن أُحييك من خلال خطابي إليك. أنت تعلم ما حدثَ لابني المرحوم خايرمون، شيء سيء حدث فجأة، ووجب أن يكون له مدفن آخر. أكتب لك باضطرار. فلم يَعُد لى أحدًا بعد الله إلا أنت، وأعرف مشاعرك دائمًا تجاهه»[١].

كذلك كانت صفة εὔμοιρος (المرحوم) إحدى الصفات الرثائية الكثيرة المعبرة عن الحزن والرثاء كما توضح بطاقات الموتى[٢].

«المرحومة إسيدورا إبنة بيتيمينيس والدتها ترومباريبتيس»[٣].

وكانت بطاقات الموتى تحمل الكثير من الصفات الرثائية للميت كأن يوصف

---

(1) Ἄ̣ρ̣σ̣ις Ἀπ[ο]λλωνίῳ
τ̣ῷυἱῷ[ι] χαίρειν.
Εὐκταῖον ἦνμοιδι' ἐπιστολῆς
ἀσπάσασθαί σε, ἐπὶ οἶδας τὸσυμ̣β̣ὰ̣ν
τῶιεὐμοίρῳυἱῷμου Χαιρήμονι,
ὅ̣τιἐξ̣άπιν̣α ἐγένετοτὸἀτ̣ύ̣χημα
καὶ δε̣ῖ̣ αὐτὸνδευτέρᾳ ταφῇ̣ ταφῆναι.
ἀνα[γ]κ[α]ίω̣ς γράφωσοί̣· ο̣ὐδένα
<ἔ>χω [μ]ε[τ]ὰ̣ τ̣ὸν θ[εὸνεἰ μ]ή̣ σε καὶ οἶ-
δα τ̣ὴν π̣ροαίρεσιν ἣν \(hand 2) ἀ̣εὶ/ (hand 1) εἶχες
πρὸς αὐτόν. - P. Giss. Apoll. 21 (Hermoupolis Magna; II AD) ll. 1 – 11
[Reprinted from: P. Giss.68]

(٢) حسن أحمد حسن الإبيارى: «بطاقات الموتى فى مصر خلال العصر الرومانى»، مجلة الدراسات البردية والنقوش، العدد ٢٤، كلية الآداب، جامعة عين شمس. (٢٠٠٧)، ٢٩٣ – ٣٦٨.

(3) εὐμοιρία'Ισιδώρα Πετεμίνιος
μητρὸςΤρομπαρβείτ(ιος)
Ψενσενψανσνῶ<το>ς
T. Mom. Louvre 472 (Unknown provenance; III AD) ll. 1- 3.
[Reprinted from SB XIV 11482]

بصفة πτεροφόρος بمعنى (الملاك)، بصرف النظر عن عمره عند الوفاة ويجسد هذا الوصف المشاعر الإنسانية تجاه المفقودين الأعزاء. فنجد سينبسانسوس توصَف بأنها ملاك وتوفيت عن عمر سبع سنوات:

«سينبسانسوس الملاك ابنة أبوللونيوس والدتها أرتميس إبنة بيتيمينيس. ماتت عمرها سبع سنوات»(١).

كذلك نجد بيتيتريفيس يوصف بأنه صغير وملاك، وقد بلغ عمره عند الوفاة ٦١ عامًا و٨ شهور:

«بيتيتريفيس الصغير الملاك.. عاش إحدى وستين سنة وثمانية أشهر»(٢).

أيضًا صفة αωρος والتى تعنى (صغير على الموت، مات قبل الأوان) وقد وردت هذه الصفة الرثائية كما يتضح من خلال قاعدة البحث Papyri.info حوالى ست مرات، على سبيل المثال:

«أرتميدورا ابنة هاربوكراس (التي تُوفيت) قبل الأوان. عمرها ٢٧ عامًا. وداعًا»(٣).

ويتضح من خلال استخدام هذه الصفة مدى حزن الأهل على فراق فقيدتهم

---

(1) τὸὄνομα Σενψαν-
σνῶτος Ἀπολλωνίου
πτεροφόρουμητρὸς
Ἀρτέμιτος Πετεμείνιος
ἐτελεύτησενἐτῶν ἑπτά- T. Mom. Louvre 908 (Unknown provenance; AD 200 – 299) ll. 1- 5

(2) Πετετρίφιος νεω-
τέρου. Πτεροφόρου
ἐβίωσεν ἐτῶν ἑξ[ή]κοντα ἑνὸς μηνῶν η - T. Mom. Louvre 890 (Unknown provenance; AD 100 – 299) ll. 1ff.

(3) Ἀρτεμιδώρα Ἁρ-
ποκρᾶἄωρος, (ἐτῶν) κζ
εὐψύχει. - SB I 5626 (Unknown provenance; ca. AD 70 -110) ll. 1 – 3.

أرتميدورا بتصويرها ماتت صغيرة في غير يومها، ذلك بالإضافة إلى استخدام الفعل εὐψυχέω والذى يعنى (وداعًا) وهو يقابل الفعل χαίρω بمعنى (التحية)، ولكن المصدر εὐψυχεῖν يتضمن معنى الحزن والألم لذلك نجده في خطابات التعزية أو المواساة(١).

الصفة ἀείμνηστος بمعنى (لا يُنسى – ستتذكره دائمًا) قد وردت كالتالى: «هاريميفيس بن سينيسيس والدته سينفونسيس، (مات) خلال منتصف العام الأول الحالي. (ستتذكر) اسمه دائمًا»(٢).

«ديموس، مات في عمر ٢٤ (عام) ولن يُنسي أبدًا»(٣).

الصفة τάλας بمعنى (البائس – التعس – الحزين) قد وردت كالتالي:

«سينبسايس إبنة بسيتموسيوس والدتها سينباليس التعسة ماتت عمرها عشرين (عامًا)»(٤).

الصفة γλυκύς بمعنى (العزيز – الجميل – السعيد) قد وردت كالتالي: «أكتب لكما... بخصوص ابنه الجميل، بأن عليه أن يتحمل ذلك فليس بمقدورنا أن نفعل

---

(1) See P. Oxy. 115. Ibid. (II AD) l.2

(2) Ἀρεμήφιος Ψεννήσιος μητρὸς
Σενφούνσιος βιώσαντος ἐνιαυτοῦ
ἑνὸς ἡμίσους. εἰς ἀείμνηστον τὸ
ὄνομα. - SB I 1208 (Unknown provenance; AD 100 – 299) ll. 1 – 4

(3) Δημώς, (ἐτῶν) κδ, ἀείμ-
νηστος. - SB I 1425 (Unknown provenance; BC 332 – AD 640) l. 1f

(4) Σενψάιτος
Ψεντμομσι-
ῶτος καὶ
Σενπάλλι-
τος
ταλαίνης
ἐτῶν κ - T. Mom. Louvre 800 (Unknown provenance; II - III AD) ll. 1 -7

شيء في مُجابهة الموت»(١).

الصفة ἄλυπος بمعنى (يتحرر من آلامه- يتخلص من أحزانه) قد وردت كالتالي:

«ديمتريا التي تخلصت من آلامها (ماتت) عمرها ٣٠ سنة»(٢).

الصفة ἥμερος بمعنى (المُتحضر – الراقى – الرقيق) قد وردت كالتالي: «بسيثاتريس بن بارميناس والدته سينبيتيسيس من مدينة بانوبوليس عاش ٢٥ (عام) ساميًا ٢٦ من شهر بابه»(٣).

لم تكن المواساة والرثاء لفظية فقط للتعبير عن المشاركة الوجدانية والأسف عن الأقدار المفجعة، لكنها نوعية أيضًا، حيث وُجِدَ أن بعض خطابات الرثاء والتعزية تحتوى على عبارات تفيد إرسال الأطعمة كقرابين للمتوفي، وقد تكون في ذات الوقت وسيلة لمساعدة أهل المتوفى ببعض نفقات الطقوس الجنائزية(٤)، كما توضح الوثيقة التالية:

«من تاسوخاريون إلى أخيها نيليوس. حزنت جدًا لسماعى عن (وفاة زوجتك) تانوفريس. تحمل ذلك يا أخى بصبر من أجل أولادك. استلم من الشخص الذى يُحضر لك هذا الخطاب مائة وستين من الفاكهة المُجففة ١٦٠ بالعدد، وعشرة مخاريط

(1) γράφεσὺοὖν Καλα . .ίδᾳ περὶτοῦ
γλυκυτάτουτέκνουὅτιἐνείκηται. οὐ-
δὲνδυνάμεθα πρὸςτὸνθάνα-
τον SB XII 10840 (Unknown provenance; IVAD) ll. 25 – 28 [Reprinted from: PSI VII 831]
(2) Δημητρία, (ἐτῶν) λ, ἄλυπος- SB I 5754 (Hawara; BC 332 – AD 640) l. 1
(3) Ψενθατρῆς Παρμενᾶτος
μητρὸςΣενπετήσιος
ἀπὸ Πανὸς πόλεως
ἐβίωσενκεήμέρας
Φαῶφιкς- T. Mom. Louvre 210 (Panopolis; II - III AD) ll. 1- 5
(4) P. NILSSON, Martin., A history of Greek Religion, Oxford 1949. P.103

(أكواز) من الصنوبر للطقوس الخاصة بها»[١].

وهناك نوع من الرثاء والمواساة اللفظية والتى يقوم بها θρηνητρίαι ،θρηνηταί بمعنى (النائحون)، وكان عدد كبير منهم من النساء، يطلين وجوهن بالطين ويضربن صُدورهن مع عويلهن[٢] لينعين المتوفى ويرثينه ببالغ الحزن والأسى ويعددن خصاله الطيبة وأخلاقه السامية إلخ. وكانت الجنازات تشتمل على النائحين، من أقارب المتوفى أو عبيده الموجودون قبل دفنه في منطقة المقابر. ولجعل الدفنه أكثر عظمة وحمية كان أهل المتوفى يستأجرون محترفين يمتهنون مهنة النائحين[٣] فقد ورد فى حساب تكاليف جنازة بند يفيد تلقيهم أجرتهم. قد تكون هذه الأجرة نقدية أو عينية: إلى النائح مكيال من الخمر[٤]، «النائحون ٣٢ دراخمة»[١].

---

(1) Νείλωτῳ̣ἀδελφῷ
παρὰ Τασουχαρίου.
λίαν ἀ[η]δῶς ἤ[κο]ụ-
σα παρὰ Ταονν[ώ]φρι(ος).
γενναίωςφερέτ[ω]
ἄδελφεδιὰτὰ
παιδία σου.
κόμισαι παρὰτοῦ̣
ἀναδιδόντος σοι ταύ-
την ἐπιστολὴν
τραγήματα ἀρι-
θμῷἑκατὸν ἑξή-
κοντα καὶ στροβίλους
δέκα [εἰ]ς θυσίαν
αὐτ[-ca.?-] - BGU III 801 (Unknown provenance; II AD) ll. 1-7,12 - 19

See BAGNALL R. S. &CRIBIORE R., Women's Letters from Ancient Egypt 300 BC – AD 800, University of Michigan Press, (2006) P. 180.

(2) ROBERT GARLAND, The Greek Way Of Death Duckworth& co.LTD., 1935 P. 106.

(3) TOMASZ DERDA, Necropolis Workers in Graeco-Roman Egypt, in the Light of the Greek Papyri, JJP XXI (1991) P. 33.

(4) τῷ θ[ρην]ητῇ κ̣ν(ίδιον) [α], - BGU I 34, col. II (Unknown provenance; IV AD) l. 20.

بالرغم من روح الود والتعاطف والرثاء[٢]التي شاعت في الخطابات التى تُعد مصدرًا مهمًا نستدل من خلاله على مظاهر الحياة المختلفة، حيث تمكنا من التعرف على الملامح الاجتماعية والنفسية للأفراد. وقد ساعدتنا الخطابات على معرفة تفاصيل عديدة من جوانب الحياة بحلوها ومرها، والمشاكل، والاضطرابات والتصرفات الشخصية وألوانًا أخرى من مظاهر الحياة[٣]. فإن هناك بعض التصرفات غير اللائقة التى صدرت من بعض الأشخاص توضح وتنم عن مشاعر الجحود ونكران الجميل التى تملكت أقرب الناس إلى بعضهم البعض، كما توضح الوثيقة التالية، حين تجرد الإخوة من مشاعر الأخوة والمحبة وصلة الرحم وتركوا جثة أخيهم مسجاة وقد قام أحد الأشخاص – وهو كاتب الخطاب – بالإنفاق على تجهيزها وتكفينها حتى إرسالها لهم لكى يدفنوها، ويتعجب الرجل من أنهم تركوا الجثة مُكفنة وإنشغلوا بجمع متعلقات أخيهم الميت وممتلكاته وانصرفوا وتركوه، ومن الواضح أنهم رفضوا أو تهربوا من دفع هذه النفقات حيث يحثهم كاتب الخطاب على دفعها:

«من ميلاس... إلى سارابيون وسيلفانوس/... سلامًا. أرسلت لكم من خلال الحانوتي جثة أخيكما فيبيون ودفعت له نفقات نقل الجثة بالكامل، وهى بالدرخمات ثلاث مائة وأربعين دراخمة من العملة القديمة، وأنا أتعجب بشدة حيث أنكما ذهبتما دون أن تأخذا الجثة، ولكن جمعتما كل ممتلكاته وانصرفتما، ومن هنا علمت أنكما لم تحضرا من أجل (أخيكما) المتوفى ولكن من أجل (الحصول على) ممتلكاته. تعقلا وسددا (المبالغ) التي أنفقتها. والمصروفات هي: ثمن العقاقير ٦٠ دراخمة (من العملة)

---

(1) θρ[η]νηταί (δραχμαί) λβ - SPPXXII 56, Col. II (IIIAD) l. 27

(٢) لم تقتصر المشاعر الإنسانية الفياضة تجاه المخلوقات على الإنسان فقط ولكنها شملت الحيوانات أيضًا أنظر:

فكرية مصطفى صالح: «رثاء الحيوانات عند الشعراء في العصر السكندري»، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٥٠، المجلد الأول. (١٩٩٩ – ٢٠٠٠)، ٢٤٥ – ٢٥٥.

(3) J.E. HARRISON., Astudy of rhe Social Origims of Greek Religion, Univ. Press, Cambridge, 1927, P. 270.

القديمة، ثمن الخمر في اليوم الأول لـ٢ خوس (من الخمر) ٣٢ دراخمة (من العملة) القديمة، ومن أجل تكاليف الطعام والحلوى ١٦ دراخمة. من أجل الحانوتى (الذى نقل جثة أخيكما) إلى المقبرة بالإضافة إلى الأجر المتفق عليه واحد خوس (من الخمر) عشرين دراخمة، و٢ خوس من زيت الزيتون ١٢ دراخمة ١ أردب من الشعير ٢٠ دراخمة، سعر الكفن الكتان ٢٠ دراخمة، الأجرة كما سبق الذكر ٣٤٠ دراخمة، الإجمالي بخصوص حساب تكاليف النفقات الكُلية بالدرخمات (من العملة) القديمة خمسمائة وعشرين دراخمة. الإجمالي ٥٢٠ دراخمة. لذلك كان عليكما تقديما كل (شيء) لنقل الجثة المُكفنة مع الأطعمة والخمر القليل وزيت الزيتون وكل شيء كان فى إستطاعتكما لكى تشهدا لي (بحس التصرف والإنفاق). لكنكما لم تفعلا شيء»[1].

---

(1) [Μέλας.....] Σαραπίωνι καὶ Σιλβανῷ [......χ]αίρειν. ἀπέστειλα ὑμῖν [διὰτοῦ ν]εκροτάφουτὸσῶμα τοῦ [ἀδελφοῦ] Φιβίωνος καὶ ἐπλήρωσα [αὐ]τὸν [το]ὺςμισθοὺςτῆς παρακομιδῆςτοῦσώματος ὄντας ἐνδραχμαῖς τριακοσίαις τεσσαράκοντα παλαιοῦ νομίσματος καὶ θαυμάζω πάνυ [ὅτι] ἀλόγως ἀπέστητεμὴἄραντες [τὸ σ]ῶμα τοῦἀδελφοῦὑμῶν, ἀλλὰ σ[υ]νλέξαντες ὅσα εἶχεν καὶ οὕτως ἀπέστητε, καὶ ἐκτούτουἔμαθον ὅτιοὐχάριντοῦνεκροῦἀνήλθατε, ἀλλὰχάριντῶνσκευῶν αὐτοῦ φροντίσα̣τεο̣ῦ̣ντὰἀναλωθέντα ἑτοιμάσαιἔστιδὲτὰἀναλώματα· τιμ(ῆς) φαρμάκου παλ(αιαὶ) (δραχμαὶ) ξ, τιμ(ῆς) οἴνουτῇ πρώτῃ ἡμέρᾳχο(ῶ)ν β παλ(αιαὶ) (δραχμαὶ) λβ, [ὑπ(ὲρ)] δαπάνηςἐνψωμίοις καὶ προσφαγίοις (δραχμαὶ) ις,

أيضًا يظهر هذا الجحود من الإخوة خلال الخطابات تجاه بعضهم البعض كما توضح الوثيقة التالية وهى تتعلق بإهمال حضور مناسبة وفاة، حيث تُعنف أخت أخاها وتلومه حيث أنه لم يهتم بحضور جنازة أخيهما الأصغر:

«تصرفت بصورة غير لائقة تجاه (موت) أخيك ولم تأتي، ورحلت دون أن تحضر جنازته»(١).

[τ]ῷ νεκροτάφῳεἰςτὸὄρος
με[τ]ὰ τὸνγεγραμμένον
μισθὸνχο(ῦν) ἕνα (δραχμαὶ) κ,
ἐλαίουχό(ας) β (δραχμαὶ) ιβ,
κρ[ι]θῆς (ἀρτάβην) α (δραχμαὶ) κ,
τιμ(ῆς) σινδόνος (δραχμαὶ) κ
καὶ μισθοῦὡς πρόκ(ειται) (δραχμαὶ) τμ
(γίνονται) ἐπὶ τοῦ λ̣[όγο]υ τῆς
ὅλης δα[πά]νης παλαιοῦ
νομίσματος δραχμαὶ
πεντακόσιαι εἴκοσι,
γί(νονται) (δραχμαὶ) φκ
[π]ᾶνοὖν ποιήσετε ὑπηρετῆσαι τὸν
μέλλοντα ἐνεγκ[εῖ]ν τὸσῶμα
ἐνψωμίοις καὶ [οἰ]ν̣αρίῳ καὶ ἐλαίῳ
καὶ ὅσα δυνατὸν ὑ[μῖ]ν ἐστιν, ἵνα μαρ-
τυρήσῃμοι. μη[δ]ὲνδὲδράσητε - Chr. Wilck. 498 (Oasis Major; III AD) [Reprinted from: P. Grenf. II 77], r, ctr

(1) οὐ καλῶς ἔπραξας μὴἐλ-
θεῖνχάριντοῦἀδελφοῦ
σου· ἀφῆκες αὐτὸνμὴ
κηδεῦσαι αὐτόν. - P. Oxy. VII. 1067 (III A.D) ll. 3 -6.

نتائج البحث

- كل ما سبق عرضه من نماذج.
- **أكدت الدراسة على التواد الاجتماعي بين الأقارب وبعضهم البعض من حيث المساندة والتواصل وتخفيف العبء.**
- **أوضحت الدراسة بعض أنواع التواد الاجتماعي كمصطلح إيجابي كان قديمًا وما زال حديثًا.**
- **استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لعرض نماذج الوثائق.**
- كشفت أيضًا عن طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد من خلال الخطابات التي عبرت عن معاناة المشاركين وظروفهم الاقتصادية أو العائلية التي منعتهم من الحضور للمشاركة والمواساة.

قائمة المراجع

١ - البردى Papyri

BGU I 34, col. II (Unknown provenance; IV AD).
BGU III 801 (Unknown provenance; II AD).
Chr. Wilck. 498 (Oasis Major; III AD).
P. Giss. Apoll.21 (Hermoupolis Magna; II AD).
P. Haun. II 17 (II AD).
P. Oxy. I 115 (Oxyrhynchus; II AD).
P. Oxy. VII. 1067 (III AD).
P. Oxy. LV 3819 (Oxyrhynchus; IV AD).
PSI. XII. 1248 (Oxyrhynchus; AD 235).
SB I 1425 (Unknown provenance; BC 332 – AD 640).
SB I 5626 (Unknown provenance; ca. AD 70 -110).
SB I 5754 (Hawara; BC 332 – AD 640).
SB XII 10840 (Unknown provenance; IVAD).
SB XVIII 13946 (Hermoupolis Magna?; III- IV AD).
SPP XXII 56 (III AD).
P. Amst. = Die Amsterdamer Papyri I, ed. R.P. Salomons ا

PJ.Sijpesteijn, and K.A. Worp. Zutphen 1980.
P.Mich = Michigan Papyri, ed. C.D. Edgar, and others
19 vols. At present, Ann Arbor, and Toronto (99-1931).
P. Oxy. = The Oxyrhynchus Papyri, ed. B.P.Grenfell
A.S.Hunt, and others, 67 vols., Published by The
Egypt, Explora- tion Society in Graeco- Roman
Memoirs. London (1898-2000).
P.Warr. = The Warren Papyri ed. M. David, B.A. van
Groningen and J.C. van Oven. Leiden 1941.
P. Yale = Yale Papyri in the Beinecke Rare Book and
Manuscript Library, II, ed. J.F.Oates, A.E.Samuel
and C.B.Wells. New Haven and Toronto 1967.
(Am.Stud.Pap.II).
SB Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegyp-
ten, ed. F. Preisigke, F.Bilabel, and E.Kiessling
and others, 23 vols., Strassburg, Heidelberg, and
Wiesbaden 1915-2002.
UPZ = Urkunden der Ptolemderzeit (altere Funde), ed.
U. Wilcken, Berlin-Leipzig 1927.
O. Amst. = Ostraka in Amsterdam Collections, ed. R.S. Bag-
nail, PJ. Sijpesteijn and K.A. Worp, Zutphen 1976.
OGIS. = Orientis Graeci Inscriptions Selectae ed. W.
Dittenbe- rger, 2 vols.,Leipzig. 1903-05.
P.Ryl. = Catalogue of the Greek and Latin Papyri in the
John Rylands Library, ed. A.S,Hunt, J.de M.
Johnson, and others,4 vols., Manchester (1911-52).
PSI = Papiri greci e latini. (Pubblicazioni della
Societa Italiana per la ricerca dei papiri greci e
latini in Egitto),ed. G-Vitelli, M.Norsa, and
V.Bartoletti, 15 vols., Florence (1912-79).
P.Tebt. = The Tebtunis Papyri, ed. B.P.Grerifell, C.C.Ed-
gar A.S. Hunt, and J.G.Smyly, 3yol$., London (38-1902).

٢- النقوش

T. Mom. Louvre "Catalogue des étiquettes de momies du Musée du Louvre," ed. F. Baratte and B. Boyaval. Lille 1974—1979. Pt. 1, nos. 1—259 (*CRIPEL* 2, 1974); pt. 2, nos. 260—688 (*CRIPEL* 3, 1975); pt. 3, nos. 689—999 (*CRIPEL* 4, 1976)
T. Mom. Louvre 210 (Panopolis; II - III AD).
T. Mom. Louvre 472 (Unknown provenance; III AD).
T. Mom. Louvre 800 (Unknown provenance; II - III AD) ll. 1 -7.
T. Mom. Louvre 890 (Unknown provenance; AD 100 – 299).
T. Mom. Louvre 908 (Unknown provenance; AD 200 – 299).

٣- المراجع الأجنبية

1- Bagnall R. S. & Cribiore R. ‹Women's Letters from Ancient Egypt 300 BC – AD 800. University of Michigan Press ‹(2006).
2- Rea J. R. ‹A Letter of Condolence: CPR VI 81 Revised ‹ZPE 62 (1986).
3- Rowlandson J. ‹Woman and Society in Greek and Roman Egypt. A Source book. Cambridge Univ. Press. (2008).
4- Tomasz Derda ‹Eumoiria,AProper Name or an Epithet of Deceased ‹ZPE 64 ‹(1986).
5- Tomasz Derda ‹Necropolis Workers in Graeco-Roman Egypt ‹in the Light of the Greek Papyri ‹JJP XXI (1991).

٤- المراجع العربية

١- ابن منظور: لسان العرب، الجزء الثالث، دار المعارف.

٢- حسن أحمد حسن الإبياري: «بطاقات الموتى في مصر خلال العصر الروماني»، **مجلة الدراسات البردية والنقوش**، العدد ٢٤، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٧. ٢٩٣ – ٣٦٨.

٣- فكرية مصطفى صالح: «رثاء الحيوانات عند الشعراء في العصر السكندري»، مجلة كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، العدد ٥٠، المجلد الأول. (١٩٩٩ – ٢٠٠٠).

٤- محمد زغلول سلام: جوهر الكنز، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ٣٣ــ٦٢

التطورات الاجتماعية وأثرها في ازدهار منطقة عسير
خلال الفترة من (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/١٩٨٢ - ٢٠٠٥م)

سعيد بن سعد بن خاطر القحطاني

ملخص

يعد المجتمع في منطقة عسير من المجتمعات التي صنعت لنفسها تاريخًا اجتماعيًا من خلال التطورات الاجتماعية لسكان المنطقة وقد امتازت المنطقة بالكثافة السكانية الكبيرة وبالاستيطان البشري بالإضافة إلى ما تتمتع به من مقومات الحياة سواء من موقعها الجغرافي، أو تنوع ثرواتها الاقتصادية، أو حياتهم الاجتماعية أو الثقافية وتهتم الدراسة بالفرد وعلاقة بأهله وعشيرته والبيئة القبلية والعادات الاجتماعية ودراسة التطورات التي طرأت على جميع جوانب الحياة الاجتماعية في مجتمع منطقة عسير وشهدت هذه الفترة ازدهار بالتطورات الاجتماعية وسوف يناقش الباحث تطور فئات المجتمع (المهني) والعلاقات الاجتماعية بين تلك الفئات والعادات والتقاليد والقوانين العرفية والألبسة والزينة والاحتفالات بالأعياد والزواج والختان والمأتم والألعاب الرياضية والأطعمة ودور المرأة في الحياة الاجتماعية بمنطقة عسير.

Abstract

The community in the Asir region is considered one of the societies that made a social history for themselves through the social developments of the region's inhabitants. The region has

been characterized by a large population density and human settlement in addition to what it enjoys from the elements of life, whether from its geographical location, the diversity of its economic wealth, or its social or cultural life and is interested in The study with the individual, the relationship with his family and his clan, the tribal environment, social customs, and the study of the developments that occurred in all aspects of social life in the community of the Asir region, and this period witnessed a flowering of social developments. Marriage, female genital mutilation, sports, food, and the role of women in social life in the Asir region.

*
* *

تمهيد

يقع إقليم عسير في الطرف الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية بين دائرتي عرض ١٧-٢٢ شمالًا و٤١-٤٤ شرقًا(١).وذكر بأن منطقة عسير، الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية عدا منطقة جازان، وتمتد من حدود اليمن جنوبًا إلى بلاد زهران شمالًا ومن البحر الأحمر غربًا إلى تثليث وبيشة شرقًا، وتتكون من تهامة المحاذية للبحر الأحمر غربًا، تليها جبال السراة، ثم الهضبات الواقعة شرقًا(٢) الحكومة البريطانية اهتمت بعسير، ففي عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٢م قام هاري فيلبي برحلته لمنطقة عسير، كلفت المخابرات البريطانية بإعداد بحث عن عسير ورسمت خريطة لقبائل عسير في غاية من الدقة والشمول(٣). يحيط بمنطقة عسير خمس مناطق إدارية

(١) القحطاني، محمد مفرح وآخرون: السياحة، الأسس والمفاهيم، دراسة تطبيقية على منطقة عسير، جدة - دار العلم للطباعة ١٤١٧هـ ١٧٧.

(٢) العثيمين، عبد الله الصالح: معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ١٨٩.

(٣) PHILBY HARRY St. JHON, The Arabian highlands, Washington, 1952.

هي منطقة الرياض من جهة الشمال الشرقي، ومنطقة نجران شرقًا ومنطقة مكة المكرمة ومنطقة الباحة شمالًا، ومنطقة جازان جنوبًا وتطل المنطقة على البحر الأحمر من جهة الغرب بطول يبلغ ١٤٠كم، كما تشترك في حدودها الجنوبية مع حدود الجمهورية اليمنية. وتغطي مساحة تصل إلى ٧٨١٦٢كم٢، وبهذه المساحة تحتل المرتبة العاشرة بالنسبة إلى مناطق المملكة العربية السعودية(١).

ويتبع لمنطقة عسير أحدى عشر محافظة بالإضافة إلى مدينة أبها (المقر الإداري لمنطقة عسير) ويتبع لكل محافظة عدد من المراكز إذ يتبع لمحافظات منطقة عسير (١٠٦مركز)(٢).

المبحث الأول: فيئات المجتمع (المهنية) في منطقة عسير والعلاقات الاجتماعية بين تلك الفئات.

المبحث الثاني: العادات- التقاليد - القوانين العرفية - الألبسة والزينة.

المبحث الثالث: الاحتفالات والألعاب الرياضية (الأعياد - الزواج- الختان- المأتم - الألعاب الرياضية - الأطعمة والأشربة).

المبحث الرابع: المرأة ودورها في الحياة الاجتماعية بمنطقة عسير.

مر المجتمع السعودي بمراحل نمو حضري وتطور عمراني قسمت إلى ثلاث مراحل رئيسة هي:

= ترجمته مكتبة العبيكان عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م والذي كان نتاج رحلته لمنطقة عسير عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٢م.

(١) الزهراني، عبد الله بن سالم: موسوعة المملكة العربية السعودية، منطقة عسير، الرياض - مكتبة الملك عبد العزيز العامة ١٤٢٨، ٥.

(٢) المصدر الوطني للوثائق والمحفوظات، دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية. بيانات غير منشورة.

المرحلة الأولى ١٣١٩ - ١٣٥٨هـ/١٩٠٢ - ١٩٣٨م

«وهي مرحلة إنشاء الدولة وتوحيدها، حيث تم خلالها ضم أكثر من ٨٠% من منطقة شبه الجزيرة العربية تحت قيادة واحدة، واصطلح على تعريف هذه المرحلة، بمرحلة (ما قبل النفط)»[١].

وقد اتسمت المنطقة في ذلك الوقت بالأقاليم المنفصلة وبالطرق المحفوفة بالمخاطر وانعدام الأمن، وكانت الحياة القبلية ونظمها تشكل أساس الحياة الاجتماعية، وكان معظم السكان من البدو الرحل والرعاة، عدا قلة كانوا يعيشون في مدن صغيرة حول الواحات يعملون بالزراعة[٢].

المرحلة الثانية ١٣٥٨ - ١٣٨٩هـ/١٩٣٩ - ١٩٦٩م

وهي الفترة التي أعقبت نشأة الدولة وشهدت اكتشاف البترول عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م وقد تميزت هذه المرحلة باستقرار الأوضاع السياسية واستتباب الأمن بشكل عام[٣]. «وتسارع في النمو الاقتصادي والاجتماعي الشامل، وساهم ذلك في هجرة أعداد كبيرة من سكان البادية والريف نحو المدن، حيث الوفرة وفرص العمل، كما كان ذلك النمو سببًا في توافد العمالة العربية والأجنبية إلى المنطقة»[٤].

المرحلة الثالثة ١٣٩٠ - ١٤٢٦هـ/١٩٧٠ - ٢٠٠٥م

«وهي المرحلة الأكثر أهمية في عملية التنمية، حيث اتسمت بالازدهار الاقتصادي،

---

(١) السرياني، محمد محمود: «ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية خلال الفترة من ١٩٨٨-١٩٠٢»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٦٣، الكويت ١٩٩٠، ١٣.

(٢) الشثري، محمد ناصر: الدعوة في عهد الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤١٧ هـ، ١: ٣٥، ٥٢.

(٣) قاضي، إبراهيم وآخرون: تخطيط المدن في المملكة العربية السعودية، الرياض- شركة الطباعة المحدودة ١٩٨١ م، ٣٢.

(٤) قاضي: مرجع سابق، ٨٩.

وظهور مبدأ التخطيط الشامل، وإرساء قواعد الصناعة في بعض المدن، وقد أطلق على هذه المرحلة اصطلاحا مرحلة الوفرة الاقتصادية والتخطيط»(١).

ولقد شهدت منطقة عسير خلال فترة الدراسة (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ) تغيرات رئيسية، تجلى ذلك في مجموعة من المؤشرات، لعل من أهمها عدم اقتصار خطط التنمية على الجوانب الاقتصادية فحسب بل تعدت ذلك لتشمل التنمية الاجتماعية والثقافية وتم استلام زمام الأمور من قبل إمارة عسير ممثلة في أمير عسير خالد الفيصل وذلك بعد تعيينه أميرًا لمنطقة عسير حسب الأمر الملكي رقم أ/ ٥٦ تاريخ ٢٣/ ٢/ ١٣٩١هـ. فما برح ليواصل الجهود ويبذل المساعي الحثيثة، حتى تحقق انجاز عدد من المشاريع التنموية فتحولت قرى ومدن منطقة عسير إلى مدن حديثة متطورة من خلال دعم الدولة،وكذلك دعم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وأهالي وسكان منطقة عسير(٢).

المبحث الأول
فئات المجتمع (المهنية) في منطقة عسير
والعلاقات الاجتماعية بين تلك الفئات

امتد تاريخ عسير قبل الإسلام وبعده فقد حكمها الصرد بن عبد الله الأزدي في السنة العاشرة للهجرة النبوية، ثم حكمها عبد الله بن ثور زمن الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٣٤ هجرية، فالأمويون، فالعباسيون، فالطولونيون بين عامي ٢٥٤-٣٩٣هـ،ثم الفاطميون، فالسلاجقة، فالأيوبيون، ثم المماليك فالعثمانيون،حتى استقر الأمر في عسير تحت حكم الدولة السعودية التي وحدها الملك عبد العزيز عام

---

(١) السرياني، مرجع سابق، ١٦٠.

(٢) جريدة البلاد - عدد يوم الاثنين ٢٣/ ٢/ ١٣٩١هـ.

١٣٥١هـ،وهناك من يرجع أصول السكان لهذه المنطقة في فترات ما قبل الإسلام إلى أصولها عدنان وقحطان، فالعدنانيون هم من نسل أسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ونسبهم على جدهم الأكبر عدنان ومهدهم الحجاز، وأشهر بطونهم مُعدَّ ونزار، وأما القحطانيون فهم من نسل قحطان بن هود،وهو النبي هود عليه السلام ومن أشهر بطونهم سبأ وحمير وكهلان(١).

«ووفقًا للتعداد السكاني الذي أجرى في عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م فقد بلغ إجمالي عدد السكان في منطقة عسير حوالي ١,٩٦ مليون نسمة، ويمثل هذا العدد حوالي (٧,٤٥)٪ من إجمالي سكان المملكة الذي بلغ حوالي ٢٢,٧ مليون نسمة، وقد بلغ عدد السكان السعوديين في منطقة عسير حوالي ١,٤٣ مليون نسمة في حين يوجد بها ٢٥٤ ألف نسمة من السكان غير السعوديين، وبلغ عدد المساكن المشغولة في المنطقة ٢٨٧,٨٥٣ وحدة سكنية»(٢).

ويمكن تقسيم فيئات المجتمع (المهنية) في منطقة عسير قبل فترة الدراسة إلى:

التجار، الرعي، الزراعة، الحرف والصناعات اليدوية

- **التجار**: وهم الفئة التي كانت تستحوذ على نصيب كبير من رأس المال، حيث اعتمدت الحركة التجارية في منطقة عسير على كثافة السكان باعتبارها الطاقة السكانية المستهلكة، ومنطقة عسير هي من مناطق الجذب السكاني لاعتدال جوها وخصوبة أرضها وكثرة أمطارها الموسمية(٣)ويلاحظ ان التجارة مع أنها كانت في الماضي بسيطة متواضعة لمحدودية الدخل والأرض وصعوبة المواصلات وقلة المال، وعندما بدأت

---

(١) أبو ملحمة: عسير التاريخ والحضارة والسياحة، ٣٢- ٣٣.

(٢) التقرير الاقتصادي ٢٠٠٧م، منطقة عسير،١١.

(٣) النعيمي، هاشم بن سعيد: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الرياض- مكتبة الملك فهد الوطنية ١٩٩٩م، ١١٥.

خطط التنمية تنفيذ مشروعاتها وأنشئت المطارات، وشقت الطرق والكباري وتوافر أدوات الاتصالات والمواصلات قفزت التجارة قفزة كبيرة في مجالات مختلفة وأن تلك المهنة قد تطورت إلى حد بعيد حتى وصلت إلى مرحلة التجارة الإليكترونية، وتجارة البترول والمعادن والاستيراد والتصدير من جميع الدول وغيرها من أشكال التجارة الحديثة والازدهار في المجال الاقتصادي وغيره.

- **الرعي**: انتشرت مهنة الرعي في كافة المناطق الجنوبية ومنها عسير، وكانت بشكل مكثف في المناطق البدوية، لأنها كانت حرفة السكان الأساسية في تلك الأجزاء، وكانت مهنة الرعي عند بعض سكان عسير تقترن معها مهنة الزراعة، حيث يمارسون هذين الحرفتين في آن واحد، فتراهم يمتلكون الضأن والأبقار والماعز ليرعوها في منطقة سكنهم بالسهول[١].

ويلاحظ إن هذه الثروات الحيوانية التي كانت موجودة في الماضي بكثرة،أصبحت اليوم شبه معدومة أو موجودة بدرجة أقل بكثير مما كانت عليه من ذي قبل، حيث طرأ على نمط الحياة تغيرات كثيرة، ومنها تدفق البترول مما أثر على كثير من المهن في أنحاء البلاد، حيث سعوا غالبية أصحاب مهن الرعي إلى بيع مواشيهم والالتحاق بالوظائف الحكومية أو عملوا بمهن أخرى كالتجارة أو الصناعة وغيرهما.

- **الزراعة**: تواجدت مهنة الزراعة في منطقة عسير نظرا لتوفر الأراضي الزراعية والمياه في بعض أجزاء من منطقة عسير وخاصة في السهول[٢]والواضح من اهتمام الحكومة السعودية منذ قيام الدولة على تشجيع المزارعين والمساعدات الكثيرة التي قدمت لهم، فنجد أن هذه الأساليب والطرق الزراعية التي كانت تستخدم في الماضي اندثرت،وقد حلت محلها الآلات الحديثة في الحرث والزراعة وسقاية الأراضي الزراعية، لكن المزارعين لم يستفيدوا من ذلك في الفترة الحالية وذلك لقلة وفرة المياه

---

(١) جريس: بلادد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (١٩- ٢٠)، الرياض- مكتبة الملك فهد الوطنية ١٩٩٣م، ١٤٧.

(٢) جريس: مرجع سابق، ١٤٧.

والتكلفة الاقتصادية الكبيرة وانضمام السكان للوظائف والتجارة والاعمال الاخرى، بل عندما نناظر إلى المناطق الزراعية نجد غالبيتها خالية من الزراعة وربما قد حولت إلى أراضي عمرانية وتجارية.

- **الحرف والصناعات اليدوية:** كانت هذه الحرف كثيرة وقد تم مزاولتها على المستوى الفردي والجماعي ومن هذه الحرف: دباغة الجلود، لنجارة، صناعة الخزف والفخار، النسيج والخياطة والصباغة، صناعة الرحى، والصناعات اليدوية عملا مميزًا اشتهر به الأهالي في منطقة عسير قبل قيام الصناعات الحديثة[١]. ويلاحظ أن بعض الحرف التي كانت موجودة في منطقة عسير قبل فترة الدراسة (١٤٠٢-١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) قد انقرض غالبيتها في يومنا هذا، فلم يعد سكان منطقة عسير بحاجة لها اليوم، حيث التقدم الحضاري والصناعي والعمراني والثقافي غير من طباع وعادات وحرف غالبية السكان، فما كان ينتج من هذه الصناعات بالطريقة اليدوية حل محلها الأجهزة والآلات والورش المتطورة التي تستطيع إنتاج أشياء كثيرة في وقت بسيط وبكفاءة عالية، بل بعضها يتم استيرادها من الخارج بمبالغ أقل من تكلفتها وبدون عناء، ولم يبقى الا القليل من الأسر التي تعمل في بعض هذه الحرف وتشجيع الدولة للأسر المنتجة.

فئات المجتمع (المهنية) في منطقة عسير خلال فترة الدراسة (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م).

كانت الأوضاع العامة التي كانت سائدة في الفترة ما قبل قيام الدولة السعودية الحديثة، كانت بسيطة وبدائية، تعتمد على الزراعة والرعي وعلى ما تنتجه البيئة المحلية من مواد[٢].

(١) الجبالي، عبدالله سليمان: حرف ومفردات من التراث، الحرس الوطني، الرياض، ١٦.

(٢) سبأ، صالح محمد عبد الصمد: تطور العادات والتقاليد والفنون الشعبية في المجتمع السعودي المعاصر في الفترة ما بين (١٩٥٠- ٢٠٠٥م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأردن: الجامعة الأردنية ٢٠٠٦م، ٢٢.

«لقد عمل الملك عبد العزيز مؤسس وموحد المملكة العربية السعودية على تشجيع رجال القبائل في مملكته على حياة الاستقرار، وذلك من خلال إقامة الهجر أو المستوطنات بغرض توطينهم، وكان الهدف من التوطين إدامة وتيرة الهدوء السياسي، والقضاء على المنازعات وذرائع القتال بين القبائل، إلى جانب توفير احتياطي من الرجال ذوي الولاء، لاستكمال مسيرة التوحيد وبسط نفوذ الدولة»[١]. ويلاحظ أن المجتمع العسيري منذ قيام المملكة العربية السعودية حتى نهاية القرن (١٤هـ - ٢٠م) في نمط حضاري متقارب في نسيجه الاقتصادي والاجتماعي والمعيشي، حيث كانت تجمعاته الزراعية تمارس أعمال الرعي، في حين كانت بعض تجمعاته البدوية تمارس حرفة الزراعة في فترات معينة، والتجار في أعمالهم التجارية، والحرفين كانوا يصنعون حوائجهم المنزلية، وأدوات عملهم بأنفسهم إلا أن كل مجتمع احتفظ بهويته وخصائصه المميزة، ولم تحدث سيادة نهائية لأي من المجتمعات، بسبب نجاح كل منهما في التعايش مع ظروف منطقته وإمكانياتها، وتعد المهنة في فترة الدراسة من الخصائص الأساسية التي ترتبط بالفرد ويكتسبها بالتعلم ومن الخبرة والممارسة، ويعتبر التركيب المهني لقوة العمل جانبًا هيكليًا مهما حيث أنه يحتل مكانًا بارزًا في عملية تخطيط الموارد البشرية لمواجهة متطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية وقد تطورت وتنوعت فئات المجتمع (المهنية) في فترة الدراسة (١٤٠٢- ١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢- ٢٠٠٥م). عن السابق ولذا تحتل البيانات المهنية في فترة الدراسة مكانًا بارزا في عملية التخطيط، وتوضح التركيبة المهنية لسكان منطقة عسير حسب التعداد السكاني لعامي (١٤١٣ - ١٤٢٥هـ) العديد من الخصائص المهنية التي يعمل بها المجتمع بمنطقة عسير وقد تنوعت وتطورت عن السابق.

ويمكن تقسيم فيئات المجتمع (المهنية) في منطقة عسير خلال فترة الدراسة حيث تم تصنيف أفراد قوة العمل من طرف مصلحة الإحصاءات العامة بوزارة التخطيط

(١) المانع، محمد: توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله العثيمين، الدمام ١٩٨٢ م، ١١٢.

حسب أنواع أعمالهم خلال تعداد ١٤١٣هـ:

وتوضح الجداول التالية توزيع القوى العاملة حسب المهنة لتعداد عامي ١٤١٣-١٤٢٥هـ بمنطقة عسير.

جدول يبين توزيع القوى العاملة حسب المهنة خلال عام ١٤١٣هـ(١)

المهن	المهن العلمية والفنية	المديرون والاداريون ومديرو الأعمال	العاملون بالمهن الكتابية	العاملون بمهن البيع	العاملون بمهن الخدمات	العاملون بالزراعة وتربية الحيوانات والدواجن	عمال الإنتاج وعمال التشغيل والنقل ومن إليهم	المجموع
العدد	٢٥٦٦٩	٢٤٨٠	١٠٨٠٢	٤٧٥٥	٧٤٦٢٤	٢٦٥٩٢	١٠٢٩٤	١٥٥٢٦٥
النسبة	١٦,٥	١,٦	٧,٠	٣,١	٤٨,١	١٧,١	٦,٦	

المصدر: وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاء العامة والمعلومات، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن في منطقة عسير عام ١٤١٣هـ ص ١٣٨.

جدول يبين توزيع القوى العاملة حسب المهنة خلال عام ١٤٢٥هـ(٢)

المهن الرئيسية	الاختصاصيون في المواضيع العلمية والفنية والانسانية	الفنيون في المواضيع العلمية والفنية والانسانية	المديرون والاداريون ومديرو الأعمال	العاملون بمهن البيع	العاملون بالمهن الكتابية	العاملون بمهنة الخدمات	العاملون بالزراعة وتربية الحيوانات	مهن العمليات الصناعية والكيميائية والصناعات الغذائية	المهن الهندسية الاساسية المساعدة	المجموع
العدد	٢٩٢٣٠	٦٣٤٦٠	٢١٢٥٤	١٤٧٩٨	٣٩٤٦٢	٢٨٤٦٥	١٨٨٠١	١٠٨٢٤	١٨٥٦١	٢٤٤٨٨٥
النسبة	١١,٩٤	٢٥,٩٢	٨,٦٨	٦,٠٤	١٦,١٢	١١,٦٣	٧,٦٨	٤,٤٢	٧,٥٨	%١٠٠

المصدر: وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاء العامة والمعلومات، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن عام ١٤٢٥ه (٢٠٠٤) بمنطقة عسير ص٧٣

يلاحظ من دراسة الجداول اعلاه أن بيانات المهن للمجتمع بمنطقة عسير تظهر في المقارنة بين تعداد عام (١٤١٣- ١٤٢٥هـ) من خلال التراجع الواضح في مهن

---

(١) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاء العامة والمعلومات، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن في منطقة عسير عام ١٤١٣هـ، ١٣٨.

(٢) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مرجع سابق، ١٣٨.

العاملون بمهن الخدمات، والعاملون بالزراعة وتربية الحيوانات يتضح أن هناك تراجع كبير في المهن المذكورة عن العدد الإجمالي في عام (١٤٢٥هـ)، ويتضح من خلال المقارنة ارتفاع كبير في المهن التالية في العدد الإجمالي في عام (١٤٢٥هـ).

أتى ترتيب المهن الاكثر انضمام لها المجتمع لعام (١٤٢٥هـ) مهن الفنيون في المواضيع العلمية والفنية والانسانية (٦٣٤٦٠) بنسبة (٢٥,٩٢٪)، ثم العاملون بالمهن الكتابية(٣٩٤٦٢) بنسبة (١٦,١٢٪)، ثم مهن الاختصاصيون في المواضيع العلمية والفنية والانسانية (٢٩٢٣٠) بنسبة (١١,٩٤٪)، ثم العاملون بمهن الخدمات (٢٨٤٦٥) بنسبة (١١,٦٣٪)، ثم المديرون والإداريون ومديرو الأعمال (٢١٢٥٤) بنسبة (٨,٦٨٪)، ثم العاملون بالزراعة وتربية الحيوانات (١٨٨٠١) بنسبة (٧,٦٨٪)، ثم المهن الهندسية الأساسية المساعدة (١٨٥٦١) بنسبة (٧,٥٨٪)، ثم العاملون بمهن البيع (١٤٧٩٨) بنسبة (٦,٠٤٪)، ثم مهن العمليات الصناعية والكيميائية والصناعات الغذائية (١٠٨٢٤) بنسبة (٤,٤٢٪) وقد تم ترتيب المهن لعام (١٤٢٥هـ) حسب الأعلى في الأعلى. ويرى الباحث إن الفترة من عام (١٤٠٢-١٤٢٦هـ) قد تطورت وتنوعت فئات المجتمع (المهنية) في فترة الدراسة عن السابق وقد تغيرت كثير من المهن السابقة التي كانت قبل فترة الدراسة في منطقة عسير، وأخذت بعض المهن في التقلص وشهدت المهن الحديثة إقبالًا كبيرًا من سكان منطقة عسير وذلك نظرًا للتطورات الكبيرة التي حدثت للمجتمع في منطقة عسير ومناطق المملكة العربية السعودية وتطور الحياة الحديثة في شتى المجالات وبتزايد واضح وذلك بالتزامن مع البرامج الإنمائية الطموحة في المنطقة وتنوعت المهن الرئيسية ويتبعها مهن فرعية كما كانت كذلك في انحاء مناطق المملكة العربية السعودية.

المبحث الثاني

العادات- التقاليد- القوانين العرفية- الألبسة والزينة

اتصفت منطقة شبه الجزيرة العربية بكونها موقعًا زاخرًا بمواد التراث بكل تفاصيله، وكان لمساحتها الجغرافية الكبيرة، وللاختلاف البيئي فيها الأثر الأكبر في تنوع أساليب الحياة وأنماط المعيشة بين مجتمعاتها من جانب، وبين عناصر المجتمع الواحد من جانب آخر، وأقصد بالمجتمع الواحد ذلك الذي ينتمي لكيان سياسي موحد ولدولة واحدة، فمجتمعات الريف والمدينة والبادية مجتمعات مختلفة في تركيبتها إلا أنها تمثل مجتمعا واحدا في الإطار السياسي. إلى جانب ذلك فقد اتصفت مجتمعات شبه الجزيرة العربية بشيء من الخصوصية التراثية، فهناك مجتمع الساحل، ومجتمع الريف، ومجتمع الصحراء، ومجتمع الجبال.

وإن للمجتمع السعودي خصوصيته التي تنتمي للمنظومة التراثية في شبه الجزيرة العربية أيضًا، والتي توارثها جيلا بعد جيل ومازال معظمها يمارس إلى هذه الوقت[(١)].

«وفي الغالب تمارس العادات والتقاليد على الفرد ضغوطًا نفسية محسوسة أو غير محسوسة، فعلى سبيل المثال قيام شخص بلبس غترة زرقاء في المجتمع السعوي يثير استهجان كثير من الناس، حيث انه لا يوجد عقاب قانوني لمثل هذه العادات والتقاليد، إلا أن استنكار المجتمع للمخالف يمثل ضغطًا نفسيًا يمنع الفرد من مخالفة العادات والتقاليد المتفق عليها في المجتمع»[(٢)].

١ - **العادات**: تلعب العادات والتقاليد في أي مجتمع من المجتمعات في تسيير الحياة الاجتماعية، وتشكل لب السنن الاجتماعية، وتمثل نماذج الأفعال والسلوك البشري في

---

(١) سبأ: مرجع سابق، ٣١.

(٢) آل حامد، عبد الرحمن بن عبدالله بن عائض: العادات والتقاليد والأعراف في إقليم عسير، الرياض- مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٦هـ ٣٠٣.

هذه المجتمعات. وحيث أن بعض مظاهر تلك العادات قد بدأ بالتلاشي مؤخرًا خاصة في المدن الكبرى، إذ لم يعد الأهالي يحرصون على ممارسة تلك العادات بحذافيرها، ولعل ذلك يعود إلى اتساع المدن والقرى وامتدادها، أو لفتور العلاقات الاجتماعية بين السكان، بسبب ظروف المعيشة وانشغال الجميع بمطالب الحياة العصرية وشح الوقت، فضلا عن تأثير وسائل الاتصال الحديثة كالهاتف والقنوات الفضائي وشبكة الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي التي أسهمت في ملء أوقات الفراغ لدى الكثير من الناس وساعدت على تواصلهم دون الحاجة إلى الانتقال من مكان إلى آخر(١).كما تعرف بأنها أساليب الجماعة العرفية والمعيارية والاعتيادية،حيث تعد العادات الاجتماعية قوة مجتمعية لها أهميتها البالغة، ذلك العملية التي تؤدي إلى تكوين العادات الاجتماعية تنحصر في التكرار الدائم لبعض الأفعال الصغيرة التي تصدر عن عدد كبير جدًا من أفراد المجتمع في مواقف معينة بالذات(٢).

ويلاحظ أن العادات هي مجموعة من السلوكيات التي ارتضاها المجتمع وتوارثها جيلا بعد جيل وترتبط بتحقيق غاياته وأهدافه ولها صفة التلقائية وغير الرسمية وأن سكان منطقة عسير قبل فترة الدراسة كانوا متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم ويدل على ذلك الزيارات المتكررة للأقارب واستقبال الضيوف والحجيج والمسافرين واكرامهم لهم والحفاوة بهم، ولأن الحياة الاجتماعية بين السكان تقوم على الأخلاق الإسلامية الحميدة، والعادات العربية الكريمة التي أقرها الإسلام كما أن العادات القديمة الموروثة منذ القدم بدأت في التقلص في فترة الدراسة نتيجة لاتصال سكان المنطقة بما جاورهم أو أتى إليهم واختلط أهلها بالزائرين لهم، وانتشار التعليم بينهم مما أوجد في هذه المنطقة عدد كبير من المثقفين الذين ساهم فكرهم في تطور في هذه العادات والتقاليد بما يتماشى مع روح العصر الذي يعيشون فيه وتطور تعليم وحضارة وثقافة

---

(١) العنزي، صالح حماد: الحياة الاجتماعية في منطقة الجوف، ٨٨.

(٢) PAUL B.HORTTOM-chester Hunt "Sociology" 2nd. Ed. Me Grawhill Book co- 1968.

سكان المنطقة فلم يعد التمسك بتلك العادات من الضروري فعلى سبيل المثال قلت الزيارات للأقارب بسبب وجود وسائل الاتصال المتعددة وقلت حفاوة استقبال الضيوف والمسافرين عن السابق وغيرها من العادات التي تقلصت في فترة الدراسة. نستعرض بعض العادات الموجودة في منطقة الدراسة ما يلي:

- **إكرام الضيف:** وهي من العادات التي كانت ولا زالت سائدة في منطقة الدراسة،وأن اختلفت طريقة الكرم(١).

- **عادات عقد القران:** وتتميز مسألة عقد القران في منطقة عسير بأنها تتم وفق المنهج الإسلامي كما هو الحال بالنسبة لكل مسلمي الأرض(٢).

- **استقبال الحجيج:** درجت العادة في المجتمع السعودي بشكل عام، أن يكون هناك استقبال خاص للحجيج حال عودتهم إلى ديارهم(٣).

- **عادة التعاون:** وهي من العادات التي نشاء عليها المجتمع العسيري. ومن مظاهرها: التعاون في مجال الزراعة، والتعاون في مجال الزواج والتعاون في مجالات أخرى(٤).

- **الفرقة أو الوضيع أو صندوق الجماعة:** من أنواع التكافل. وهو جمع مبلغ من المال لصالح الجماعة، سواء بشكل مسبق أو عند قيام الحاجة إليه، مثل دفع دية أحد الأشخاص، أو تعويض من أصيب بأضرار، وقد تطور في الوقت الحالي فأصبح صندوق تكافلي للجماعة، له نظام يحكم كيفية جمع المال وأوجه صرفه(٥).

---

(١) آل شبيلي، محمد بن محمود: الشارق في تاريخ وجغرافية بلاد، الرياض - مكتبة الملك فهد الوطنية ٢٠٠١م، ١٦٨.

(٢) الخريجي،عبدالله: علم الاجتماع العائلي القاهرة- دار الثقافة للنشر ١٩٨١ م، ٣٣٩.

(٣) العنزي، مطر بن عايد: رفحا، وكالة شئون الشباب، ٢٠٠م، ١٩٥.

(٤) آل شبيلي: مرجع سابق، ١٦٦-١٦٧.

(٥) آل حامد: مرجع سابق، ٤٥٥-٥٤١.

-**الرفدة:** وهي من العادات الشائعة في منطقة عسير، وهي من العادات التي تعبر عن التكافل الاجتماعي، ومساعدة المحتاج، وُتعد الرفدة عادة سائدة بين الناس هناك[١].

- **التعلل:** وهي الجلسات الليلية وهي من العادات المألوفة في مجتمع منطقة عسير والمجتمع السعودي بشكل عام[٢].ويلاحظ ان هذه العادة قائمة إلى هذا الوقت في مجتمع الدراسة إلا أنها قد أخذت بعدًا آخر، حيث يتناول السمار في أحاديثهم أخبار الساعة وشئون حياتهم العملية والعائلية وممارسة بعض الالعاب الرياضية والسباحة، وتكون تلك الجلسات عادة في عطل نهاية الأسبوع أو في الإجازات العامة وتكون في الاستراحات والشاليهات والمزارع.

- **المزاورة:** وهي عادة اختص بها النساء، فالمرأة عندما تريد أن تزور صديقة لها أو قريبة تحرص على أن تأخذ معها «مغلفة» مصنوعة من سعف النخيل والخوص لحمل الأشياء فيها، وهي تشبه الشنطة حاليًا،وتضع فيها القليل من الأرز أو البر أو الحبوب، ولكن هذه العادة قد تكون اندثرت نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية في منطقة عسير[٣].

- **البشارة:** عبارة عن هدية مالية أو عينية تقدم إلى من ينقل خبرا سعيدًا إلى صاحب الشأن. ويختلف مقدارها بحسب أهمية الخبر وناقله[٤].

- **الاجتماع الدوري للأقارب:** يقوم كبير كل أسرة بجمع أقاربه وأنسابه في كل سنة، فيكرمهم ويحل ما بينهم من الخلافات ويتشاورون في شئونهم العامة[٥].

- **القطة:** «وهي المساعدات المالية، حيث يدفع الموسرون من الأهالي المال

---

(١) السنيدي، عبد العزيز راشد: الربيعية، الرياض- مطابع جامعة الملك سعود ١٤١٤هـ، ٢٠٤.

(٢) السنيدي: مرجع سابق، ٢٠٦.

(٣) آل شبيلي: مرجع سابق، ١٧٠.

(٤) آل حامد: مرجع سابق، ٤٥٥-٥٤١.

(٥) آل حامد: مرجع سابق، ٤٥٥-٥٤١.

للمحتاج للتخفيف عنه في حال حدوث ضائقة مالية له، جراء دين أو دية أو تكاليف زواج وخلافه، ويطلق عليها اسم العانية وهي من دلالات الترابط والتكافل الاجتماعي في المجتمع»[١].

- **الفزعة:** وهي من العادات التي كانت معروفة لدى القبائل بمنطقة عسير وقبائل المملكة العربية السعودية بشكل عام، وتعد إغاثة لمن حل به مصاب، كأن يكون قد تعرض لغزو من قبل البعض، أو دهمه السيل، أو تعرض لأي نوع من الضرر[٢].

٢- التقاليد: «عبارة عن اصطلاحات اجتماعية تتصف بصفة الإلزام والجبر،وهي تتصل أحيانًا بالمقومات الأساسية للجماعة وأحيانا أخرى تتصل بالأحوال العادية والروتينية في الحياة الاجتماعية»[٣] ويمكن القول أن التقاليد ما هي إلا أنماط متفق عليها من ردود أفعال الجماعة البشرية باتباع أو مخالفة ما ترتضيه الجماعة البشرية لارتباطها بقيم معينة تستدعى اللجوء أحيانا إلى القوة أو إلى القهر والسلطة غير الرسمية، وتشترك التقاليد مع العادات في أن كليهما يمتاز بالتلقائية، وأنها تنشأ كنتيجة حتمية لتكوين الجماعات الإنسانية وظهور المجتمعات البشرية، كما أنها غير مكتوبة، وبالرغم من ذلك فهي منقوشة في قلوب وعقول أبناء المجتمع يتوارثها جيلا بعد جيل،كما أنهما يتميزان بدرجة من الجمود النسبي والتغيير البطيء لأنهما يرتبطان بضروريات اجتماعية ويحققان مطالب اجتماعية، كما أن لها درجة عالية من العمومية.

٣- القوانين العرفية:

العرف: هو الشيء البارز في المخلوق، وقد يكون من أسباب زينته، كعرف الديك أو عرف الفرس وما شابه ذلك، ويرى البعض أن العرف سلوك جماعي، وهو يتعمق

---

(١) العنزي، مطر: مرجع سابق، ٢٠٠.

(٢) سبأ: مرجع سابق، ٧٨.

(٣) الخريجي: الضبط الاجتماعي، ٢٣٥.

في ضمير المجتمع، ويتمثل في تحريم بعض الأعمال أو الأمر بها[١].

«وترتبط القوانين العرفية بعادات وتقاليد الإنسان، ويتم توارث هذه العادات جيلا بعد جيل، ومن خلال هذه العادات تحدد هويات المجتمعات»[٢].وعملت العقوبات العرفية في مجتمع عسير إلى ردع المعتدي نتيجة للاعتداء على الأخرين، وما ينجم عن ذلك من صراع بين أفراد القبيلة او القبائل الأخرى بحكم المجاورة، فقد كان الأمر مستفحلا قبل تأسيس المملكة إلا انه خلال فترة الدراسة من عام ١٤٠٢ هجرية إلى ١٤٢٦ هجرية فُرض النظام على جميع مناطق المملكة ومنها منطقة عسير وتعاون المشايخ والأعيان مع مؤسسات الدولة كالشرطة والأمارة والمحكمة من أجل محاربة الفتن وردع المعتدين ومعاقبتهم من خلال القنوات الشرعية للدولة وتعلم وثقافة سكان المنطقة حد من تطور القوانين والاعراف القبلية التي لا يمكن يحصل مع وجودها تطور وازدهار لحياة الإنسان[٣].

٤- الألبسة والزينة: تعتبر الألبسة والزينة من العناصر والسمات التي يمكن من خلالها التعرف على ثقافة وحضارات الشعوب، كما تعد من فروع التراث المادي الذي يظهر نوع من نمط الحياة السائدة في مجتمع أو منطقة ما خلال فترة من الزمن، لأنها بما تحوية من زينة وزخارف نابعة من صميم البيئة الطبيعية، ونتيجة لما مرت به المنطقة قبل توحيد المملكة من وضع اقتصادي أثر على معيشة السكان، وانعكس هذا على ملابسهم التقليدية والتي تكونت من الصوف والجلود المدبوغة التي كانت تؤخذ من أغنامهم[٤].

---

(١) جريس: العادات والتقاليد في عسير ١٩٩٣، ٤٨٦.

(٢) آل سحيم، سعيد سعد: محافظة سراة عبيدة «تاريخ وحضارة تقاليد وعادات»، الرياض – مكتبة الملك فهد ١٤٢٥هـ، ٢٩٩.

(٣) جريس: العادات والتقاليد، مرجع سابق في عسير، ٤٩٢.

(٤) الشهري، ليلى بنت عبد الرحمن: الملابس والمنتجات التقليدية وزخارفها في منطقة عسير – دراسة ميدانية–، رسالة ماجستير غير منشورة، الرياض: كلية التربية للاقتصاد المنزلي والتربية الفنية بالرياض، ٢٠٠٦، ٨١.

١- ملابس الرجال: كان الرجال يلبسون الثياب المصنوعة من قماش «الدوت»[(١)] وهو ابيض اللون طوله يصل إلى ما تحت الركبة لضمان سهولة العمل في الزراعة أو في المناطق الجبلية الصخرية، وكان يضع الرجل على كتفه اللحاف المصنوع من الصوف الخفيف ويربط وسطه بالحزام وبه الجنبية ويمشى بنعال من الجلد المدبوغ، وقد يضيف البعض أنواعًا أخرى حسب الحاجة، مثلًا للحماية من البرد[(٢)].

٢- ملابس النساء: كانت الأسر الغنية تمتلك العديد من الألبسة التي تكفي لحاجة أفرادها، بينما الأسر المتوسطة والفقيرة كانت تكتفي بالملابس القليلة والبسيطة التي تستر العورة، وكانت ملابس النساء تخاط لدى «الصانع» وهو رجل امتهن مهنة الخياطة، حيث كانت هذه المهنة خاصة بالرجال،لأن النساء كانت مشغولات بالزراعة والرعي والاهتمام بالمنزل والأطفال[(٣)]. وكان الثوب الأسود المشغول هو العلامة المميزة لزي النساء في منطقة عسير، ولم تكن المرأة تملك أكثر من ثوبين أن لم يكن ثوبا واحدا «ويستثني من ذلك الأسر الميسورة في أبها بالتحديد»، وكانت المرأة التي تكسى بثوب في الصيف وأخر في الشتاء تعد محظوظة، وأما الملابس الداخلية فلم تعرف قديما ولكن في الماضي القريب صنعت السراويل التي طرزت أيضا على أطرافها بنفس طريقة تطريز الثوب، وفي فترة الدراسة (١٤٠٢- ١٤٢٦هـ) في الثلاثة العقود الاولى من القرن الخامس عشر الهجري فاض الخير على الناس بسبب ما أنعم الله سبحانه وتعالى على أهل البلاد من الخيرات الكثيرة، ففتحت الأسواق والمحلات المتخصصة في ملابس النساء واتسعت الأسواق وكثرة

---

(١) هو نوع قماش القطن المستورد من الشام واليمن، وتبلغ قيمة اللفة منه أحد عشر ريال في ذلك الوقت ويسمى محليًا مبرما.

(٢) عبد الرحمن، نورة بنت محمد بن سعود، وأخرون: بلاد عسير «أبها» المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية، ١٢٨.

(٣) الشهري: الملابس والمنتجات التقليدية وزخارفها في منطقة عسير، ٨١.

معروضاتها في اللباس والزينة بأنواعها وموديلاتها[١].

٣- **ملابس الأطفال:** يقلد الأطفال أهلهم في زيهم كل حسب منطقته، فالولد يلبس الثوب الأبيض ويضع الجنبية في الحزام، وقد يغطي بالعمامة رأسه أو الطفشة، ولم يكن ينتعل في رجليه شيء في الغالب، وأما الفتاة فتلبس الثوب غير المشغول والمنديل البرتقالي أو الأحمر على الرأس وتغطيه بالطفشة عند الحاجة[٢]. يلاحظ مما سبق ان المجتمع قبل فترة الدراسة كان يرتدون ملابس متواضعة وساترة في الشكل، وكانت أدوات الزينة في الماضي محصورة على الحناء لبعض كبار السن من الرجال والنساء، ولبس السلاح للرجال، والحلي والكحل والريحان للنساء، ولقد بدأ التغير في الزي تدريجيا، واصبح زي الرجال واحدا في بعض أنحاء المملكة وهو عبارة عن الثوب الأبيض او الملون والغترة البيضاء أو الحمراء «الشماغ» والعقال والملابس الداخلية والعباءة الرجالية والنعال. وفي فترة الدراسة (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) وفي العقدين الأولى من القرن (١٥هـ - ٢١م) شهدت الملابس وأدوات الزينة في منطقة عسير تغيرا كبيرا وكان التغير في زي النساء أكثر وضوحًا، وحصل تغير في الملابس خاصة الملابس التي يرتدونها الشباب والنساء، ونشاهد ألبسة غير ساترة للجسد عند الشباب، وأما مجتمعات النساء وبخاصة في الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية فيرتدون ملابس غير ساترة وحسب الموضات المعروضة بالأسواق والدخيلة على المجتمع سواء عن طريق القنوات الفضائية أو الاحتكاك مع النساء القادمات من خارج المنطقة وكذلك لبس انواع من البناطيل والجينز وتعددت أنواع الزينة للرجال والنساء، ولازال اللباس السعودي المعروف يرتدى في المناسبات والحفلات واماكن العبادات والادارات الحكومية. وفي السنوات الأخيرة من فترة الدراسة شهد إقبالا متزايدًا من الشباب والفتيات على ارتداء ملابس الموضة العصرية

---

(١) عبد الرحمن وأخرون: بلاد عسير «أبها»، مرجع سابق، ١٣٢.

(٢) عبد الرحمن وأخرون: بلاد عسير «أبها»، مرجع سابق، ١٣٢.

التي غزت الاسواق بمنطقة عسير. وتعددت أنواع الملابس وأشكالها وأدوات الزينة في منطقة عسير أسوة ببقية مناطق المملكة، وبسبب الانصهار الثقافي والاجتماعي أصبحت عادات اللباس وأشكال الملابس وأدوات الزينة وتصميماتها متقاربة إلى حد كبير في جميع أرجاء المملكة. فقد أغرقت الأسواق بمختلف أنواع الأقمشة من جميع أنحاء العالم، وتدفقت الملابس الجاهزة بكميات كبيرة، وفي ظل الإقبال المتزايد من الشباب على الأزياء العصرية، يجد الثوب السعودي التقليدي نفسه أمام مفترق طرق للبقاء او الاندثار، بينما يمضي الجيل الحالي لكل ما هو جديد في عالم الموضة للجنسين، حيث إن الأزياء التقليدية في البلاد تعرضت للاندثار في اكثر مدن وقرى منطقة عسير، بسبب التطور السريع الذي طرأ على المجتمع ومجاراة الموضة وتطبيق العالم الخارجي وانفتاح المجتمع بسبب التطور الذي حصل في عدة مجالات، ولازال يوجد عدد قليل من المناطق لازالت تحتفظ بتراثها وتراث أباءها واجدادها التقليدي وهي مناطق تهامة والمناطق الجبلية كونها نائية، فسكانها يحافظون على تراثهم لفترة أطول، ويحتفظون بملابسهم الشعبية.

المبحث الثالث

الاحتفالات والألعاب الرياضية المجتمع بمنطقة عسير

في الفترة (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/١٩٨٢ - ٢٠٠٥م)

تميزت منطقة عسير كغيرها من المناطق بوجود أنواع عديدة من الاحتفالات منها الأعياد والزواجات والألعاب الرياضية المحلية المختلفة، والتي منها ما يعتمد على الألعاب الجماعية ومنها ما يعتمد على الألعاب الفردية، وتعد الاحتفالات وما يرتبط بها من طقوس وممارسات من أكثر الأنماط الاجتماعية التي تعرضت للتغير في منطقة عسير، فقد اختفى بعضها ولم يعد يمارس مثل عملية الختان الجماعي بطريقة «السلخ» وذلك نتيجة لارتفاع مستوى الوعي بين أبناء المنطقة، واختلاطهم بغيرهم من أبناء

المناطق الأخرى نتيجة الهجرة الداخلية للسكان في مختلف المناطق وكذلك حفلات الزواج واحتفالات العيدين وغيرها، وتعد احتفالات الزواج أكثر الأنماط التي تعرضت لمثل هذا النوع من التغير، فقد أصبحت حفلات الزواج ذات طابع غير تقليدي، فلم تعد تمارس الفنون الشعبية في كثير منها، كما أنها أصبحت أكثر كلفة،ومثلها في ذلك عددًا من الاحتفالات الأخرى، التي اصبح كثير منها مظهرًا من مظاهر التفاخر الاجتماعي في البذخ والإنفاق(١).

من أنواع تلك الاحتفالات على سبيل المثال:

١- الأعياد: تمثل الأعياد بمنطقة عسير مناسبة وفرصة للتقارب والتزاور ولاجتماع شمل العائلة، كما تمثل مجالا للتعبير عن الفرحة من خلال ما يقدم من خلالها من فنون شعبية وولائم إضافة إلى أنها مناسبة تمثل الشيء الكثير بالنسبة للأطفال الذين يعايشون فترة الأعياد بإحساس وشعور مختلف، قد لا يتكرر طيلة العام إلا مرتين فقط(٢).

ويعد عيد الأضحى المبارك وعيد الفطر العيدين الرئيسين بالنسبة للمجتمع بمنطقة عسير، وليس من أعياد أخرى لهم، توافقا مع ما جاءت به تعاليم الإسلام(٣).

ويلاحظ أن العيد في منطقة عسير هو تواصل وفرح وإحياء للتراث فيتميز العيد في منطقة عسير بطابعه الخاص والمميز الذي يستمده من التراث والعادات والتقاليد بالمنطقة ففي أيام العيد يمتزج تراث المنطقة بفرحة العيد الكبيرة لتتجلى فيها الابتسامة على شفاه الناس والألفة بين القلوب وروح السماحة والإخاء في أجمل صورها، وتتميز قرى منطقة عسير عن مدنها بتجلي مظاهر العيد فيها بشكل أكبر وأن كانت الفرحة لا

---

(١) موسوعة المملكة العربية السعودية، منطقة عسير، الرياض - مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٨، ٣٥٤.

(٢) سبأ، مرجع سابق، ٤٣.

(٣) الغامدي، سعيد فالح: التراث الشعبي في القرية والمدينة، جدة - دار العلم ١٩٨٥، ٢٦٧.

تغيب عن مدنها.وكان للعيد قديما فرحة كبيرة جدا حيث يتم الإعلان عنه بعد رؤية الهلال ويقوم الناس بالاحتفال به بالرمي بالبنادق وفي صباح عيد الفطر اعتاد الناس على إخراج زكاة الفطر قبيل الصلاة وبعد أداء الصلاة لا يخرجون من المصلى حتى يصافح كل منهم الآخر ويتم بها إنهاء الخلافات وتسود روح التآلف والمحبة بعد ذلك يخرج الجميع إلى جميع منازل القرية منزلا تلو منزل وتبدأ بعدها تقديم الوجبات بالتناوب بين الأسر والتي اعتاد أهالي المنطقة الجنوبية خلال الأعياد. وكذلك من يقوم بنحر الاضاحي في عيد الاضحى يقوم الأب وأهل بيته بذبح أضحيته وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام ما كان صدقة و هدية و لأسرته وحيث أن الفرحة بالعيد لم تتغير، والجميع يفرح لمقدمه ولكن العادات والتقاليد المتمثلة بالاحتفال تغيرت واختفى الكثير منها مثل الرمي عند رؤية هلال يوم العيد وذبح الاضاحي بالمنازل وتبادل الزيارات وصلة الرحم بين الأهل والجيران والأصدقاء والاستعدادات المبكرة للأعياد تغيرت تبعًا لمجريات العصر ليحل محل هذه العادات الاتصال الهاتفي أو تبادل التهاني عبر الأنترنت ورسائل الجوال. مما ينذر بانقراض العادات الاجتماعية المتمثلة في إظهار حرارة المشاعر بفرحة العيد وإطلالته ورغم ذلك يبقى للعيد دائمًا حنين واشتياق يأخذنا إلى ذكريات الماضي.

٢- **الزواج:** للزواج أهمية بالغة في المجتمع السعودي، فهو يعد تكملة للدين، وصيانة للشرف، ودلالة على وصول الشاب إلى سن الرجولة. وكان من أهداف الزواج في الماضي إضافة أيد عاملة تساعد في دعم النشاط الاقتصادي للأسرة، بالإضافة إلى ما يشكله الإنجاب من هيبة ومكانة للأسرة، علاوة على القوة الاقتصادية لها[١]وتعد مسألة الزواج عند سكان منطقة عسير من الركائز الأساسية في نظامهم الاجتماعي، وتعد أهميته لعدد من العوامل الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والزواج بشكل عام في إقليم عسير يتم بين الأقارب حرصًا على عدم نقلية

---

(١) الغامدي، سعيد فالح: مرجع سابق، ١٩٩.

ملك الأراضي الزراعية إلى عائلات أخرى عن طريق الإرث، وأن كان لا ينفي وجود حالات زواج من الفخذ أو من القبيلة نفسها أو القبائل المجاورة، ولذا كانت القبائل تحدد المهور فيما بينها، بحيث تكون المهور قليلة إذا كان المتزوج من نفس القبيلة، في حين تتاح الحرية لولي أمر الفتاة أن يطلب مهرًا كبيرًا إذا كان الخاطب من خارج القبيلة[1]. والواضح أنها قد انحسرت تلك العادة في فترة الدراسة (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) نتيجة لتطور المفاهيم العامة حول أمر الزواج، وتطور المجتمع وتعلمه وثقافته إضافة إلى أن الفتاة لم تعد تتزوج في سن مبكرة كما كان الأمر في السابق، نظرا لاهتمام أهلها بمسألة تعليمها وإعدادها للحياة بشكل أفضل وقد تأثرت العادات والتقاليد في منطقة عسير بعوامل تطور كثيرة. منها التطور في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ووسائل الاتصال والهجرة أثر ذلك في تغير كثير من العادات والتقاليد القديمة، فأما الزواج فلم يحدث تغيير جذري بالنسبة لتقاليده في فترة الدراسة، نظرًا لأن ظاهرة الزواج لم يكن فيها أمور تتعارض مع الدين، ولكن نظرًا لتغير الظروف الاقتصادية بدأ الغلو في المهر وتكاليف الزواج في التزايد كما زادت الحالة الاقتصادية في النمو، وزادت تكاليف الزواج على العريس منها أنواع الهدايا الثمينة التي يقدمها الزوج للعروس وأقاربها والحفلات وقصر الافراح وما يتبعها من هدر في المال من الذبائح والبوفيهات المفتوحة لقسم النساء وإحضار القنوات الشعبية والشعار والمطربين والمطربات للنساء ويتبعها الفنادق الضخمة والسفر خارج المملكة مما يتبعه من نفقات زائدة.

٣- الختان: الختان أو الطهارة أو التطهير من المناسبات المهمة في منطقة عسير، وذلك لأنه في عدد من أجزاء المنطقة كان يؤخر ختان الصبيان حتى يبلغوا سنًا معينًا تختلف من جزء إلى أخر، ففي بعض المناطق كان يتم ختان الصبي من سن عشرة إلى خمسة عشرة عاما، وفي نواحي أخرى لا يتم ختانهم إلا بعد بلوغهم، وقد تصل بعض

---

(١) آل حامد: مرجع سابق ٤١٣.

أعمارهم إلى العشرين سنة[١]. وطريقة الختان وما يتبعه من احتفال، ظاهرة اجتماعية. فقديمًا كان الختان يأخذ صورة قاسية لا تطاق، وهي قيام المطهر أو المختن بسلخ أكبر جزء من الرغلة، وهذه العادة سيئة للغاية لما فيها من العذاب وشدة الألم. والويل والعار لمن لا يتحمل ذلك، ومن باب التشجيع يمسك الطهير بخنجرين أحدهما في اليد اليمنى والآخر في اليد اليسرى لكي يتحمل ويظهر أنه شجاع أمام الحاضرين ومنهم أمه وقريباته من النساء، فإذا ما حدث غير ذلك أو بكى من شدة الألم فإن ذلك يعد عارًا عليه وعلى أسرته وأخواله، حيث يصفونه بأنه ضعيف، وغالبا ما يرفض الفتيات الزواج من الفتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال وكانت هذه العادة تقوم على أسس فالأولاد المراد ختنهم تقام لهم الحفلات والرقصات الشعبية وتقام الولائم، وتتجمع فيه القبيلة وربما بعض القبائل المجاورة لمشاهدة الختان ويكون الشباب المراد ختنهم في مكان بارز يشاهده جميع الناس، أما بالنسبة لختان الفتيات، فقد كان موجودا في السابق إلا أنه لم يكن يأخذ المظاهر المعتادة في حالة ختان الذكور، وغالبا ما كان يتم الأمر داخليا في وسط الأسرة عند بلوغ الفتاة أسبوعا فقط[٢].

ويلاحظ أن من أبرز العادات والتقاليد التي ميزت بمنطقة عسير قديما هي الختان، وتتم في سن كبير، في الخامسة عشر أكثر أو أقل، الختان كان عادة سيئة ومحرجة للشاب، ومكلفة اقتصاديا على الأهل والأقرباء، فتكاليف الختان أكثر من الزواج، ويتحملون الديون في سبيل ذلك، وكانت تصاحب عملية الختان الكثير من الطقوس الاحتفالية، التي قد تستمر لمدة ثلاثة أيام. وينتهي احتفال الختان، وتبدأ مرحلة العلاج التي قد تستغرق مدة طويلة، وأنه منذ العقد الاخير من القرن (١٤هـ - ٢٠م) وفي فترة الدراسة أصبح المجتمع بمنطقة عسير أكثر فهمًا ووعيًا، فتكاد تكون العادات

---

(١) موسوعة المملكة العربية السعودية، منطقة عسير، الرياض- مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٨هـ ٣٥٢.

(٢) الثقفي، يوسف علي: بلاد ثقيف، الرياض - وكالة شئون الشباب ١٩٩٢، ٦٦.

الغير متفقة مع الشرع اختفت تمامًا، ومنعت عادة السلخ التي درجت علي استعمالها القبائل في منطقة عسير، وتقلصت الاحتفالات التي كانت تصاحب عملية الختان حتى اختفت تمامًا، وذلك مع تطور ثقافة المجتمع وتعلمه والتطور الذي حصل في المجال الصحي ومنع الدولة لهذه العادة فقد اختفت اختفاء تام في منطقة الدراسة وسار يختن الطفل في سن مبكر من عمره وعن طريق المراكز الصحية والمستشفيات الحكومية والاهلية بأشراف اطباء متخصصين في الجراحة واندثرت الحفلات التي كانت تقام بهذه المناسبة.

٤- **المأتم:** تختلف العادات الخاصة بشأن الموت والدفن في المجتمع السعودي كغيرها من العادات، فلكل منطقة لها أسلوبها الخاص في التعامل مع تلك الحالة، وأن اتفقت الطقوس فيما يخص الجانب الديني المتعلق بالغسل وصلاة الجنازة وكيفية الدفن وهو أمر شرعي تتفق عليه المجتمعات الإسلامية كافة ولم تتغير العادات الاجتماعية الخاصة بالوفاة، ولكن التغير يظهر في اختفاء الوليمة التي كان يقيمها أهل الميت، وعرف أهل المنطقة أن هذه بدعة ليست من الدين في شيء، ومن ثم اندثرت هذه العادة في منطقة الدراسة[١].

٥- **الألعاب الرياضية:** تعددت الألعاب الشعبية في منطقة عسير بأنواعها وأشكالها ومنها: - الألعاب الشعبية- الألعاب الرياضية - الرقصات والأهازيج الشعبية - سباق الأبل «الهجن» - سباق الخيل «الفروسية»[٢].

٦- **الأطعمة والأشربة:** ومن الأكلات الشعبية التي تميزت بها المنطقة على سبيل المثال: العريكة وتصنع من خبز الذرة،العصيدة وتصنع من دقيق الذرة الخضراء،

---

(١) البشري، إسماعيل بن محمد: ملامح من تطور الحياة الاجتماعية في عسير، مجلة الدرعية، السنة الأولى، العددان الثالث والرابع، رجب- شوال ١٤١٩هـ/ نوفمبر ١٩٩٨م- يناير ١٩٩٩م، ٢١٦.

(٢) جريس: القول المكتوب في تاريخ الجنوب « أبها وعسير»،٥: ٣٤٨.

المرضوفة والحسوة وتصنع من البر، المربوث وهو خبز مصنوع من خليط العدس والبر[١]، المبثوث، المرمودة، الرغافين تصنع من البر، المعرق يصنع من مرقة البصل والطماطم مع قطع اللحم، الحميص هي عذق الذرة تشوى على الجمر وتؤكل[٢].

٧- المشروبات: القهوة، الشاي، الزنجبيل، اللبن والحليب، العصائر[٣].

المبحث الرابع
المرأة ودورها في الحياة الاجتماعية بمنطقة عسير

«تعود أهمية دور المرأة في الحياة الاجتماعية بمنطقة عسير في أنها تمثل نصف المجتمع،وزيادة نسبة السيدات داخل نطاق ومجال العمل دليل على صحة المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا، ودليل على أن المجتمع يستغل قواه البشرية بشكل متكامل»[٤].

وقد تضمن الأهداف العامة لخطط التنمية بالمملكة العربية السعودية التركيز على العنصر النسائي للمشاركة في عملية التنمية بتوسيع مجال العمل ومشاركتها الاجتماعية، كما اعتمد تعليم البنات في خطط التنمية الثانية (١٣٩٥ - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٥ - ١٩٧٩م) على التعليم العام ابتدائي ومتوسط وثانوي ومعاهد معلمات ومحو أمية وتعليم فني، إضافة تخصصات جديدة تتعلق بالمهن المناسبة للمراءة[٥].وقد

---

(١) الشهري، صالح علي: كتاب تنومة بني شهر، مطابع جامعة الملك سعود.١٤١٥، ٧٢.

(٢) العيسى، عباس محمد زيد: موسوعة التراث الشعبي في المملكة العربية السعودية، المأكل والمشرب، الرياض- وكالة الآثار والمتاحف ١٩٩٨،٥: ١٩.

(٣) عبد الرحمن وأخرون: بلاد عسير «أبها»،١٧٠.

(٤) أبو الجدايل، عائشة: عمل المرأة في المملكة العربية السعودية، أبحاث مؤتمر دور المرأة السياسي والحضاري عبر العصور، مركز البحوث من ٢-٣ مايو ٢٠٠١، ٢٩٢.

(٥) وزارة الاقتصاد والتخطيط، خطة التنمية الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٤٠٠هـ، المملكة العربية السعودية، ٣٤-٤٢٣.

اقتصر دور المرأة في منطقة عسير قبل توحيد البلاد على تربية الأولاد والمحافظة على بيتها وجلب الأخشاب لاستعمالها في الوقود، وكذلك تصنيع الألبان والجبن، ومساعدة الرجل في الزراعة والحصاد، بالإضافة إلى قيامها بالرعي وبتصنيع بيوت الشعر أو الخيام، كذلك كانت تقوم ببعض الصناعات اليدوية لاستخدامها للبيت وللأسرة، ومع التطور الذي حدث في منطقة عسير في فترة الدراسة (١٤٠٢-١٤٢٦هـ/ ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) فقد برز عمل المرأة بمنطقة عسير في التدريس الذي أتى في المقدمة يليه العمل في القطاع الصحي وهما القطاعان ذو النصيب الأكبر في عمل المرأة ثم قطاع الشؤون الاجتماعية ثم الاقتصاد ثم الأعمال الخاصة، ونتيجة مساهمة المرأة في الميدان العملي أثبت كفاءتها في المهن التي قامت بها أو وكلت إليها[١].

---

(١) البشري: ملامح من تطور الحياة الاجتماعية في عسير، ١٢٢.

المراجع

١- أبو الجدايل، عائشة، عمل المرأة في المملكة العربية السعودية، أبحاث مؤتمر دور المرأة السياسي والحضاري عبر العصور، مركز البحوث من ٢-٣ مايو ٢٠٠١م.
٢- أبو ملحمة، عبد الله بن سعيد، عسير التاريخ والحضارة والسياحة، مقال بمجلة الجنوب - عسير السياحة، صدر عن اللجنة السياحية بالغرفة التجارية الصناعية بأبها، ١٩٩٩م.
٣- البشري، إسماعيل بن محمد، ملامح من تطور الحياة الاجتماعية في عسير، مجلة الدرعية، السنة الأولى، العددان الثالث والرابع، رجب- شوال ١٤١٩هـ/ نوفمبر ١٩٩٨م- يناير ١٩٩٩م.
٤- التقرير الاقتصادي، منطقة عسير، الرياض: الهيئة العامة للاستثمار SAGIC، ٢٠٠٧م.
٥- الثقفي، يوسف علي،بلاد ثقيف، الرياض: وكالة شئون الشباب، ١٩٩٢م.
٦- الجبالي،عبدالله سليمان، نشاطات المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض ١٩٩٨م.
٧- جريدة البلاد - عدد يوم الاثنين ٢٣/ ٢/ ١٣٩١هـ.
٨- جريس، غيثان بن علي، بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، أبها: مطابع مازن، ١٤١٣هـ.
٩- جريس، غيثان بن علي، العادات والتقاليد في عسير من خلال الوثائق، الرياض: مجلة العرب،ج ٧، ٨، س٢٨، محرم/ صفر ١٤١٤هـ- تموز/ (يوليو- أغسطس) ١٩٩٣م، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.
١٠- جريس، غيثان بن علي، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، «الباحة وعسير»، ج٥، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠١٣م.
١١- آل حامد، عبد الرحمن بن عبدالله بن عائض، العادات والتقاليد والأعراف في إقليم عسير، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٦هـ.
١٢- الخريجي، عبد الله، الضبط الاجتماعي، جدة: رامصان للنشر، ط٢، ١٩٨٢م.
١٣ - الخريجي،عبدالله، علم الاجتماع العائلي القاهرة: دار الثقافة للنشر، ١٩٨١م.
١٤- الزهراني، عبد الله،موسوعة المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٨م.
١٥- سبأ، صالح محمد عبد الصمد،تطور العادات والتقاليد والفنون الشعبية في المجتمع السعودي المعاصر في الفترة ما بين (١٩٥٠- ٢٠٠٥م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م.

١٦- آل سحيم، سعيد سعد، محافظة سراة عبيدة «تاريخ وحضارة تقاليد وعادات»، الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٥هـ.
١٧- السرياني، محمد محمود، ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية خلال الفترة من ١٩٠٢- ١٩٨٨م، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٦٣، الكويت ١٩٩٠م.
١٨- السنيدي، عبد العزيز راشد، الربيعية، الرياض، مطابع جامعة الملك سعود،١٤١٤هـ.
١٩ - آل شبيلي، محمود بن محمد، الشارق في تاريخ وجغرافية بلاد بارق، الرياض: مكتبة الملك فهد، ٢٠٠١م.
٢٠- الششري، محمد ناصر، الدعوة في عهد الملك عبد العزيز ، الجزء الأول،الرياض ١٤١٧هـ.
٢١- الشهري، صالح بن علي أبو عواد، سلسلة هذه بلادنا (٤٦) تنومة بني شهر، الرئاسة العامة لرعاية الشباب،١٩٩٤م.
٢٢- الشهري، ليلى بنت عبد الرحمن، الملابس والمنتجات التقليدية وزخارفها في منطقة عسير - دراسة ميدانية -، رسالة ماجستير غير منشورة، الرياض: كلية التربية للاقتصاد المنزلي والتربية الفنية بالرياض.
٢٣- عبد الرحمن، نورة بنت محمد بن سعود، العنقري، الجوهرة محمد بن عبد الرحمن، المجروش، مديحة محمد، بلاد عسير «أبها» المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية.(د.ت).
٢٤- العثيمين، عبدالله الصالح ، معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد، الرياض، ط(٢).
٢٥- العنزي، مطر بن عايد، رفحا، وكالة شئون الشباب، الطبعة الأولى،٢٠٠١م.
٢٦- العنزي، صالح حماد،الحياة الاجتماعية في منطقة الجوف خلال القرن العشرين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن ٢٠٠٢م.
٢٧- العيسى، عباس محمد زيد، موسوعة التراث الشعبي في المملكة العربية السعودية، المأكل والمشرب، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ج ٥، ١٩٩٨م.
٢٨- الغامدي، سعيد فالح التراث الشعبي في القرية والمدينة، دار العلم، جدة ١٩٨٥م.
٢٩-قاضي، إبراهيم وآخرون: تخطيط المدن في المملكة العربية السعودية، الرياض،شركة الطباعة المحدودة، ١٩٨١م.
٣٠- القحطاني، محمد مفرح وآخرون: السياحة، الأسس والمفاهيم، دراسة تطبيقية على منطقة عسير، دار العلم للطباعة، جدة ١٤١٧هـ.
٣١-المانع،محمد،توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله العثيمين، الطبعة الأولى الدمام ١٩٨٢م.

٣٢- آل مريح، صالح محمد: بن جابر، نجران، الرياض، الإدارة العامة للنشاطات الثقافية، ١٩٩٢م.

٣٣- المصدر الوطني للوثائق والمحفوظات. دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية. بيانات غير منشورة.

٣٤- موسوعة المملكة العربية السعودية، منطقة عسير، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٨هـ.

٣٥- النعيمي، هاشم بن سعيد، تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٩م.

٣٦- وزارة الاقتصاد والتخطيط، خطة التنمية الثانية، ١٣٩٥/ ١٤٠٠هـ المملكة العربية السعودية.

٣٧- وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاء العامة والمعلومات، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن في منطقة عسير عام ١٤١٣هـ.

المراجع الأجنبية

- Paul B.Horttom-chester Hunt "Sociology" 2nd. Ed. Me Grawhill Book co- 1968.

- PHILBY، HARRY St. JHON، The Arabian highlands، Washington,1952.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ٦٣ـ٩٦

نشأة جامعة كمبريدج فى العصور الوسطى

طارق شمس الدين زاكر أبو المجد*

ملخص

يتناول هذا البحث نشأة جامعة كمبريدج في العصور الوسطى، حيث تأسست الجامعة في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وتحديدًا عام ١٢٠٩م بعد أحداث الشغب التي حدثت في نفس العام في جامعة أكسفورد وانتقل الطلاب على أثرها إلى الجامعة الجديدة. مرت جامعة كمبريدج بثلاث مراحل أثناء نشأتها حتى تبلورت وأخذت مكانها اللائق بين جامعات العصر الوسيط، جاءت المرحلة الأولى في القرن الثالث عشر وهى مرحلة النشأة والتأسيس، وشهدت هذه المرحلة وضع اللبنات الأولى في بناء الجامعة ماديًا وبشريًا؛ أي بناء أماكن التعليم والدراسة، وبناء هيكلها التدريسي والإداري. أما المرحلة الثانية فهى مرحلة تطور الجامعة في القرن الرابع عشر، وشهدت تأسيس كليات الجامعة التي بلغ عددها اثنى عشر كلية وقاعة بنهاية القرن الخامس عشر، ووجود هيكل إداري وتنظيمي قوي للجامعة، مع وجود التشريعات والقوانين التي كانت بمثابة الإطار الحاكم لهذه المؤسسة. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهى مرحلة النضج والتي بلغتها الجامعة في القرن الخامس عشر، ففيها حصلت الجامعة على استقلالها الكنسي والأسقفي، كما شاركت بفاعلية في أحداث المجتمع المختلفة.

---

* معيد بقسم التاريخ – كلية التربية – جامعة عين شمس.

Abstract

This study traces the rise of Cambridge University in the Middle Ages. The study tackles the founding of the university, which was founded in the early thirteenth century AD, specifically in 1209, after the riots, which have occurred in the same year at the University of Oxford – an event that has forced the students to move on to the new university. Cambridge University has undergone three main stages until it has taken its proper place among the universities of the Middle Ages. Occurring in the thirteenth century, the first stage of foundation and establishment has witnessed the placement of the first building blocks regarding the material construction of the university and the staffing, i.e. the construction of the university's educational facilities and its educational and administrative structures. Taking place in the fourteenth century, the second stage of evolution has witnessed the establishment of the twelve faculties of the university and a hall at the end of the fifteenth century, as well as the establishment of a firm administrative and organizational structure supported by regulations and laws that serve as a governing framework for this institution. The third and last stage focuses on the status of accomplishment attained by the university in the fifteenth century. At that time, the university has obtained its independence from the Church and has actively participated in various social events.

*

* *

ارتبطت نشأة جامعة كمبريدج بمجموعة من الأساطير أو القصص الخرافية التى دارت حولها، لإثبات أقدميتها على جامعة أكسفورد، والتغلب على أسطورة تأسيس الملك ألفريد لها. وتعددت الكتابات حول موضوع أقدمية كل من جامعتى أكسفورد وكمبريدج من قبل مُريدى الجامعتين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وفى كثير من الأحيان أُحتكم إلى التاريخ المبكر لكمبريدج فى نزاعات أكسفورد وكمبريدج، لذا بعض الإشارات لهذه الأساطير يبدو ضروريًا[١].

يعود أصل كمبريدج إلى الأمير الأسبانى كانتابر Cantaber، الذى نُفى من وطنه الأصلى، وكان فى ضيافة الملك جورجانت Gurguntius ملك بريطانيا (٣٧٤-٣٦٩ ق.م) الذى قدم له يد ابنته جونيلينا Guenolena ومعها القسم الشرقى من بريطانيا. وقد بنى كانتابر مدينة كبيرة على نهر كانتى Cante وسماها كانتابرجيا Cantabrigia، حيث أقام هناك وحافظ على عهدته الخاصة، وأحضر مجموعة من علماء الفلك والفلاسفة من أثينا، فى المدينة التى هو نفسه تعلم فيها[٢]. وبمراعاة زمن تواجد كانتابر توجد بعض الاختلافات؛ فحدد البعض تاريخ ٤٣٢١ .A.M[*]، وآخرين عام ٤٣٤٨ .A.M، وغيرهم

---

(١) نظير حسان سعداوى: تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والحديثة، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٨م، ١٢١؛

COOPER, C.H., *Annals of Cambridge*, vol.I, Cambridge University Press, Cambridge, 1852, p.1; GRAY, A., *Cambridge and Its Story*, London, 1902, p.10.

وعن أسطورة تأسيس الملك ألفريد لجامعة أكسفورد انظر:

DENIFLE, H., *Die Universitäten Des Mittelalters Bis 1400*, Berlin, 1885, pp.237-41.

(٢) DYER, G., *History of the University and Colleges of Cambridge*, vol.I, London, 1814, p.40; COMPAYRE, G., *Abelard and the Origin and Early History of Universities*, London, 1893, p.56; Cooper, p.1

انظر أيضًا: https://nl.wikipedia.org/wiki/Gurguit_Barbtruc

(*) .A.M: اختصار للكلمة اللاتينية Anno Mundi ويقصد بها يوم العالم، وهو عصر التقويم الذى يبدأ من خلق العالم حسب الكتاب المقدس.

عام A.M. ٣٥٨٨[١]. وتشير هذه التواريخ إلى القرن الرابع قبل الميلاد وتحديدًا عام ٣٧٥ ق.م؛ بينما يشير المؤرخ هولينشيد Holinshed أن كمبريدج بنيت لأول مرة بواسطة Gorbonianus الذى كان ملك بريطانيا من ٣٣٦ إلى ٣٢٠ ق.م[٢].

ولا داعى لسرد جميع الأحداث التى يقال أنها حدثت فى هذه الجامعة أو مدينة العلماء (كما يُطلق عليها) عقب تأسيس كانتابر، حيث أكد فلاسفة الإغريق البارزين أمثال أناكسيمندر Anaximander وأناكسجوراس Anaxagoras أنهما كانا معلمين هناك، ويقال أن الملك كاسيبلان Cassibelan منح امتيازات للعلماء، ونزح العديد منهم إلى روما بواسطة يوليوس قيصر. وتستهل قائمة رؤساء هذه الجامعة بأمفيبليوس الشهيد Amphibalus فى عام ٢٨٩م. ويذكر أن حوالى عام ٣٠٣م، قامت مجموعة من البريطانيين بذبح جميع الطلاب المسيحيين فى الجامعة بقسوة ووحشية، ووقع دمار وخراب تام بعد ذلك بقرن تقريبًا بواسطة بيلاجيوس Pelagius الذى لقى معارضة شديدة بسبب هرطقاته عندما كان طالبًا هنا من قبل علماء اللاهوت[٣].

وفى حين يتجاهل بعض المؤرخين الأساطير السابقة تمامًا، فإنهم ينسبون أصل الجامعة إلى الملك ثجبرت Sigebert أو ثجبركت Sigberct (٦٥٦-٦٣٣م) ملك إيست أنجليا، التى تأسست على يديه عام ٦٣٧م. وكيف وجدت الجامعة رعاية ملكية من قبله، وكان منها أول أساتذة اللاهوت علماء السكسون العظماء بيده وألكوين. وتعتمد الفئة المؤيدة بفرضية تأسيس ثجبرت لجامعة كمبريدج اعتمادًا كليًا على إدعاء بيده الموقر، بأن هذا الملك فى الفترة المشار إليها، أسس مدرسة فى مملكته

---

(١) حدد الراهب نيكولاس كانتيوب Nicolas Cantaupe تاريخ A.M. ٤٣٢١، والراهب جون لادجيت John Lydgate سنة A.M. ٤٣٤٨، ودكتور كيوس Dr.Caius سنة A.M. ٣٥٨٨. انظر: COOPER, p.2

(٢) COOPER, p.2; DYER, p.39.

https://www.alternatehistory.com/forum/threads/fake-king-list-for-british-monarch-claiming-arthurian-descent.261169/

(٣) COOPER, p.2.

لتعليم الصبيه. ومع ذلك لا يوجد شئ على الإطلاق يبين أن هذه المدرسة أسست فى كمبريدج. وعلى الرغم من أن الجامعة تحتفل بذكرى الملك ثجبرت كمؤسسها حتى الآن، فإن حقه فى التميز يبدو أقوى من مثال كانتابر(١).

دُعِّم إدعاء عودة الجامعة لمؤسس ملكى وأصول سحقية بالمواثيق الملكية والبراءات البابوية، غير أن جميعها مزيفة على ما يبدو. وأول هذه المواثيق، مؤرخ فى لندن بتاريخ السابع من إبريل عام ٥٣١م، وفيه أعفى الملك آرثر Arthur علماء كمبريدج من الضرائب العامة وعبء بعض الأعمال، لكى يواصل الأساتذة والعلماء دراسة الأدب دون عائق. كما صدر مرسوم من قبل الملك Lucius الذى اعتنق المسيحية من خلال وعظ وتبشير أساتذة كمبريدج(٢). أما الميثاق الثانى فهو مؤرخ فى كمبريدج سنة ٦٨١م، وفيه منح الملك كادولد Cadwald لألمريكيوس Almericus، عميد مدارس كمبريدج، السلطة لمعاقبة جميع الجرائم، ماعدا الخيانة العظمى، جنبًا إلى جنب مع كل الامتيازات التى مُنحت من قبل أسلافه أسليبيدورس Asclepiodorus، قسطنطين Constantine، أوتربيندراجون Uterpendragon، آرثر، ومن قبل والده كادول Ceadwal. وجاء الميثاق الثالث الذى منح فى جرينشستر Grantchester سنة ٩١٥م، لرئيس جامعة كمبريدج فريثانوس Frithstanus، وفيه أكد الملك إدوارد الكبير Edward the Elder، على جميع الامتيازات التى مُنحت لأساتذة وطلاب كمبريدج من قبل أسلافه(٣).

كما حظرت البراءات البابوية المنسوبة إلى هونوريوس الأول Honorius I، وسرجيوس الأول Sergius I والمؤرختين فى عامى ٦٢٤م و٦٨٩م، على التوالى، على جميع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشمامسة وموظفى الكنيسة الآخرين من

---

(١) COOPER, p.2; Dyer, p.46-56; Stubbs, C.W., Cambridge and Its Story, London, 1903, p.4.

(٢) COOPER, p.3; KNOWLES, D., The Evolution of Medieval Thought, 2nd Edition, London, 1988, p.152; Denfile, p.367.

(٣) COOPER, p.3; Denifle, p.367.

التدخل فى شئون الجامعة، وخاصة فى الإيقاف عن العمل أو حرمان كنسى من قبل رئيس الجامعة أو العمداء. وقد كان لمرسوم البابا هونريوس الأول صدى كبير لأنه أكد فيه أنه كان طالبًا فى كمبريدج، وفيه منح الجامعة إعفاءً من السلطة الأسقفية(١). وفى عام ١٤٣٠م، أُعلن أن أصول هذه البراءات المزعومة فقدت منذ ما يزيد عن سبعين عامًا، ولكن نسخ منها وردت كدليل فى التحقيق القضائى الذى حدث بعد ذلك بالنسبة للقضاء الكنسى للجامعة، واعترف مندوب البابا بصحة شرعيتهم وأكد حكمه فى روما. وقد نُسبت البراءة البابوية للجامعة للبابا يوحنا العاشر (٩٢٨-٩١٤م)، ولكنها فى حقيقة الأمر مُنحت من قبل البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣٣٤-١٣١٦م) فى عام ١٣١٨م(٢).

ترجع لعام ١١١٠م القصة الوحيدة لأصل جامعة كمبريدج الجديرة بالتصديق والأقرب للواقع، وتحمل قليل من المصداقية، والتى جاءت فى إضافات بيتر بلوا Petrus Blasensis (*)، رئيس دير كرولاند Croyland، لتاريخ إنجلوفس History of Ingulphus متحدثًا عن جوفريد Joffrid رئيس هذا الدير، ويخبرنا دى بلوا بأن:(٣)

«كما أرسل إلى مزرعته فى كوتنهام Cotenham بالقرب من كمبريدج، السير جيسلبرت Gislebert تلميذه الراهب وأستاذ اللاهوت مع ثلاث رهبان آخرين الذين

---

(١) GRAY, p.10; COOPER, p.3.

(٢) COOPER, p.3.

(*) بيتر بلوا: رجل دولة ولاهوتى ولد فى بلوا بفرنسا عام ١١٣٠م، درس القانون فى بولونيا واللاهوت فى باريس، ذهب إلى صقلية فى عام ١١٦٧م وأصبح معلم الملك هناك، وراعى الختم الملكى، وأحد المستشارين الرئيسيين للملكة، ولكن اضطر لمغادرة صقلية عام ١١٦٩م بسبب غيرة النبلاء. بعد عدة سنوات ذهب إلى انجلترا وأصبح من دبلوماسى الملك هنرى الثانى ومستشار رئيس أساقفة كانتربرى. كتب العديد من المؤلفات وأكمل تاريخ دير كرولاند من ٩٠١م إلى ١١٣٥م وتوفى حوالى عام ١٢٠٣م. انظر:

http://www.newadvent.org/cathen/11765a.htm

(٣) HUMPHRY, G.M., "Cambridge: Its University and Its Colleges", BMJ, vol.2, No.187 (Jul.30, 1864), p.122; MALDEN, H., On the Origin of Universities and Academical degrees, London, 1835, p.92; COOPER, p.22-3.

رافقوه من أورليانز Orleans إلى إنجلترا، وتلقوا تعليمًا جيدًا فى القضايا والنظريات الفلسفية وبعض العلوم البسيطة الأخرى، وحضروا يوميًا إلى كمبريدج، فى ساحة عامة مؤجرة فى الغالب، ودرَّس علومه علنًا، وفى فترة زمنية قصيرة جمع عدد كبير من الطلاب. ولكن فى السنة الثانية من مجيئهم، ازداد عدد الطلاب إلى حد كبير من جميع أنحاء الدولة والمدينة أيضًا، فلم يكن حتى أكبر منزل أو ساحة أو كنيسة كافيًا لإستقبالهم...»[١].

إن تاريخ وطريقة بدء جامعة كمبريدج غير محددة على وجه الدقة، هل كانت موجودة قبل الغزو النورمانى، أم ذاع صيتها فى عهد هنرى الأول Henry I (١١٠٠–١١٣٥م)؟ ولكن من المؤكد وفقًا لآراء السيد كوبر Mr. Cooper، أنه لا يوجد ذكر فى كتاب الإحصاء الملكي لأى جامعة أو مجتمع أكاديمى، ولا يوجد أى شئ يحث على الاعتقاد بوجود هذه المؤسسة فى تلك الفترة[٢]. ورغم اختلاف آراء العلماء والمؤرخين حول هذه القصص والأساطير التى عُدت دربًا من الخيال، وحول البداية الحقيقية لجامعة كمبريدج، إلا أن الإجماع جاء ليؤكد أن عام ١٢٠٩م هو البداية الحقيقية والمؤكدة لنشأة هذه الجامعة.

ظهر النشاط التعليمى لأول مرة فى جامعة كمبريدج عام ١٢٠٩م بإعتبارها المكان الذى لجأ إليه عدد كبير من طلاب أكسفورد بعد واحدة من المعارك الدامية وأحداث الشغب التى وقعت هناك بين أهالى المدينة والطلاب[٣]. وفى محاولة لإضعاف قوة الجامعة وفى تجاهل تام لإحترام جامعة أكسفورد أمر الملك جون بإعدام اثنين من

---

(١) Ingulph's Chronicle of the Abbey of Croyland: with the Continuations by Peter of Blois and Anonymous Writers, trans. from the Latin with notes by Henry T. Riley, London, 1908, p.237.

(٢) HUMPHRY, p.122.

(٣) LEADER, D.R., A History of the University of Cambridge, vol.I: The University to 1546, Cambridge University Press, Cambridge, 1994, p.17; VAUGHN, E.V., The origin and early development of the English universities to the close of the thirteenth century; A study in institutional history, University of Missouri, 1908, p.41; LEACH, A.F., The Schools of Medieval England, London, 1915, p.157; BATESON, M., Mediaeval England 1066-1350, London, 1903, p.237; Denifle, p.368; Malden, p.93.

الطلاب. وعلى أثر هذه الحادثة تشتت طلاب أكسفورد وعمت الفوضى[١]. حيث فر الطلاب هاربين نجاة بأرواحهم، وتناثر بسرعة كل من الأساتذة والطلاب: فذهب البعض إلى الجامعة الأم باريس، وآخرين إلى كمبريدج، والبعض إلى ريدنج Reading، وميدستون Maidstone[٢].

ويخبرنا روجر وندوفر فى هذا الشأن فيقول:

«فى عام ١٢٠٩م كان هناك طالب يدرس الفنون السبعة الحرة فى أكسفورد، وقتل عن طريق الخطأ امرأة من المدينة، وعندما وجد أنها فارقت الحياة أثر سلامة نفسه ولاذ بالفرار. لكن عمدة المدينة وبعض الأهالى، وجدوا المرأة ميتة، وبدأوا بالبحث عن القاتل فى مسكنه، الذى استأجره مع ثلاثة آخرين من زملائه، لكنهم لم يجدوا القاتل، وألقوا القبض على زملائه الثلاثة، الذين لم يكونوا على دراية بعملية القتل، وزجوا بهم فى السجن. وبعد بضعة أيام قاموا، بأمر من الملك، وفى انتهاك لحقوق الكنيسة، بأخذ الطلاب خارج المدينة وشنقهم. وعلى هذا ثلاثة آلاف، أساتذة وطلاب، غادروا أكسفورد، بحيث لم يبق واحد من الجامعة بأكملها؛ بعض منهم ذهب إلى كمبريدج، وآخرون إلى ريدنج لمتابعة دراستهم، وتركوا مدينة أكسفورد فارغة»[٣].

يُعد طابع ونظام مدارس كمبريدج قبل هذه الفترة أمر غامض. كما أن التكهن بأن

---

(١) MATTHEW of WESTMINSTER, The Flowers of History: Especially such as relate to the Affairs of Britain The beginning of the world to the year 1307, vol.II, trans. from the original by C.D.Young, London, 1853, p.110; HUBER, V.A., The English Universities, vol.I, trans. from German and ed. by Francis W.Newman, London, 1843, p.88; PATTON, C.P., "The Origins and Diffusion of the European Universities", Yearbook of the Association of Pacific Coast Geographers, vol.31, 1969, p.12; LEADER, p.17.

(٢) LAURIE, S.S., The Rise and Early Constitution of Universities, With a Survey of Medieval Education, New York, 1887, p.241; RASHDALL, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, vol.II, part.II, The Clarendon Press, Oxford, 1895, p.349; VAUGHN, p.68; DENIFLE, p.242; PARRY, A.W., Education in England in the Middle Ages, London, 1920, p.140.

(٣) ROGER of WENDOVER, Flowers of History, vol.II, trans. from the Latin by J.A.Giles, London, 1849, p.249-50.

أصل جامعة كمبريدج يرجع إلى دير بارنويل Barnwell، غير واضح، لأن بارنويل تبعد ميلًا عن موقع الجامعة، ولم يسمع أى شئ عن وجود مدارس سواء فى بارنويل أو فى مكان آخر فى كمبريدج قبل الهجرة التاريخية عام ١٢٠٩م. وهو نفس الأمر من جعل جامعة أكسفورد التطور الطبيعى لمدارس سانت فرايدزوايد St.Frideswyde. ولا يوجد أدنى شك بوجود مدرسة فى دير بارنويل، وكانت هناك بالتأكيد مدارس القواعد Grammar Schools التى كانت موجودة فى القرن الثانى عشر فى كل مدينة كبيرة مثل كمبريدج؛ ولكن البحث فى أن هذه المدارس كانت «نواة» للجامعة فيما بعد سوف يكون مضللًا(١).

وإذا كانت جامعة كمبريدج تدين فى نشأتها تمامًا إلى هذا الإنشقاق من جامعة أكسفورد، فإن هذا الأمر موضع شك، ولكن هناك إتجاه من الباحثين للإجماع عليه(٢). ومن ثم يمكن القول أن جامعة كمبريدج نشأت من أكسفورد، مثلما نشأت أكسفورد من باريس(٣). لقد تحكمت البيئة الخارجية فى ظروف نشأة كل جامعة إلى حد كبير منذ ولادتها. حيث كانت أكسفورد ممرًا للملوك والجيوش، وطريقًا إلى لندن؛ بينما كانت كمبريدج بعيدة عن حركة البلاط الملكى والجيوش، إلى جانب أنها كانت ريفية(٤).

ورغم إجماع المؤرخين على عدم معرفة أى مدارس فى كمبريدج قبل عام ١٢٠٩م، إلا أننى اختلف معهم فى هذا الأمر، ففى القرن العاشر قام أثيلولد بتأسيس مدرسة

---

(١) RASHDALL, vol.II, part.II, p.545-6.

هناك رأى يرى أن جامعة كمبريدج نشأت فى نفس القرن الذى نشأت فيه جامعة أكسفورد، ففى عام ١١١٢م عبر رهبان سانت جيلس St.Giles نهر كام وأقاموا فى الدير الجديد فى بارنويل، وحظى عملهم فى التعليم أهمية كبرى إضافة لعملهم الرهبانى. عن ذلك انظر:

https://library.eb.co.uk/levels/adult/article/education/105951.

(٢) LEACH, A.F., Educational Charters and Documents 598 to 1909, Cambridge University Press, Cambridge, 1911, p.XXV.

(٣) PATTON, p.14.

(٤) GRAY, p.10.

ونشستر، وكان الطلاب يدرسون كتابًا له أشار فى مقدمته أنه حصل على موافقة الملك إدجر (٩٤٣-٩٧٥م) على هذا الكتاب، ونظرًا لأنه كان مكتوبًا باللاتينية فقد أمره الملك بترجمته إلى الإنجليزية ولاسيما أن هذا الكتاب كان يُدرَّس فى مدارس أخرى فى إيلى بكمبريدج وأبنجدون[١]. كما حدث التعليم الإبتدائى فى كمبريدج ابتداءً من القرن الثانى عشر فصاعدًا، وبشكل رئيسى لأطفال سكان المدينة، ومن المرجح أن يكون قد وصل إلى عدد أكبر من السكان الذين ألتحقوا بمستوى تعليمى أعلى فى قواعد اللغة اللاتينية. وكان موقعها فى المنازل الخاصة والكنائس يعنى أن مثل هذه الأماكن لم تكن تُعرف باسم «المدارس»، وبالتالى من غير المحتمل أن تظهر على هذا النحو فى الوثائق، ولم تكن السلطات الكنسية أو البلدية معنية عادةً بتنظيم التعليم الأولى، لأنه كان منتشر على نطاق واسع، من الصعب مراقبته، وأدر القليل من المال[٢]. وبالتالى فهذا دليل قاطع على وجود مدارس فى كمبريدج قبل الجامعة، قد تكون ليست بنفس الشهرة التى حازت عليها مدن أخرى مثل أكسفورد، ولكن هذا لا يعنى عدم وجودها. على أية حال، استمرت هذا الجامعة الناشئة فى تدعيم أركانها وتوطيد جذورها فى المجتمع الإنجليزى بعد هذا الإنقسام من جامعة أكسفورد والذى صاحبه قيام الجامعة.

فى عام ١٢٢٩م، وعلى غرار تشتت طلاب جامعة أكسفورد، اندلعت فى باريس أحداث شغب بين الطلاب والمواطنين. حيث قامت مجموعة من الطلاب المخمورين ببعض أعمال العنف للمواطنين، وتعرض أعضاء الجامعة الذين لم تثبت إدانتهم لهجوم عنيف وسوء معاملة من قبل شرطة المدينة. لذا علق أساتذة الجامعة فصولهم

---

(١) سناء مندور طرفاية: جامعة أكسفورد فى انجلترا فى العصور الوسطى (١٢٠٠-١٣٥٠م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م، ٢٩-٣٠.

(٢) ORME, N., "The Medieval Schools of Cambridge, 1200-1550", PCAS, vol.104, 2015, p.125-6.

وللمزيد من التفاصيل عن المدارس النحوية فى كمبريدج وأستاذ القواعد انظر: Ibid., pp.126-34

وقدموا شكوى إلى أسقف باريس وطالبوا بالتعويضات. ولكن الطلب رفض، وتشتت الأساتذة والطلاب(١). ونتيجة للأوضاع المضطربة فى جامعة باريس، وجد الملك هنرى الثالث الفرصة سانحة لإذلال الملكية الفرنسية، حيث وجه خطابًا دعى فيه الطلاب بأن يأتوا إلى إنجلترا ويسكنوا فى أى المدن والأحياء التى يختارونها ومنحهم امتيازات كثيرة(٢). وقد استفادت أعداد كبيرة من دعوة الملك لتستقر حيثما تشاء فى هذا البلد، وهاجرت إلى شواطئ إنجلترا، ولاسيما كمبريدج، ربما بسبب قربها من الساحل الشرقى، ويبدو أنها جذبت غالبية كبيرة من الطلاب(٣). ويُعد هذا الحدث خطوة مميزة فى تطور جامعة كمبريدج، لأن الملك هنرى الثالث قدم الملاذ إلى طلاب وأساتذة جامعة باريس المشتتين، وبعد هجرة طلاب جامعة باريس فى عام ١٢٢٩م، أصبح أى اعتراف ملكى أو أى تنظيم أكاديمى بارز واضحًا فى هذه المدينة(٤).

وبحلول عام ١٢٣١م، تطورت جامعة كمبريدج وازدهرت كجامعة وأصبح لها رئيسها الخاص من تلقاء نفسها. وفى نفس العام أصدر الملك هنرى الثالث أوامره لحاكم مقاطعة كمبريدج بأن يلقى القبض على الطلاب المخالفين، والذين لم يخضعوا لتأديب رئيس الجامعة والأساتذة، ووضعهم فى السجن أو طردهم من المدينة. وفى

---

(١) MULLINGER, J.B., The University of Cambridge, vol.I: From the earliest times to the Royal Injunctions of 1535, Cambridge University Press, Cambridge, 1873, p.106; STUBBS, p.59; LAURIE, p.242; DENIFLE, p.246-7.

لتفاصيل الصراع وأحداثه بين مدينة وجامعة أكسفورد وأسباب التشتت انظر: HUBER, pp.90-3

(٢) زينب عبد المجيد: «جامعة أكسفورد فى العصور الوسطى»، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج٣، ٢٠٠٣م، ص٤٥؛ سهى إبراهيم منصور: جامعة أكسفورد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م، ٥٦؛ Mullinger, p.107

(٣) KIBRE, P., Scholarly Privileges in the Middle Ages, Cambridge: Massachusetts, 1962, p.270; Stubbs, p.59; VAUGHN, p.70.

(٤) RASHDALL, vol.II, part.II, p.546-7; MULLINGER, p.123.

نفس الوقت أمر حاكم المقاطعة والنواب Bailiffs بأن يُؤجرّوا منازلهم للطلاب بإيجارات مناسبة وأن تُقدَّر بواسطة اثنين من الأساتذة واثنين من المواطنين. والفرق الوحيد الذى يمكن ملاحظته بين أكسفورد وكمبريدج، أن فى أكسفورد ينفذ الشريف الأوامر الصادرة له من رئيس الجامعة، بينما فى كمبريدج كان على رئيس الجامعة أن يبلغ أسقف إيلى، الذى بدروه يعطى الأمر إلى حاكم المقاطعة(١).

وكان الهدف من وراء هذا الخطاب الملكى هو تحسين تنظيم الجامعة، بسبب العدد الكبير للطلاب، سواء من داخل المملكة أو «من وراء البحار» بعد الهجرة الكبيرة التى جاءت إليها. وربما يُعد هذا أولى الوثائق للتنظيم التأديبى لمجموعة متعددة ومتمردة تمثل المجتمع الطلابى فى ذلك العصر(٢). ورغم أن فى ذلك العام، لجأت أعداد كبيرة من الطلاب إلى كمبريدج من أجل الدراسة، إلا أن هذا يدعو للتفكير عن موطن الطلاب الأوائل. يبدو أن معظمهم جاء من المقاطعات الشرقية، وخاصة إيست أنجليا، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، لأنها المنطقة الأكثر إزدحامًا بالسكان فى إنجلترا، كما أن سكانها أثرياء ومغامرين(٣).

فى إبريل من عام ١٢٤٠م، حدثت أعمال شغب فى أكسفورد، حيث نشب خلاف شديد بين طلاب جامعة أكسفورد ومواطنى المدينة، وبناءً عليه ترك العديد من الطلاب المدينة وذهبوا إلى كمبريدج، حيث حصلوا على منحة من بعض الحريات ضد سلطات البلدية، وحصلوا على امتياز ملكى بهذا الأمر(٤). وفى الصوم الكبير عام ١٢٤٩م، فى حالة مشابهة، حدث تراجع من كمبريدج إلى أكسفورد. ونشبت معارك عنيفة بين الطلاب وأهالى المدينة، وقُتل وأصيب العديد من الأشخاص، كما دُمرت

---

(١) LEACH, Educational Charters, p.XXV-XXVI; Parry, p.141.

(٢) STUBBS, p.60; MULLINGER, p.123.

(٣) GRAY, p.19-20.

(٤) MATTHEW PARIS, English History from the Year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles, vol.I, London, 1852, p.260.

وخُربت العديد من المنازل. ونتيجة لهذه الإضطرابات ذهب عدد كبير من الطلاب إلى أكسفورد. وقد شكلت لجنة للإستماع والبت فى الشكاوى بين الطلاب والمواطنين بعد ذلك بأمر من الملك[١]. فيقول لنا متى الباريسى Matthew Paris عن هذا الأمر: «أثناء الصوم الكبير، وبسبب بسيط، اندلع شجار بين مواطنى وطلاب كمبريدج، وحدث سلب وتدمير للمنازل، ووقع جرحى وقتلى. وقد وصلت صرخات الشكاوى الثقيلة لآذان الملك، وانتشرت الفضيحة فى كل الأنحاء، وسببت الخسائر التى تكبدها كلا الجانبين معاناة مؤسفة. لقد كان الشجار المثار دمويًا بين الطلاب والعامة»[٢].

وبعد عشرة سنوات، وتحديدًا فى عام ١٢٥٩م، نشبت نزاعات عنيفة بين أهالى المدينة والطلاب فى كمبريدج، بعد أن حرر الطلاب واحد منهم من السجن، والذى كان مسجونًا بتهمة القتل، ولجأ الطلاب إلى الكنيسة طلبًا للحماية[٣]. وقد شهد هذا العام أعمال شغب فى كل من كمبريدج وأكسفورد وباريس[٤]. وفى عام ١٢٦١م، حدث شجار بين طلاب الجامعة، بدأ بشجار عام بين الطلاب، ثم انضم إليه أهالى المدينة، فعمت الفوضى الكبرى ونهبت منازل كلا الطرفين، وحرقت سجلات ومحفوظات الجامعة. وحين وصلت أخبار هذا الشغب للملك، أمر بتشكيل لجنة لمحاكمة المذنبين. ولكن الأحكام جاءت كلها فى صالح الطلاب والجامعة[٥].

---

(١) COOPER, p.45; VAUGHN, p.111; Gray, p.17; Kibre, p.274-5.

(٢) MATTHEW PARIS, English History from the Year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles, vol.II, London, 1853, p.304.

(٣) COOPER, p.47-8; Vaughn, p.112.

(٤) اندلع شجار شديد الخطورة فى كمبريدج نتيجة لإدانة طالب بتهمة القتل، حيث أُطلق سراحه بالقوة بواسطة زملائه الذين ساعدوه على الهرب من السجن، وحملوه إلى الكنيسة طلبًا للحماية. كما شهدت جامعتى أكسفورد وباريس أيضًا اضطراب كبير فى ذلك الوقت. انظر:
MATTHEW PARIS, English History from the Year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles, vol.III, London, 1854, p.326.

(٥) HUBER, pp.413-9; Cooper, p.48; MULLINGER, p.135; VAUGHN, p.112-3.

وعلى هذا المنوال، استمرت جامعة كمبريدج – فى فترتها الأولى – ما بين الدراسة وأعمال الشغب من الطلاب والمواطنين، حتى استطاعت بعد ذلك من فرض سيطرتها وتنظيم شئونها وسن القوانين التى من شأنها المساعدة فى ذلك، كما استطاعت بعد ذلك رويدًا رويدًا إكتساب بعض الامتيازات من قبل السلطة الحاكمة (الملوك)، ومن السلطة الكنسية (البابوية) أيضًا.

أثر الدعم الملكى فى نشأة الجامعة

فى الواقع، تدين جامعتى كمبريدج وأكسفورد كثيرًا لإزدهارهما إلى الملوك الإنجليز المتعاقبين الذين أظهروا اهتمامًا بالغًا فى العديد من النواحى الضرورية، حيث قاموا بحمايتهم من أعدائهم، وطالبوا الهيئات الدينية المختلفة فى البلاد بالإبقاء على عدد معين من الطلاب بها، ومنعوا محاولات تأسيس جامعات فى أى مكان آخر، كما

= شهد عام ١٢٦١م عراكًا دمويًا فى شوارع كمبريدج بين الأمم الشمالية والجنوبية للجامعة، مما دفع مجموعة من الأساتذة الذين ينتمون إلى الأمة الشمالية إلى ترك المدينة. وشكلت مثل هذه الحوادث حالة مشتركة للحياة الجامعية فى القرن الثالث عشر، لكن هذه المرة كانت مختلفة قليلًا. وبسبب عدم رغبة المهاجرين فى التخلى عن أنشطتهم الأكاديمية، ذهبوا إلى نورثامبتون، حيث توجد المدارس بالفعل واستأنفوا تعليمهم هناك. وكون أن بعضهم كان لديه أصدقاء فى البلاط، حصلوا على خطابات ملكيّة تُلزم سلطات البلدية بالترحيب بالقادمين الجدد. ويبدو أن هذا التوسع المفاجئ للنشاط التعليمى داخل أسوار المدينة أدى إلى إنشاء مؤسسة جامعية، لأن الرسائل الملكية اللاحقة تشير إلى تعليم جامعى فى نورثامبتون. وعلى الرغم من تشجيع الملك لها فى البداية، إلا أنه تم قمعها بالقوة من قبل التاج عام ١٢٦٥م. لقد تجسد قرار أساتذة أكسفورد بترسيخ إحتكار التعليم العالى لأنفسهم وزملائهم فى جامعة كمبريدج فى القسم الذى يدار لقبول الأساتذة: «لن تستأنف محاضراتك بشكل رسمى فى الجامعة، أو تُقبل فى أى كلية فى الجامعة، أو فى أى مكان آخر فى إنجلترا إلا هنا أو فى كمبريدج، ولن توافق على الاعتراف بأى شخص على أنه أستاذ فى هذه الكلية التى تخرج فيها فى مكان آخر فى إنجلترا». انظر:

LAWRENCE, C.H., "The University of Oxford and the Chronicle of the Barons' wars", EHR, vol.95, No.374 (Jan., 1980), p.99, 112-3; VAUGHN, pp.76-8; LAURIE, p.242; LEACH, Educational Charters, p.XXVI.

وللمزيد عن انشقاق نورثامبتون انظر:

RICHARDSON, H.G., "The Schools of Northampton in the Twelfth Century", EHR, vol.56, No.224 (Oct., 1941), pp. 595-605.

هو الحال فى نورثامبتون عام ١٢٦١م، وستامفورد عام ١٣٣٤م، وأجبروا الطلاب على العودة إلى أكسفورد وكمبريدج. وقد حصلت جامعة كمبريدج على الحماية من خلال البراءة البابوية، التى أكدت جميع الامتيازات والتسهيلات، وأعطت رخصة للخريجين للتدريس فى أى جزء من العالم المسيحى. وقد مُنحت هذه البراءة البابوية فى عام ١٣١٨م، من قبل البابا جون الثانى والعشرين John XXII (١٣١٦-١٣٣٤م) بناءً على طلب الملك إدوارد الثانى Edward II (١٣٠٧-١٣٢٧م)(١). وسوف يتم تناول هذه البراءة بشئ من التفصيل عند الحديث عن الدعم البابوى للجامعة.

حظيت جامعة كمبريدج بأول اهتمام ملكى من قبل الملك هنرى الثالث فى عام ١٢٢٩م، حينما سمح للطلبة النازحين من جامعة باريس بالإقامة فى كمبريدج والدراسة بها(٢). ثم منح الملك هنرى الثالث امتياز للجامعة عام ١٢٣١م، ووضع قواعد خاصة لحماية الطلاب وتنظيم شئون الجامعة(٣). ويرجع هذا الامتياز الملكى إلى انزعاج جامعة كمبريدج من الطلاب المشاغبين والمخالفين للنظام الجامعى. ومن أجل مزيد من الأمان والاستقرار لتعقب ممارساتهم الخاطئة، بالإضافة إلى المبالغ الباهظة التى طالب بها أهالى المدن مقابل إيجار النزل التى يسكنها الطلاب. أصدر الملك أربعة أوامر، كتبت جميعها فى أكسفورد فى الثالث من مايو عام ١٢٣١م. أولها: أمر الملك حاكم المقاطعة (الشريف) بمعاقبة وقاحة الطلاب، بشرط أن يتم ذلك فى وجود أسقف إيلى، وبناءً على تقدير رئيس وأساتذة الجامعة، إما بحبسهم أو طردهم من الجامعة. ثانيها: أمر الملك العمدة بالتوجه إلى كمبريدج بصحبة صفوة الرجال

---

(١) HUMPHRY, p.122; HUBER, pp.415-7; Denifle, p.368-9.

وللمزيد عن إنشقاق ستامفورد انظر:

SALTER, H.E., "The Stamford Schism", EHR, vol.37, No.146 (Apr., 1922), pp.249-53.

(٢) سعيد عاشور: الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م، ١٢٧؛ DYER, p.45

(٣) HUGHES, p.226; Vaughn, p.110-1.

والقانونيين من مقاطعته، وأن يعلن هناك باسم الملك يجب على الطلاب غير المنتظمين فى دروس الأساتذة والذين لا ينتسبون لأى أستاذ مغادرة المدينة خلال خمسة عشر يومًا، وعقب انتهاء هذه المدة، أمر العمدة بإلقاء القبض على كل من لم يغادر وسجنه. ثالثها: أمر الملك أسقف إيلى أنه ينبغى عليه طلب مساعدة العمدة، كلما استنجد به رئيس الجامعة والأساتذة لمعاقبة شغب وتمرد الطلاب. رابعها: أمر الملك أن تقدر إيجارات النزل التى يسكنها الطلاب بواسطة اثنين من الأساتذة واثنين من خيرة رجال المدينة الأكفاء خصصوا لهذا الغرض(١)، على أن يتم ذلك وفقًا لتقاليد الجامعة(٢).

وفى محاولة من الملك هنرى الثالث للحفاظ على سلام وهدوء الجامعة بسبب النزاعات المتكررة بين الطلاب والعامة، أمر الملك عمدة المقاطعة فى عام ١٢٤٢م بأن يحتجز فى السجن أى طالب يزج بنفسه فى الأفعال الشريرة بدلًا من مواصلة دراسته، ويبقى بأمان بداخله حتى يتسلمه رئيس الجامعة من السجن. وفى عام ١٢٤٩م وجه الملك أوامره إلى عمدة كمبريدج تمنعه من إلقاء القبض على أى طالب(٣). واستمرارًا لامتيازات الملك هنرى الثالث ودعمه لجامعة كمبريدج، عمل الملك على منع قيام جامعة فى نورثامبتون لأن قيام جامعة هناك من شأنه الإضرار بالنمو الاقتصادى الذى

---

(١) Cooper, p.41-2, Malden, p.94-5; Leader, p.25-6; Kibre, p.271; Bateson, p.237.

وجدت لدى جامعة أكسفورد مثل هذه الرسائل موجهة إلى عمدة ونواب أكسفورد؛ لأن تاريخ امتيازات جامعة كمبريدج تتبع نفس مسار التطور فى جامعة أكسفورد، لكن الامتيازات والحريات الأكاديمية فى كمبريدج كانت ابطأ فى نموها إلى حد ما مما كان عليه الحال فى أكسفورد. انظر:

Leach, Educational Charters, p.153; Rashdall, vol.II, part.II, p.547-8.

(٢) يُقصد بجملة «وفقًا لتقاليد الجامعة» أن الملك يشير إلى الجامعات الأخرى مثل جامعة باريس، والتى تقاليدها معروفة جيدًا بالنسبة للملك، حيث تسود هناك هذه الممارسات. انظر الحاشية: Cooper, p.42؛ ويشير البند الرابع الخاص برسوم وإيجارات النزل إلى كثرة الطلاب من مختلف المناطق التى لجأت إلى كمبريدج من أجل الدراسة والتعلم سواء من هذا الجانب أو من وراء البحر، والتى تبين بلا شك تأثير الدعوة الملكية إلى طلاب جامعة باريس المهاجرين بالإقامة فى إنجلترا. انظر: Rashdall, vol.II, Part.II, p.547

(٣) Cooper, Annals, p.44-5.

حدث فى المدينتين الجامعيتين الإنجليزيتين – أكسفورد وكمبريدج – بسبب النشاط التجارى للطلاب وأن أى هجرة من هذه المدن من شأنه التسبب فى ركود اقتصادى لهذه المدن. لذا أصدر الملك فى الأول من فبراير عام ١٢٦٥م مرسومًا ملكيًا بقمع هذه الجامعة(١). ونص خطاب الملك فى هذا الشأن على:

تحية الملك إلى عمدة مواطنى نورثامبتون،

«بسبب الخلاف الكبير الذى نشأ فى مدينة كمبريدج منذ سنوات، غادر بعض الطلاب الذين يدرسون هناك بالإجماع إلى مدينة نورثامبتون ونقلوا أنفسهم إلى مدينتكم وأرادوا، بهدف إستكمال دراستهم، إنشاء جامعة جديدة هناك.... ونحن، بناءً على نصيحة رجالنا العظماء، نأمر بحزم بألا يكون من الآن فصاعدًا جامعة فى مدينتنا المذكورة، ويجب ألا تسمح لأى طالب بالبقاء هناك خلاف ما كان عليه العرف قبل إنشاء الجامعة المذكورة». شاهد الملك فى وستمنستر، الأول من فبراير فى العام التاسع والأربعين من حكم الملك هنرى الثالث(٢).

وفى أعقاب الصراع بين الملك والبارونات، ومن أجل الاستقرار والهدوء ومصلحة الجامعة، أصدر الملك ميثاق فى عام ١٢٦٨م مُنحت الجامعة على إثره بعض الامتيازات الخاصة بموازين الخبز والبيرة ونظافة المدينة. ويهمنا من هذا الميثاق الأحكام التالية: البند الرابع: إذا قام أى شخص من العامة بإلحاق أى أذى أو ضرر لطالب، يجب أن يتم القبض عليه فورًا، وإذا كانت الإصابة بالغة يسجن حتى يدفع تعويض مناسب للطالب. وإذا ألحق أى طالب أذى أو ضرر لشخص من العامة، يجب أن يُسجن حتى يطلبه رئيس الجامعة. أما البند الثامن: يجب بيع النبيذ على قدم المساواة وبلا تحيز للطلبة مثل العامة. وفى البند التاسع: منح الملك مستشار الجامعة أو من ينوب عنه حق الإشراف على فحص الخبز والشعير. البند العاشر: منح الملك

---

(١) سناء مندور طرفاية: مرجع سابق، ٥٨.

(٢) Leach, Educational Charters, p.163.

رئيس الجامعة والأساتذة حق الإشراف على نظافة المدينة مع العمدة والنواب[١].

فى إبريل من عام ١٢٧٠م، رافق الملك هنرى الثالث فى زيارته إلى مدينة كمبريدج ابنه الأمير إدوارد (الملك إدوارد الأول فيما بعد)، وأطلعه على الخلافات والنزاعات التى تحدث باستمرار بين المواطنين والطلاب، وقد تعهد الأمير بالعمل كوسيط سلام بينهما، من خلال تدخله بمعاهدة أو تسوية، والتى كانت مختومة بأختام مشتركة للجامعة والمدينة، وأيضًا بختم الملك. ونصت هذه التسوية على حفظ سلام الجامعة والمدينة وأخذت تعهدات الطلاب والأعيان بالعمل على ذلك[٢].

وفى الرابع والعشرين من يوليو من نفس العام، أصدر الملك بناءً على طلب أساتذة وطلاب كمبريدج، خطابات منعت قيام مباريات المبارزة بالرماح Tiltings أو Justings(*)، أو غيرها من الألعاب الحربية فى مدينة كمبريدج أو فى حدود خمسة أميال منها[٣]. وقد حصلت جامعة كمبريدج على هذا الامتياز مرة أخرى فى عامى ١٣٠٥ و ١٣٠٩م، عندما تم الإعلان عن قيام مبارزات سوف تحدث فى الجوار، لذا أعلن عمدة المدينة بحظر انتهاك الميثاق الممنوح للجامعة من قبل الملك هنرى الثالث بهذا الشأن، وأن أى شخص سيتجاهل هذا الحظر، ويعصى الملك، أو يُحدث إزعاج للأساتذة والطلاب بعقد هذه المباريات، سوف يتم القبض عليه واحتجازه بالسجن حتى يأمر الملك بخلاف ذلك[٤].

---

(١) Tait, J., "The Origin of town councils in England", EHR, vol.44, No.174, (Apr., 1929), p.187; Cooper, p.50-1; Huber, p.117.
وقد مُنحت جامعة أكسفورد ميثاق مشابه جدًا لما سبق فى عام ١٢٥٥م.

(٢) للإطلاع على بنود هذه المعاهدة انظر: Cooper, p.52-3; Huber, pp.421-3

(*) Tiltings: هى المبارزة بالرماح من على ظهر الخيول؛ أما Justings: هى مبارزة بين اثنين من الرجال باستخدام الرماح وهى ضمن سلسلة من المباريات. انظر: http://www.thefreedictionary.com/justing

(٣) Cooper, p.53; Smith, J.J., ed., The Cambridge Portfolio, vol.I, London, 1840, p.99-100.

(٤) Cooper, p.71-2; Vaughn, p.114-5.

استمرت امتيازات الجامعة فى عهد الملك إدوارد الأول Edward I (١٢٧٢-١٣٠٧م). ففى السادس من فبراير عام ١٢٩٢م، تم التأكيد على المواثيق الممنوحة للجامعة من قبل الملك هنرى الثالث، وكذلك الإتفاقية المبرمة بين الجامعة والمدينة فى عام ١٢٧٠م، وقد أكدوا جميعًا بموجب ميثاق التعزيز Charter of Inspeximus(*)، وهو ما يوضح اهتمام الملوك المتعاقبين بالجامعة[١]. وفى نفس العام أيضًا، قدمت الجامعة عريضة إلى الملك فى البرلمان، رجت فيها أن يمتلك رئيس الجامعة الاختصاصات المتعلقة بالعقود والاتفاقيات بين الطلاب وأهالى المدينة. وقد أجاب الملك أنه يجب أن يكون لهم ما لجامعة أكسفورد، حيث منح لرئيس الجامعة الحق فى أن يدعو المواطنين لإجابة الطلاب فى جميع الإجراءات الشخصية[٢].

اهتم الملوك بتعبيد الطرق ورصف مدينة كمبريدج لتكون مكانًا لائقًا لأساتذة وطلاب الجامعة، حيث وافق الملك إدوارد الأول فى الرابع عشر من يناير عام ١٢٨٩م – بناءً على اقتراح جيفرى بكينهام Geoffery de Pakenham رئيس الجامعة – على تحصيل عمدة المدينة والنواب بعض الرسوم والجمارك لمدة ست سنوات على مختلف السلع والبضائع التى جلبت للمدينة للمساعدة فى تعبيد ورصف المدينة. وهو نفس ما حدث فى السادس من يونيو عام ١٣٢٠م، عندما منح الملك لعمدة المدينة رسوم لمدة ثلاث سنوات للمساعدة فى تعبيد المدينة، بناءً على طلب أسقف ريتشموند ومسئول الخزانة الملكية ورئيس الجامعة. وفى الثامن والعشرين من نوفمبر عام

(*) Inspeximus: كلمة لاتينية الأصل تعنى الميثاق الذى يقره ويؤكده المانح من ميثاق سابق. انظر: https://www.merriam-webster.com/dictionary/inspeximus

(١) وقع هذا الميثاق كل من روبرت Robert أسقف باث Bath وويلز Wells، أنتونى Anthony أسقف دورهام Durham، وليم William أسقف إيلى Ely، إديموند Edmund شقيق الملك، وليم دى فالنسيا William de Valencia عم الملك، جيلرت دى كلير Gilbert de Clare إيرل جلوستر Gloucester وهيرتفورد Hertford، هنرى لاسى Henry de Lacy إيرل لينكولن Lincoln، همفرى بون Humphrey de Bohun إيرل هيرفورد Hereford وإسكس Essex، وغيرهم. انظر: Cooper, p.64

(٢) Cooper, p.70-1.

١٣٢١م، منح الملك تقديرًا لرئيس وأساتذة الجامعة، عمدة المدينة رسوم محددة على السلع الرائجة التى جلبت للمدينة، على أن تستخدم هذه الرسوم فى إصلاح وتحسين رصف الطرق، تحت إشراف رئيس الجامعة وأساتذتها، أو من يتم انتدابهم(١).

وفى الخامس من يونيو عام ١٣٠٩م، صدَّق الملك إدوارد الثانى Edward II (١٣٠٧-١٣٢٧م) على المواثيق الرئيسية للجامعة من خلال ميثاق التعزيز(٢). وفى خطاب الملك الصادر لمواطنى كمبريدج بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر ١٣١٣م، أكد الملك فى البند الرابع أنه يجب ألا تضر تجاوزات بعض المواطنين بأى حال من الأحوال أساتذة وطلاب الجامعة، أو تمس أى امتيازات منحت لهم من قبل أسلافه. وفى خطاب له مؤرخ فى يورك فى الثالث من أكتوبر من نفس العام، أمر جميع النواب والأهالى المخلصين بالحفاظ والدفاع عن امتيازات الجامعة ومساعدة رئيس الجامعة والأساتذة والطلاب فى الحفاظ على السلام والهدوء(٣).

ومن ناحية أخرى، منح الملك إدوارد الثانى الجامعة بعض الامتيازت الهامة التى من شأنها المساهمة فى رفعة الجامعة، وجاءت الامتيازات المؤرخة فى كلارندون Clarendon فى فبراير عام ١٣١٦م ممثلة فى:

أولًا: يجب أن يتمتع رئيس الجامعة والأساتذة والطلاب بجميع الحريات الممنوحة لهم أو لأى من أسلافهم السابقين بلا استثناء.

ثانيًا: بالإضافة إلى الغرامات والعقوبات Amerciaments المفروضة على التجار الغشاشين بواسطة ميثاق الملك هنرى الثالث، يجب مصادرة السلع المباعة.

---

(١) Ibid., p.62-78-80.

(٢) وُقِّع الميثاق من قبل جون John أسقف شيستر Chichester ومستشار الملك، سيمون Simon أسقف سروم Sarum، هنرى لاسى إيرل لينكولن، همفرى بون إيرل هرفورد وإسكس، هيو ديسبنسر Hugh Le Despencer، وغيرهم. انظر: Cooper, p.72

(٣) Ibid., p.74.

ثالثًا: يجب أن يمتد الحكم الخاص بحبس الأشخاص الذين يُلحقون ضرر جسيم بالطلاب إلى الإصابات الخفيفة.

رابعًا: إذا اشتبه رئيس الجامعة فى حبس بعض الطلاب عن طريق الخطأ، يجب على مسئولى السجن – بناءً على طلب رئيس الجامعة أو أحد الأساتذة المفوضين من قبله – السماح له بتفقد هؤلاء السجناء وأسلوب معاملتهم والتحفظ عليهم، حسب ما يرى أنها ملائمة، ويجب أيضًا – حسب تحذير رئيس الجامعة – تصحيح كل هذه العيوب والتجاوزات على ما يرام.

خامسًا: إذا سدد رجال الدين رسوم الدراسة، وأصبحوا طلاب بالجامعة، وطالما أنهم يواصلون دراستهم فيها كما ينبغى، يجب ألا يعرضوا على أى جلسات قضائية، أو هيئة المحلفين، أو الاعترافات.

سادسًا: إذا قُتل أحد الطلاب أو تعرض لأذى كبير فى المدينة أو ضواحيها، وأهمل النواب فى القيام بواجباتهم، يجب معاقبة النواب المذكورين آنفًا وكذلك طبقة العامة.

سابعًا: على مجلس البلدية إخطار رئيس الجامعة باليوم الذى يؤدى فيه العمدة والنواب يمين الولاء فى قاعتهم العمومية، هذا القسم بقدر ما يحترم الطلاب، ينبغى أنه، سيحافظ على مكانتهم وحريات وأعراف الجامعة فيما يتعلق بالحفاظ على سلام الملك وقانون الخبز والبيرة والأطعمة الأخرى؛ ومن ناحية أخرى فإن يمين الولاء سيكون دون جدوى إذا لم يكن رئيس الجامعة، بعد إخطاره، حاضرًا بنفسه أو مراقبه.

ثامنًا: إذا استقبل أحد المواطنين فى منزله، وهو على دراية، أولئك الذين يرتكبون اعتداءات كبيرة ضد الطلاب وأخفاهم لكى يحميهم من العقاب، فإن هذا المواطن مسئول عن منزله ويُعاقب بشدة.

تاسعًا: عند فحص الخبز والبيرة من قبل أعضاء مجلس البلدية، يجب أن يكون رئيس الجامعة، أو القائم بأعماله، على علم مسبق سرًا فى اليوم السابق، لكى يكون متواجدًا إذا رغب فى ذلك، وإذا انتدب رئيس الجامعة من ينوب عنه، يجب أن يقسم

أمام الذين يخطرون رئيس الجامعة، بعدم البوح بهذا الفحص قبل أن يتم، وعليهم أن يعملوا بجد وإخلاص فى هذه المهمة(١).

وفى العشرين من فبراير من نفس العام، أى بعد أربعة أيام من الامتيازات السابقة، قرر الملك أن جميع قضايا الطلاب المتعلقة بالقروض، وفرض الضرائب، وتأجير المنازل، وسوم بيع أو تأجير الخيول، وأسعار القماش، أو الأطعمة، يجب أن تقرر من قبل رئيس الجامعة فقط. وفى عام ١٣١٧م أصدر الملك ميثاقين فى غاية الأهمية. جاء الأول بتاريخ الثالث من يونيو، وفيه قرر الملك أنه إذا ألحق أحد العامة ضرر جسيم بطالب، أو طالب بأحد العامة، يجب القبض عليه فورًا وسجنه بالقلعة حتى يطلق سراحه بتعويض مناسب، أو بناءً على طلب من رئيس الجامعة. وأى تحقيقات ستحدث على إثر تجاوزات كبيرة وشنيعة يرتكبها العامة ضد الكتبة، أو الكتبة ضد العامة، داخل مدينة كمبريدج وضواحيها، سوف تأخذ من الأجانب وكذلك من المواطنين(٢). أما الثانى فكان فى السادس من يونيو ١٣١٧م، وفيه منع الملك إقامة أى امرأة عاهرة فى المدينة أو ضواحيها، وأمر عمدة المدينة والنواب، بعد تحذير رئيس الجامعة أربعة مرات سنويًا أو أكثر، أن يعلنوا باسم الملك، إلزام كل هؤلاء النساء، تحت طائلة السجن، بمغادرة المدينة خلال فترة زمنية معينة. وفى الثامن عشر من مارس ١٣١٨م، أرسل الملك إدوارد الثانى عدة رسائل للبابا جون الثانى والعشرين، يلتمس منه تأكيد وزيادة امتيازات الجامعة، وهو ما فعله البابا بعد ذلك بوقت قصير(٣). وسوف يتم الحديث عن تلك الرسائل عند الحديث عن الامتيازات البابوية للجامعة.

وعندما أعتلى الملك إدوارد الثالث Edward III (١٣٢٦-١٣٧٧م) العرش، منح الجامعة ستة مواثيق متنوعة، تأكد الامتيازات الممنوحة لهذه الجامعة من قبل أسلافه.

---

(١) Ibid., p.75-6.

(٢) Ibid., p.76.

(٣) Cooper, p76-8; Denifle, p.375.

وفى الثانى والعشرين من أكتوبر ١٣٢٧م، أكد الملك من خلال مياق مؤرخ فى نوتنجهام، الامتيازات الرئيسية الممنوحة للجامعة كما يلى:

أولًا: لما كانت مواثيق هنرى الثالث وإدوارد الثانى نصت على إذا ألحق أحد العامة أذى بكاتب، أو كاتب بأحد العامة، يجب القبض عليه فورًا، لكنها لم تذكر ما حل بالشخص من قبل معتقليه: لذلك أمر الملك أنه يجب على العمدة أو النواب، عند إخطار رئيس الجامعة أو نائبه، استلام الأشخاص المدانين بإرتكاب هذه الجرائم، وإيداعهم بالسجن من قبل رئيس الجامعة أو نائبه، وإذا لزم الأمر يجب القبض على هؤلاء الأشخاص بمساعدة قوة المدينة، وقيادتهم إلى السجن والتحفظ عليهم حتى إطلاق سراحهم من هذا المكان.

ثانيًا: لما قد احتوى ميثاق هنرى الثالث، أن صانعى البيرة وخبازين المدينة، يجب أن يغرموا على جريمتهم فى المرة الأولى؛ وأن يفقدوا خبزهم وبيرتهم فى المرة الثانية؛ أما فى المرة الثالثة يجب أن يحاكموا بالمشهرة Pillory أو العربة Tumbrel(*)…. لذلك أمر الملك أن رئيس الجامعة أو نائبه أو من ينوب عنه، يجب أن يكون موجودًا مع العمدة والنواب فى كل مرة يُفحص فيها الخبز والبيرة وهما يُصنعان، ويجب معاقبة المخالفين وفقًا لنص الميثاق المذكور أعلاه، كما أن اسماء هؤلاء المخالفين يجب أن تسلم إلى رئيس الجامعة بمقتضى وثيقة أو عقد لكى يتضح له أن هؤلاء المذنبين عوقبوا بالفعل(١).

وفى الثالث والعشرين من أكتوبر من نفس العام، وافق الملك بعدم إقامة أى امرأة عاهرة فى مدينة كمبريدج أو إحدى ضواحيها، وأن يعلن عمدة المدينة أنه إذا عثر على

(*) Pillory: آلة خشبية للتعذيب وهى عبارة عن إطار خشبى مع فتحات للرأس واليدين تدخل فيها يدا المجرم ورأسه ابتغاء التشهير به ويتعرض للأذى الجسدى أمام الناس؛ أما Tumbrel: عربة تستخدم لنقل السجناء المحكوم عليهم بالإعدام إلى المقصلة. انظر:

https://en.oxforddictionaries.com/definition/pillory
https://en.oxforddictionaries.com/definition/tumbril

(١) Cooper, p.82-3.

أى امرأة تسكن المدينة أو ضواحيها فى وقت يتجاوز الثلاثة أيام بعد الإعلان، سيتم القبض عليهن وحبسهن فى سجن المدينة، حتى يحررن بواسطة رئيس الجامعة أو نائبه(١).

فى عام ١٣٣٤م، غادر بعض الطلاب جامعة أكسفورد وأسسوا جامعة فى ستامفورد. وقد سبب ذلك استياء كبير فى جامعة أكسفورد، ولكن هذه الجامعة الجديدة سرعان ما قُمعت بعد ذلك من قبل السلطة الملكية الحاكمة. وعبَّر الملك عن رأيه فى هذا الشأن من خلال خطاب أرسله إلى شريف لينكولنشاير بتاريخ الثامن من أغسطس ١٣٣٤م يأمره فيه بالذهاب إلى ستامفورد وإصدار إعلان بعدم السماح بوجود أى جامعات إلا فى أكسفورد وكمبريدج(٢). وفى الأول من نوفمبر وجه الملك خطاب آخر إلى عمدة لينكولنشاير بسبب عصيان الأساتذة والطلاب لإعلان الملك، وأمر الشريف بالذهاب مرة أخرى ومصادرة جميع الكتب وغيرها من الأدوات من الذين أعلنوا العصيان. وعلى الرغم من تفاقم المشكلة وعدم حلها، إلا أن الواقعة انتهت بخطاب من أكسفورد إلى كمبريدج تطلب فيه عدم الإعتراف بزعيم العصيان «الحانث بيمينه وقسمه» كأستاذ هناك وهو وليم بارنبى William of Barnby(٣). كما أصدرت جامعة كمبريدج تشريعًا، من أجل معارضة تأسيس جامعة جديدة، نص على أن يصبح خريجيها الذى أكمل دراسته فى أى كلية أستاذًا فى هذه الكلية(٤). واعتقد أن جامعة كمبريدج هدفت من وراء هذا التشريع إلى عدم انسحاب هؤلاء الخريجين إلى هذه الجامعة الجديدة.

وفى عام ١٣٤٣م مُنحت الجامعة امتيازات متعلقة بقضايا الطلاب مثل القروض والهبات والعائدات والضرائب والإيجارات وبيع وإقراض الخيول، وأصبحت جميعها

---

(١) Ibid., p.83.

(٢) Leach, Educational Charters, p.287.

(٣) Ibid., p.288-9.

(٤) Cooper, p.87.

من حق رئيس الجامعة. وفى عام ١٣٥٢م، أمر الملك قضاة مقاطعة كمبريدج بالسماح لرئيس الجامعة بمعاقبة جميع التجاوزات والانتهاكات التى يرتكبها الطلاب، بإستثناء جرائم العنف والفوضى. ولكن تم إلغاء هذا الامتياز فى العام المقبل. وقد اعتبرت الجامعة أن إلغاء هذا الامتياز يُعد انتقاص لامتيازاتها.، ولكن الملك أعلن أن إلغاء الميثاق ينبغى ألا يؤثر بأى حال من الأحوال على الامتيازات، والحريات، والعادات التى تتمتع بها الجامعة[(١)]. ولم يكن حتى عام ١٣٨٣م حتى عادت جامعة كمبريدج واكتسبت هذا الامتياز مرة أخرى، حيث أمتد الإختصاص القضائى ليشمل كل القضايا باستثناء الجرائم وإحداث الفوضى[(٢)].

ويمكننا القول مما سبق، أن الامتيازات الملكية والدعم الملكى لجامعة كمبريدج لم يتوقف طوال فترة العصور الوسطى، ولم يقتصر على مرحلة النشأة فقط، ولكنه استمر جنبًا إلى جنب مع تطور الجامعة وكلياتها وأنظمتها، وكلما وقعت أحداث جديدة اكتسبت الجامعة امتيازات أخرى، حتى حصلت الجامعة على امتيازات وسلطات كبيرة لم تتنازل عنها أبدًا ولم تسمح لأحد بانتقاصها.

أثر الدعم البابوى فى نشأة الجامعة

أما الدعم البابوى والكنسى لجامعة كمبريدج، حدث أول اعتراف بابوى بجامعة كمبريدج فى عام ١٢٣٣م على يد البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١م) بعد عريضة قدمها له رئيس الجامعة والطلاب، حيث سمح البابا لأسقف إيلى بتبرئة طلاب جامعة كمبريدج، ومنح امتياز لطلاب كمبريدج، بالاستجواب أمام الأسقف أو رئيس الجامعة، وعدم الاستدعاء خارج الأسقفية[(٣)]. ومنذ ذلك الوقت

---

(١) Ibid., pp.95-108.

(٢) Rashdall, vol.II, Part.II, p.548; Cooper, p.126.

(٣) Denifle, p.369-70; Rashdall, vol.II, part.II, p.547; Leader, p.26.

وفى ٢٢ مايو عام ١٢٦٣م، منع الملك إدوارد الثالث جميع الأساقفة ورجال الدين الآخرين من التعدى=

أخذت جامعة كمبريدج تعمل على استقلالها الكنسى حتى تم ذلك فى أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر(١).

وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، كانت هناك أحكام مالية وفيرة من قبل البابوات والأساقفة لتمكين رجال الدين من الحصول على تعليم أكاديمى متقدم. وتُعد تشريعات البابا هونريوس الثالث Honorius III (١٢١٦-١٢٢٧م) معلمًا رئيسيًا فى التشريع البابوى لهذا الأمر، كما كان الأساقفة وعمداء الكاتدرائيات مهتمين أيضًا بتشجيع الطلاب. وبالإضافة إلى دور البابا هونريوس الثالث فى التعليم، احتل كل من البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م) والبابا أنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤م) مكانة كبيرة فى تعليم العصور الوسطى. ولم تكن هذه الأحكام ضرورية فقط لنمو الجامعة؛ بل كانت مسئولة أيضًا إلى حد كبير عن الزيادة الكبيرة فى عدد رجال الدين الذين ساعدوا على جعل المجتمع الأوروبى والثقافة الأوروبية أقرب إلى عتبة العالم الحديث(٢).

وانطلاقًا من عالمية جامعة العصور الوسطى، أى أن الجامعة فى جوهرها لم تكن محلية أو حتى قومية، فطلابها كانوا من جميع الأمم وحقها فى التعليم شمل جميع أراضى العالم المسيحى. ومن ثم فالبابا وحده من يستطيع أن يسمح للمدرسة المحلية برفعها إلى مكانة الجامعة، وذلك بسبب قدرة البابا على تنظيم العلاقة بين الطالب والأسقف أو رئيس الشمامسة، ولكن السبب الرئيسى أنه كان السلطة الدولية الوحيدة المعترف بها(٣). ومن ثم، أُعتبرت جامعة كمبريدج للمرة الأولى بأنها مدرسة

=على حريات وامتيازات الجامعة، أو إزعاج الطلاب باستدعائهم إلى المحاكم الكنسية، فى القضايا المحددة من قبل رئيس الجامعة وفقًا لامتيازاته وصلاحياته. انظر: Cooper, p.106

(١) سعيد عاشور: الجامعات الأوروبية ١٢٨.

(٢) Pegues, F., "Ecclesiastical Provisions for the Support of the Students in the Thirteenth Century", Ch H, vol.26, No.4 (Dec., 1957), p.316-7.

(٣) Gray, p.11.

عامة Studium Generale من خلال براءة البابا جون الثانى والعشرين فى عام ١٣١٨م، التى صيغت بكل تأكيد كمرسوم تأسيس خلق مدرسة عامة جديدة مع «امتياز حق التدريس فى كل مكان " ubique docendi Jus»[١].

فى الثامن عشر من مارس عام ١٣١٧م، أرسل الملك إدوارد الثانى خطابًا إلى البابا جون الثانى والعشرين، يطلب منه دعم وتعزيز و«تخليد» جامعة كمبريدج، وتأكيد وزيادة امتيازاتها. وكان الملك فى ديسمبر ١٣١٦م أرسل بعثة ملكية إلى البابا فى أفينيون Avignon – أى قبل خطابه بثلاثة أشهر – وتكونت البعثة من إيرل بيمبروك، وأسقف إيلى، وأسقف نورويتش. وبدأوا رحلة العودة إلى إنجلترا فى إبريل عام ١٣١٧م[٢]. كان الهدف المعلن لهذه الرحلة هو كسب تأييد البابا الجديد للملك الإنجليزى؛ أما الأهداف الخاصة، فهى الحصول على إذن لإدوارد لفرض ضرائب على رجال الدين الإنجليز، فضلًا عن المساعدة البابوية ضد الاسكتلنديين. ومسائل أخرى ذات طبيعة أكثر سرية، وعلى الأغلب تطرقت البعثة لفتح مناقشات حول كمبريدج تمهيدًا للوصول إلى خطاب الملك. ونتيجة مباشرة لهذا الخطاب أو هذه العريضة، تلقت كمبريدج القرار الرسولى للبابا جون الثانى والعشرين فى يونيو ١٣١٨م[٣]. وافق البابا على تنفيذ طلب الملك فى السنة الثانية من توليه منصب البابوية، حيث أصدر مرسومًا أن كمبريدج ينبغى أن تكون مقرًا للدراسة العامة. وأن

---

(١) Rait, R.S., Life in the Medieval University, Cambridge University Press, Cambridge, 1918, p.10; Rashdall, vol.II, part.II, p.551; Mullinger, p.144-5; Laurie, p.242.
حصلت جامعة باريس على هذا الامتياز عام ١٢٩٢م من البابا نيقولاس الرابع، وهو الامتياز الذى يعطى أساتذة الجامعة حق التدريس فى أى جامعة دون اختبار مسبق. ولم تحصل جامعة أكسفورد على هذا الامتياز إلا بعد أن أرسل أسقف لينكولن رسالة إلى البابا بونيفاس التاسع عام ١٢٩٦م بمنح هذا الامتياز للجامعة. انظر: سناء مندور طرفاية، مرجع سابق، ص٦١. وعلى الرغم من ذلك فقد تم الاعتراف بامتيازات جامعة أكسفورد وتأكيدها من قبل البابا أنوسنت الرابع فى عام ١٢٥٤م. انظر: Gray, p.12; Kibre, p.274

(٢) Cobban, A.B., "Edward II, Pope John XXII and the University of Cambridge", BJRL, vol.47, Issue 1, 1964, p.67-8.

(٣) Ibid., p.68.

جامعة الأساتذة والطلاب يجب أن تتمتع بجميع الحقوق التى تتمتع بها جامعة معترف بها. كما أكد البابا أيضًا جميع الامتيازات والتسهيلات التى منحت للجامعة من قبل ملوك انجلترا أو البابوات السابقين(١).

إن اعتبار هذا المرسوم مرسوم تأسيس انشأ «مدرسة» فى كمبريدج خاطئ تمامًا. فالتدقيق فى مدرسة كمبريدج فى القرن الثالث عشر يظهر أنها امتلكت بالفعل السمات الرئيسية التى ميزت «المدرسة العامة» بمعنى وجود طلاب من أقاليم ومناطق بعيدة، وتعدد الأساتذة، والتدريس فى واحدة على الأقل من الكليات العليا (اللاهوت، القانون، الطب). كما أن أعلى درجة وشهادة للجامعة تضمنت فى قانون السابع عشر من مارس ١٢٧٥م. كما أن كمبريدج قبل عام ١٣١٨م بفترة طويلة اكتسبت مكانة "Studium generale respect regni". ومن ثم فإن هذا الخطاب كان خطاب تأكيد عزز فقط مدرسة عامة قائمة بالفعل دون أى تحسين بأى حال من الأحوال على مكانتها(٢). وقد أكد دكتور راشدال هذه الحقيقة، على الرغم من انتقاصه الدائم فى كتاباته لمكانة جامعة كمبريدج فى العصور الوسطى، أن جامعة كمبريدج امتلكت كل الخصائص التى أدرجت فى التصور المبهم للمدرسة العامة السائد آنذاك، وأن شهادات كمبريدج كان معترف بها كليًا، ومن ثم فإن الاعتراف بكمبريدج كمدرسة عامة تم قبل مرسوم عام ١٣١٨م(٣).

وتكمن أهمية خطاب البابا جون الثانى والعشرين لجامعة كمبريدج، فى أنه لم يجرؤ بابا فى أى وقت من الأوقات على منح – بصورة رسمية – مكانة «المدرسة العامة» لجامعة كمبريدج؛ ولكن دعمها فقط بواسطة التأكيد الرسولى. وبالتالى لم يعترف بها «كمدرسة عامة» من قبل السلطة البابوية، ولكن تم التعامل معها

---

(١) Cooper, p.77.

(٢) Cobban, "Edward II, Pope John XXII", p.68-9.

(٣) Rashdall, vol.II, part.II, p.551.

باعتبارها «عامة» من قبل العرف(١). كما أن أحد الامتيازات التى اكتسبت من هذا المرسوم البابوى، كان أولئك الذين كانوا أساتذة فى جامعة كمبريدج يستطيعون الآن إلقاء محاضراتهم فى أى مكان فى العالم المسيحى، حيث كان الأمر من قبل مقتصرًا على مدارسهم الخاصة، ويُعد هذا جزءًا صغيرًا من المزايا المستمدة من التأييد البابوى. كما اكتسبت الجامعة إعفاء كامل من السلطة الكنسية والروحية لأسقف الأبرشية، ورئيس أساقفة المقاطعة، وهذه السلطات بسبب تعلقها بأعضاء الجامعة فقد خُولت إلى رئيس هذه الهيئة. ومع ذلك ظل هذا الامتياز محل تنازع باستمرار»(٢).

إذا يمكن القول، أن الاعتراف الرسمى بجامعات العصور الوسطى جاء بعد الوجود الفعلى للجامعة، مما يعنى أن الجامعة كانت أمرًا واقعًا. فعلى سبيل المثال فى عامى ١٢٩١-١٢٩٢م حصلت جامعتى باريس وبولونيا الأقدم فى النشأة على الاعتراف البابوى، وجامعة سالرنو عام ١٢٣١م، وجامعة بادوا **Padua** عام ١٣٤٦م. وبالتالى فإن الاعتراف البابوى كان تتويجًا لجهود الجامعة.

---

(١) Cobban, "Edward II, Pope John XXII", p.74.

(٢) Cooper, p.77.

كان خطاب البابا جون الثانى والعشرين فى حوزة الجامعة حتى عام ١٤٢٠م، حيث كان الخطاب مدرجًا فى قائمة مفصلة بمحتويات الخزانة التى صنفت بواسطة الأستاذ وليم راسلى William Rysle. ولسوء الحظ فى تاريخ لاحق غير معروف اختفى الخطاب منذ ذلك الحين. والنص الموجود حاليًا مأخوذ من نسخة مصورة من سجل الفاتيكان للبابا جون الثانى والعشرين. وقد تطابق نص الخطاب مع نص الخطاب الوارد فى وثيقة معنونة بـ "Processus Barnwellensis ex mandato Martini Papae V, cum bullis Johannis XXII et Bonifacii IX" وهذه الوثيقة النفيسة مؤرخة فى ١٠ أكتوبر ١٤٣٠م، ومحفوظة فى أرشيف جامعة كمبريدج. ففى عام ١٤٣٠م أوفد البابا مارتن الخامس Martin V – وهو راعى عظيم للجامعات – بعض المحققين للبحث والتقصى إذا كانت الجامعة اكتسبت إعفاء مستشاريها من السلطة الكنسية بالمنح أم بالعرف، وهو ما أسفر عنه التحقيق بحق الجامعة فى الإعفاء الكنسى. لذا أصدر البابا أيجين الرابع Eugenius IV فى عام ١٤٣٣م براءة بتأكيد أحكام المفوضين. وللمزيد من التفاصيل انظر:

Cobban, "Edward II, Pope John XXII", pp.69-73; Malden, p.104.

والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان الآن هل اقتصر دعم جامعة كمبريدج فى العصور الوسطى على الدعم الملكى والبابوى فقط أم كان هناك دعم من جهات أخرى؟ والإجابة بالطبع لا، فلم يقتصر الدعم الجامعى على الملكية الإنجليزية والبابوية فقط، بل كان هناك دعم من قبل النبلاء والطبقة الأرستقراطية، ورجال الدين والكنسيين، وخريجى الكليات، والتجار. وعلى الرغم من اختلاف درجات الدعم من كل جهة، إلا أنه كان فى نهاية الأمر يصب فى مصلحة الجامعة. ولم يقتصر دعم الجامعة على الامتيازات والمواثيق والمراسيم، بل امتد إلى الدعم المالى فى شكل هبات ومنح وقروض، وتأسيس كليات، وإنشاء مكتبات، وإعانة الطلاب الفقراء، وغيرها من أشكال الدعم الأخرى. ومن ثم، فالدعم كان معنويًا وماديًا.

فى حقيقة الأمر، تدين جامعة كمبريدج، وأكسفورد أيضًا، فى العصور الوسطى بدين كبير إلى سخاء عدد وافر من المتبرعين والمحسنين من أصول اجتماعية مختلفة. وبالنظر إلى إيرادات الجامعة المحدودة، فلم يكن بوسع الجامعات أن تعمل بمستوى ناجح دون مساعدة مادية كبيرة من المتبرعين. على الرغم من أن الملكية الإنجليزية قدمت مساهمة قيِّمة فى العديد من مجالات الحياة الجامعية، إلا أنه يبدو أن هذا الإحسان الملكى كان أقل من المفترض(١).

وقد أعطى النبلاء الإنجليز الذكور هبات متقطعة من الممتلكات وقدموا تبرعات لخزانة القروض. وقد فتح هذا الطريق أمام الملكات ونساء الطبقة الأرستقراطية ليبرزن كمتبرعات ذوى أهمية فى كل من الجامعة ومجال الكليات. ويمكن القول أن النساء من الطبقة العليا من المجتمع جاءوا فى مرتبة – من حيث الأهمية كمتبرعات للجامعة والكليات – أقل من الكنسيين والفرسان والأعيان والتجار والأعضاء الحاليين والسابقين للكليات وموظفى الجامعة. ومع ذلك، تُعد تبرعات الأساقفة الإنجليز

---

(١) Cobban, A. B., "English University Benefactors in the Middle Ages", History, vol. 86, No.283 (Jul., 2001), p.288.

وإسهاماتهم أكثر أهمية نحو تطور الجامعة والكليات من أى جماعة فى المجتمع(١).

وبإعتبارها إتحادات ذات تمويل خاص، فإن جامعتى أكسفورد وكمبريدج فى العصور الوسطى وكلياتها اعتمدت بشكل أساسى على كرم المتبرعين. فكانت مالية الجامعات الإنجليزية مستمدة فى المقام الأول من رسوم التدريس والدرجات العلمية، ومن أموال الهبات أو الإعفاءات من متطلبات قانونية، ومن إيجارات الممتلكات. ولم تسفر مصادر الدخل هذه إلا عن عائدات متواضعة(٢). كانت مدخرات رأس المال الكبيرة فى شكل أوقاف وقروض جامعية. وكانت هذه العقارات، والممتلكات، والكنائس المخصصة التى تراكمت من قبل الكليات جزءًا أساسيًا من تطورها المؤسسى العام. وعلاوة على ذلك، ثبت أن جذب التمويل الخارجى، سواء فى شكل نقد أو أوقاف، شرط أساسى لا غنى عنه لمشاريع البناء، وتوفير مكتبة، ورواتب المحاضرين، والعديد من المشاريع المكلفة التى تدعم الجامعة ونموها. وبدون الدور الجوهرى والهام للمتبرعين ما كانت ازدهرت الجامعات الإنجليزية فى العصور الوسطى أكثر من حالتها الأولية فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى حيث عاشت جماعات الأساتذة والطلاب، يدرسون ويتعلمون فى أماكن مزدحمة وغير ملائمة فى كثير من الأحيان(٣).

---

(١) Ibid., p.288.

انفرد دكتور جون كلارك بمعلومة عن الملكة إليانور القشتالية Eleanor of Castile، زوجة الملك إدوارد الأول، والتى توفيت فى ٢٨ نوفمبر ١٢٩٠م، بأنها تبرعت فى وصيتها بمبلغ ١٠٠ مارك للجامعة لإعالة الطلاب الفقراء ولكن لم يفصح عن ذلك فى وصيتها إلا مؤخرًا وتحديدًا عام ١٢٩٢م وتم دفع مبلغ ٥٠ مارك فقط بدلًا من ١٠٠ حسب الوصية. وإذا صحت هذه المعلومة فسوف تكون الملكة إليانور هى أول متبرعة من النساء للجامعة. انظر:

Clark, C.W., *Endowments of University of Cambridge*, Cambridge University Press, Cambridge, 1904, p.553-4.

(٢) Ibid., p.288.

(٣) Ibid., p.289.

وعلى إثر هذا الدعم كُتب لجامعة كمبريدج البقاء والاستمرارية على مدار هذه القرون الطويلة، فالعديد من جامعات العصور الوسطى اندثرت ولم يكتب لها البقاء. ولكن هذه الامتيازات الممنوحة للجامعة من قبل الدولة والكنيسة ساهمت فى وجودها واستمرارها، حيث رأى كل منهما فائدة فى دعم وتعزيز مؤسسة الجامعة. وعلاوة على ذلك، فإذا كان القرن الثالث عشر هو القرن الذى ولدت فيه جامعة كمبريدج وهو طور النشأة، فإن القرن الرابع عشر هو طور تطور الجامعة، أما القرن الخامس عشر فهو طور نضج الجامعة وتألقها.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المراجع العربية

- زينب عبد المجيد، «جامعة أكسفورد فى العصور الوسطى»، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج٣، ٢٠٠٣م.
- سعيد عاشور، الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.
- سناء مندور طرفاية، جامعة أكسفورد فى انجلترا فى العصور الوسطى (١٢٠٠-١٣٥٠م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م.
- سهى إبراهيم منصور، جامعة أكسفورد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م.
- نظير حسان سعداوى، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والحديثة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية

- *Ingulph's Chronicle of the Abbey of Croyland*: With the Continuations by Peter of Blois and Anonymous Writers, trans. from the Latin with notes by Henry T. Riley, London, 1908.
- Matthew of Westminster, *The Flowers of History: Especially such as relate to the Affairs of Britain The beginning of the world to the year 1307*, 2 volumes, trans. from the original by C.D.Young, London, 1853.

- Matthew Paris, *English History from the Year 1235 to 1273*, 3 volumes, trans. from the Latin by J.A. Giles, London, 1852-4.
Roger of Wendover, *Flowers of History*, vol.II, trans. from the Latin by J.A.Giles, London, 1849.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

- Bateson, M., *Mediaeval England 1066-1350*, London, 1903.
- Clark, C.W., *Endowments of University of Cambridge, Cambridge University Press, Cambridge, 1904.*
- Cobban, A.B., "Edward II, Pope John XXII and the University of Cambridge", *BJRL*, vol.47, Issue 1, 1964.
- ———, "English University Benefactors in the Middle Ages", *History*, vol.86, No.283 (Jul., 2001).
- Compayre, G., *Abelard and the Origin and Early History of Universities*, London, 1893.
- Cooper, C.H., *Annals of Cambridge*, vol.I, Cambridge University Press, Cambridge, 1852.
- Denifle, H., *Die Universitäten Des Mittelalters Bis 1400*, Berlin, 1885.
- Dyer, G., *History of the University and Colleges of Cambridge*, vol.I, London, 1814.
- Gray, A., *Cambridge and Its Story*, London, 1902.
- Huber, V.A., *The English Universities*, vol.I, trans. from German and ed. by Francis W.Newman, London, 1843.
- Humphry, G.M., "Cambridge: Its University and Its Colleges", *BMJ*, vol.2, No.187 (Jul.30, 1864).
- Kibre, P., *Scholarly Privileges in the Middle Ages*, Cambridge: Massachusetts, 1962.
- Knowles, D., *The Evolution of Medieval Thought*, 2nd Edition, London, 1988.
- Laurie, S.S., *The Rise and Early Constitution of Universities, With a Survey of Medieval Education*, New York, 1887.
- Lawrence, C.H., "The University of Oxford and the Chronicle of the Barons' wars", *EHR*, vol.95, No.374 (Jan., 1980).
- Leach, A.F., *Educational Charters and Documents 598 to 1909*, Cambridge University Press, Cambridge, 1911.
- ———, *The Schools of Medieval England*, London, 1915.
- Leader, D.R., *A History of the University of Cambridge*, vol.I: *The University to 1546*, Cambridge University Press, Cambridge, 1994.
- Malden, H., *On the Origin of Universities and Academical degrees*, London, 1835.
- Mullinger, J.B., *The University of Cambridge, vol.I: From the earliest times to the Royal Injunctions of 1535*, Cambridge University Press, Cambridge, 1873.
- Orme, N., "The Medieval Schools of Cambridge, 1200-1550", *PCAS*, vol.104, 2015.
- Parry, A.W., *Education in England in the Middle Ages*, London, 1920.
- Patton, C.P., "The Origins and Diffusion of the European Universities", *Yearbook of the Association of Pacific Coast Geographers*, vol.31, 1969.
- Pegues, F., "Ecclesiastical Provisions for the Support of the Students in the Thirteenth Century", *Ch H*, vol.26, No.4 (Dec., 1957).
- Rait, R.S., *Life in the Medieval University*, Cambridge University Press, Cambridge, 1918.
- Rashdall, H., *The Universities of Europe in the Middle Ages*, vol.II, part.II, The Clarendon Press, Oxford, 1895.

- Richardson, H.G., "The Schools of Northampton in the Twelfth Century", *EHR*, vol.56, No.224 (Oct., 1941).
- Salter, H.E., "The Stamford Schism", *EHR*, vol.37, No.146 (Apr., 1922).
- Stubbs, C.W., Cambridge and Its Story, London, 1903.
- Tait, J., "The Origin of town councils in England", *EHR*, vol.44, No.174, (Apr., 1929).

Vaughn, E.V., *The origin and early development of the English universities to the close of the thirteenth century; A study in institutional history*, University of Missouri, 1908.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠١٩) ٩٧–١٢١

من سرايبفو إلى القدس عبر زيمون: الحاخام يهودا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨)

رمز الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية

محمد م. الأرناؤوط*

ملخص

ارتبطت الصهيونية السياسية باسم تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤)، بينما يحاول هذا البحث إلقاء الضوء على الحاخام يهوذا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨) باعتباره رمز الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية ومن المؤثرين على توجّه هرتزل من خيار اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها إلى المطالبة بدولة لليهود في فلسطين، ضمن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط بين الأسرتين (القلعي وهرتزل) عبر ثلاثة أجيال بدأت في ضاحية بلغراد (زيمون) وانتهت في فيينا. كما ويهدف هذا البحث إلى توضيح الظروف البلقانية التي أثرت على توجّه يهوذا من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية.

Abstract

The political Zionism movement has long been with associated with Theodor Herzl (1860-1904), the spiritual father of Israel. However, this study shed light on Rabbi

* رئيس تحرير مجلة «دراسات شرقية» في بريشتينا – كوسوفو.

Jehuda Alkalay (Sarajevo1798- Jerusalem1878), that had a great impact on shaping Herzl's new orientation from asking the Jews to be assimilated in the societies they were living in, into demanding for a Jewish state in Palestine. This relationship between the two men is due to a strong bond that connected the two families through three generations, started in Zemun (now a part of Belgrade) and ended in Vienna. Also, the study focuses on the Balkan circumstances at the time and how that affected and shaped Rabbi Jehuda's new orientation from religious to political Zionism.

❋

❋ ❋

يُعتبر الحاخام يهوذا القلعي Jehuda Alkalai، الذي ولد في سراييفو ودرس في القدس وبرز في مدينة زيمون Zemun (أحد أحياء بلغراد الآن) بدوره الديني ومؤلفاته التي تمثل الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية ومبادراته التي تمثل الانتقال من الفكر إلى النشاط الصهيوني (جمعيات للاستيطان في فلسطين)، من الشخصيات الرائدة بين يهود أوربا التي سعت لحلّ الإشكالية الدينية (انتظار التدخل الإلهي بظهور المسيح المنقذ لعودة اليهود إلى الأرض الموعودة) بتوفير غطاء ديني لتفعيل التدخل البشري لاستعادة «الأرض الموعودة» دون انتظار الوعد الإلهي إلى ما لا نهاية.

وقد تمثّل ذلك في مؤلفات القلعي الكثيرة التي بدأها أولا في لغة يهود الأندلس (اللادينو)، التي حملوها معهم إلى البلقان، ثم في اللغة العبرية التي كان القلعي من دعاة إحيائها والتأليف فيها، حيث كان يُعتقد أنه تأثر في ذلك بالأفكار القومية التي اجتاحت البلقان في مطلع القرن التاسع عشر (الانتفاضة الأولى في صربيا المجاورة خلال ١٨٠٤ – ١٨١٣ التي أدّت إلى إمارة صربية ذات حكم ذاتي في ١٨١٥، لتنضم

بذلك إلى الإمارات الدانوبية التي بقيت تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني، فدعا إلى توطين اليهود في فلسطين من خلال جمعيات تتولى ذلك وتحظى بدعم السلطان العثماني لتشكل بذلك كيان يهودي باسم «أرض اسرائيل» على نمط الإمارات الدانوبية، أي كيان يتمتع بحكم ذاتي ويعترف بسيادة السلطان ويدفع له جزية سنوية مناسبة.

وفي هذا السياق قام الحاخام القلعي بجولة في أوربا الغربية وصل فيها إلى بريطانيا، حيث كان اللورد مونتفيوري (Montefiore 1784-1885)، قد سعى إلى شبه كيان يهودي في فلسطين بالاتفاق مع محمد علي باشا في ١٨٣٨. وخلال تلك السنوات تنبّه الحاخام القلعي إلى أهمية الدور المتزايد الذي أخذت تلعبه القوى الأوربية في الدولة العثمانية كما ظهر في التدخّل لإصدار فرمان سلطاني بتبرئة وجهاء يهود دمشق من تهمة «فرية الدم» في صيف ١٨٤٠. وبذلك كان القلعي من أوائل من نبّه إلى الاستفادة من العلاقات الدولية لتحقيق الهدف المنشود لليهود، وهو ما تبنّاه هرتزل لاحقا، وصولا إلى تصريح وزير الخارجية البريطاني اللورد بلفور في ١٩١٧ الذي التزمت فيه بريطانيا بإنشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين.

وقد آثر القلعي أن يقضي سنواته الأخيرة (١٨٧٤-١٨٧٨) في القدس ليتابع من هناك إقناع الأوساط الحاخامية المتشددة، التي كانت تؤمن بانتظار التدخل الإلهي للخلاص بظهور المسيح، بأفكاره الجديدة الداعية إلى ضرورة العمل البشري والاستيطان في فلسطين للخلاص المؤقت إلى أن يتم الخلاص النهائي مع قدوم المسيح، ومتابعته لتطبيق أفكاره وخططه في الميدان الذي كرّس حياته له.

وبحكم هذا الدور الريادي للحاخام القلعي كان من الطبيعي أن يثير اهتمام الباحثين فيه سواء في البلقان أو في أوربا الغربية والولايات المتحدة، وأن تصدر عنه الكتب والدراسات في لغات مختلفة. فقد أُعتبر القلعي من «أهم رواد الصهيونية الحديثة» في الفصل الخاص به في كتاب «تجدّد ولادة اسرائيل»، الذي صدر بعد أربع سنوات فقط من إعلان استقلال اسرائيل في ١٩٤٨، وضمّ غيره ممن أُعتبروا «رواد

الصهيونية الحديثة»[١]، وخصّه الكاتب اليهودي الصربي ألكسندر شتاينر بدراسة في الصربية عام ١٩٧١ أبرز فيها أفكاره ومبادراته الريادية[٢]، كما اعتبره رايموند غودووتر «نبي الصهيونية الدينية الحديثة» في كتابه الصادر ٢٠٠٩ «رواد الصهيونية الدينية» الذي خصّص له الفصل الأول[٣]. وفي أحدث «قراءة جديدة» لتيودور هرتزل صادرة في ٢٠١٣ يعتبر المؤلف جورج ويز أن الأفكار الرائدة للقلعي كانت وراء ما جاء به لاحقا هرتزل في «الدولة اليهودية»[٤]. أما فيما يتعلّق بالعربية فلدينا دراسة يتيمة بعنوان «تطور الصهيونية (اليهودية) من الفكرة إلى الحركة: من يهودا القلعي إلى ثيودور هرتزل ١٨٣٨-١٩٠٤» لمروان فريد جرار صدرت في ٢٠١٨[٥]، وهي كما وصفها المؤلف «دراسة متواضعة لا تغطي التفصيلات كاملة» وتختلف تماما في مقاربتها ونتائجها عن البحث الحالي.

ومع هنا يسعى هذا البحث أكثر على التركيز على ثلاثة محاور غير معروفة كما يجب في العربية:

١ - البيئة البلقانية التي احتضنت القلعي وأثرت على تفكيره في إيجاد حل للمشكلة اليهودية، وهل من الصحيح كما يقال أن الحركات التحررية في البلقان ضد الحكم العثماني هي التي ألهمته أفكاره الجديدة أم أنّ وضع اليهود السيء في الكيانات القومية

---

(1) Solomon Gaon,"Rabbi Jehuda Hai Akali" in The Rebirth of Israel- A Memorial Tribute to Paul Goodman,edited by Israel Cohen, London (Edward Goldston & Son) 1952, pp.138-147.

(2) Aleksandar Štajner,Jehuda Hai Alkalaj (1789-1878) Jevrejsko Almanah, Beograd (Savez jevrejskih opština) 1970, pp.55-66.

(3) Raymond Goldwater, Pioneers of Religious Zionism, Jerusalem- Mew York (Urim Publications) 2009, pp.13-34.

(4) Georges Yitshak Weisz,Theodore Herzl: A New Reading, Jerusalem (Gefen Publishing) 2013, p.49.

(٥) مروان فريد جرار، «تطور الصهيونية (الدينية) من الفكرة إلى الحركة: من يهودا القلعي إلى ثيودو هرتسل ١٨٣٨-١٩٠٤»، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، المجلد الثامن – العدد الأول، غزة ٢٠١٨.

الجديدة كانت هي الملهمة له.

٢- أفكاره الريادية التي وردت في كتاباته خلال ١٨٣٤-١٨٧٦ ومبادراته لتفعيل تلك المبادرات سواء في أوربا أو في فلسطين.

٣- العلاقة الحميمة التي ربطت بين أسرة القلعي وأسرة هرتزل في زيمون عبر ثلاثة أجيال (سيمون وجاكوب وتيودور هرتزل) التي تؤكد إطلاع تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤)على مؤلفات القلعي وتأثره بها وصولا إلى كتابه «الدولة اليهودية» الذي نشره في فيينا عام ١٨٩٦.

مدخل: الوجود اليهودي الجديد في البلقان

مع حصار إمارة غرناطة من قبل قوات ملكة قشتالة ايزابلا الأولى وملك أراغون فرديناند الثاني وتوقيع أميرها عبد الله الصغير في ٢٥/ ١١/ ١٤٩١ على معاهدة تسليم المدينة التي شملت ضمانة الحرية والمنشآت الدينية، إلا أنه بعد تسلّم المدينة في ٢/ ١/ ١٤٩٢ أصدر الملكان في ٣١/ ٣/ ١٤٩٢ ما عُرف باسم «مرسوم الحمراء» Alhambra Decree الذي نصّ على طرد اليهود من أراضي قشتالة وأراغون. وتتراوح تقديرات اليهود الذين طردوا بموجب هذا المرسوم ما بين ٥٠-١٠٠ ألف، توجّه معظمهم إلى ولايات الدولة العثمانية في بلاد المغرب وبلاد الشام وغرب الأناضول وبلاد البلقان(١).

وفيما يتعلّق بالبلقان فقد جذبت المدن الساحلية (سالونيك وفلورا Vlora وغيرها) والمدن الداخلية (بلغراد وسرايفو وغيرها) عشرات الآلاف من اليهود، حتى أن

---

(1) Jane Gerber, The Jewish of Spain- A History of the Sephardic Experience, New York (The Free Press) 1004, pp.115-120.

وحول وصول هذه الموجة إلى بلاد الشام وتأثيره ما حملته من الأندلس انظر دراستنا: البتّان – تقنية أندلسية جديدة لإنتاج الجوخ في فلسطين خلال القرن السادس عشر، مجلة «دراسات» الجامعة الأردنية، مجلد ٢٢ عدد ١، عمّان ١٩٩٥.

سالونيك بالذات أصبحت تسمى «عاصمة اليهود» باعتبار العدد الذي أصبح يشكل الغالبية والدور الاقتصادي والثقافي والسياسي لليهود فيها على مستوى المنطقة وحتى الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة(١). وفي هذا المدينة بالذات برز أسلاف أسرة القلعي، نسبة إلى مدينة القلعة Alcala في قشتالة(٢)، الذين وصلوا إلى سالونيك في أواخر القرن الخامس عشر. ومن أوائل من برز من هذه الأسرة في سالونيك صموئيل القلعي وابناه أفرهام وموشيه، ثم برز من الأحفاد حاخامات وعلماء دين(٣). وقد انتقل أحد الأحفاد فيما بعد إلى سراييفو، التي أصبحت جاذبة لليهود منذ تأسيسها، حيث ولد هناك يهودا القلعي في ١٧٩٨(٤).

---

(١) تضخّم وجود السفارديم في سالونيك مع الزمن حتى أصبحت في نهاية الحكم العثماني (١٩١٢) تدعى «عاصمة اليهود» أو «اورشليم البلقان»، وتميّزت عن غيرها بحضور فعال لطائفة «الدونمة». للمزيد حول هذه المكانة المميزة لسالونيك انظر:

Marc D. Baer, The Donme: Jewish Converters, Muslims, Revolutionaries and Secular Turks, Stanford (Stanford University Press) 2010.

(٢) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, p.140.

هناك عدّة مدن في اسبانيا اليوم تحت هذا الاسم، ولتمييز هذه المدينة (التي تبعد الآن ٣٥كم شمال شرق مدريد) عن غيرها يشار إليها باسم قلعة هينرز Alcala de Henares .

(3) Štajner, Jehuda Hai , p.57.

(٤) يعود وصول أول موجة من السفارديم إلى سراييفو إلى ١٥٦٥ ونمى دورها بالتدريج حتى نهاية الحكم العثماني، وبعد الاحتلال النمساوي للبوسنة ١٨٧٨ جاءت موجة كبيرة من الاشكناز وأصبحت سراييفو من المراكز المهمة لليهود في يوغسلافيا الملكية (١٩١٨-١٩٤١)، بينما انحدر عددهم بسرعة خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن ضّمّت البوسنة إلى «دولة كرواتيا المستقلة» (١٩٤١-١٩٤٥) التي كانت دولة تابعة للسياسة النازية. بعد الحرب العالمية الثانية هاجر بعض من بقي إلى فلسطين، ومنهم دافيد اليعازار (١٩٢٥-١٩٧٦) الذي شغل رئيس هيئة أركان الجيش الاسرائيلي خلال ١٩٧٢-١٩٧٤، بينما بقي فيها إلى الآن عشرات الأفراد فقط من بينهم سليل أسرة القلعي: سفن القلعي Sven Alkalaj وزير خارجية البوسنة خلال ٢٠٠٧-٢٠١٤. =

ويبدو من الواضح أن القلعي ولد في أسرة متدينة كانت حريصة على إرساله إلى المدرسة الدينية للطائفة، حيث كان هناك تقليد يقضي بأن يُرسل الأولاد المهتمون بدراسة التوراة إلى القدس، وذلك تحت إشراف الحاخام المعروف اليعازار بابو الذي ترك تأثيره المبكر في نفس القلعي(١). ولكن القلعي، الذي هو حصيلة التراث والهوية السفاردية ليهود البلقان، تعرّف في القدس على الطرف الآخر لليهود (الاشكناز) وتأثر هناك بالخلاف المتزايد بين الحركة الحسيدية الصاعدة (المتأثرة بالفلسفة الصوفية اليهودية القبالا) وبين المعارضة الحاخامية التقليدية، مما كان له أثره في تكوين شخصيته عندما أنهى دراسته في الثالثة والعشرين من عمره. وقد عُرض عليه في ذلك الوقت أن يذهب إلى مدينة زيمون(٢) حيث اشتغل أولا معلما في المدرسة اليهودية ثم أصبح في ١٨٥١ حاخام الطائفة اليهودية هناك، وعاش فيها خمسين سنة (١٨٢٥-١٨٧٤) أبرزت شخصيته الجديدة على المستوى اليهودي الأوربي نتيجة لمؤلفاته ونشاطاته التي حفلت بأفكار ومبادرات جديدة بالنسبة للفكر اليهودي التقليدي الذي كان ينتظر عودة المسيح للخلاص.

= للمزيد عن يهود سرايفو انظر:

Harriett Pass Freidenreich, The Jewish of Yugoslavia: A Quest for Community, Skokoie (Varda Books) 1979, pp.11-25; M.Levi-Lj-Masal-K.Bakaršić-A.Isaković,Sefardi u Bosni' Prilog historiji Jevreja na balkanskom poluotiku, Sarajevo (Bosanska biblioteka) 1997.

(1) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkali, p.140.

اليعازار بابو E.Papo (1785-1828) ولد ونشأ في سرايفو ثم انتقل في ١٨٠٧ إلى سيلسترا في بلغاريا ليكون حاخاما للطائفة اليهودية هناك. اشتهر بكتابه Pele Yoetz الذي تضمن نصائح تعلم اليهود كيف يتصرفون في جوانب كثيرة من الحياة.

(٢) بحكم موقعها عند مصب نهر سافا Sava في الدانوب خضعت المدينة للأفار والرومان والبلغار وأصبحت في مطلع القرن التاسع جزءا من امبراطورية شارلمان ثم خضعت للسلاف والمجر، ولذلك عُرف باسمها السلافي زيمون Zemun والمجري Zimony والألماني Semlin.

أ- البيئة البلقانية الجديدة وأثرها على القلعي

مع التوسّع العثماني في قلب البلقان كانت المجر هي الحاجز الجديد أمام الدولة العثمانية، ومن هنا ركّز العثمانيون على فتح قلعة بلغراد الواقعة على مصب نهر سافا Sava في الدانوب، التي كانت تُعرف باسم «مفتاح المجر». وبالفعل، بعد أن تمكّن الجيش العثماني من فتح بلغراد اندفع نحو الشمال ليقضي على الدولة المجرية مع معركة موهاتش ١٥٢٦ ويتابع طريقه إلى حصار فيينا في ١٥٢٩[(١)].

كانت بلغراد عند الفتح العثماني قلعة ضخمة تتألف من قسمين (مرتفع ومنخفض) مع ضاحية سكنية متواضعة (فاروش)، ولكن بعد أقل من قرنين تحوّلت إلى مدينة كبيرة بطابع شرقي مع عدة محلات وضواح تعكس التنوع الاثني والديني، منها ضاحية زيمون التي كانت على الضفة الأخرى من نهر سافا خلال الحكم العثماني الأول (١٥٢١-١٧١١). وفي هذا السياق كشف أول إحصاء عثماني في ١٥٦٠ عن وجود سبعة أُسر يهودية، بينما ارتفع العدد إلى عشرين أسرة في إحصاء ١٥٧٢[(٢)] ولكن بعد تحول النمسا من الدفاع إلى الهجوم تمكّنت القوات من اجتياح المنطقة واحتلال بلغراد، حيث عمدت إلى إجراء تغييرات كبيرة تقلص الطابع الشرقي المسلم. وفي هذا السياق فقد جاءت بلغراد بعض الأسر اليهودية الاشكنازية من المجر، مما رفع عدد الاشكناز إلى ٣٣ أسرة ومثلهم من السفارديم[(٣)].

ولكن بعد تجدّد الحرب بين الدولة العثمانية والامبراطورية النمساوية عادت بلغراد إلى الحكم العثماني بموجب اتفاقية بلغراد ١٧٣٩، التي أصبح بموجبها نهرا سافا

(١) كان لحصار ثم فتح بلغراد في ١٥٢١ صدى كبيرا في العالم الإسلامي، ولذلك حين قامت النمسا باحتلال بلغراد في ١٦٨٨ نجد أن مفتي المدينة المنورة الشيخ محمد المديني يلتحق مع غيره مع حملة الصدر الأعظم مصطفى باشا لاسترداد بلغراد في ١٦٩٠ وينظّم قصيدة طويلة تبيّن ما تعنيه المدينة للمسلمين، وهي ما نأمل أن ننشرها قريبا.

(٢) محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) ١٩٨٧، ص ٣٩-٤٠.

(3) Štajner, Jehuda Hai Alkalaj, p.58.

والدانوب الحدود الفاصلة بين الدولتين. وبذلك انفصلت ضاحية زيمون، التي تقع على الضفة الأخرى لنهر سافا، عن بلغراد وأصبحت ضمن الأراضي النمساوية حتى انهيار الامبراطورية في نهاية ١٩١٨. وبسبب موقعها المهم على نهري سافا والدانوب فقد تطوّرت زيمون بسرعة لتصبح مركزا تجاريا يربط أوربا الوسطى بالبلقان والدولة العثمانية من خلال الطرق البرية والنهرية، وأصبح يطلق عليها «بوابة أوربا الوسطى» بينما بقيت بلغراد تحتفظ بلقبها «بوابة الشرق»[١].

في هذا السياق تشكّلت نواة اليهود في المدينة مع انسحاب القوات النمساوية من بلغراد عام ١٧٣٩ مع غيرهم من المسيحيين خشية من انتقام العثمانيين بعد التغيرات التي طالت المسلمين ومنشآتهم خلال الحكم النمساوي القصير. وهكذا فقد أشارت المعطيات من عام ١٧٤٢ عن وجود ٥-٨ أُسر يهودية فقط، بينما أصدرت الامبراطورة تريزا أمرا في ٢٣/ ١٠/ ١٧٥٣ بالموافقة على سكن ١٩ أسرة يهودية في المدينة. ومع أنه لم يكن هناك غيتو لليهود بالمعنى الشكلي إلا أن الأوامر كانت تطالب اليهود أن يبقوا «منعزلين عن المسيحيين» وممنوعين من السكن في «الشارع الرئيسي» وبعيدين عن الكنائس، على حين أخذت الخرائط في مطلع القرن التاسع عشر تشير إلى «الزقاق اليهودي» الذي كان يضم ١٥ بيتا متلاصقين مع الكنيس الخاص به، أي في الوقت الذي جاء فيه يهودا القلعي إلى زيمون ليستقرّ فيها معلما في المدرسة اليهودية ثم حاخاما للطائفة اليهودية[٢].

في هذه الظروف جاء القلعي ليتعرّف على وضع لليهود لم يعتد عليه في البوسنة العثمانية، مما كان له الأثر في تطوّر أفكاره في منحى جديد.

ففي صربيا المجاورة كانت الحركة القومية الصربية قد بدأت تتفاعل كرد فعل على ممارسات الانكشارية المتمردين على السلطة المركزية في نهاية القرن الثامن عشر

---

(١) محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص ١٩-٢٠.

(2) Čedomir Marinković, Staging Proto-Zionism- Jewish Quarter of Zemun, Serbia: Historical Evidence, Structure, Meaning, Arts (MPDI), Basel 2020, p.26.

وعبّرت عن نفسها بقوة في الانتفاضة الصربية الأولى ١٨٠٤-١٨١٣ للتحرّر من الحكم العثماني بقيادة كاراجورج بتروفيتش K.Petrović. ولكن نظرا لأن القومية الصربية، كغيرها من قوميات البلقان، تدمج ما هو ديني بما هو قومي فقد قامت قوات الانتفاضة عندما سيطرت على بلغراد بممارسة العنف على المسلمين واليهود لكي يعتنقوا الأرثوذكسية، التي هي البوتقة الحاضنة للقومية الصربية. وبسبب ذلك فقد فرّ بعض اليهود من بلغراد وعبروا نهر سافا إلى زيمون ليرووا ما حصل لليهود في بلغراد[١].

ومع تجدّد الانتفاضة الصربية الثانية في ١٨٠١٥ بقيادة ميلوش اوبرنوفيتش M.Obrenović، الذي عبّر عن حكمة أكثر سواء بالتعامل مع المسلمين واليهود في صربيا أو في انتزاع تنازلات من الحكومة العثمانية أوصلت صربيا إلى حكم ذاتي في ١٨٣٠ تحت سيادة اسمية للسلطان العثماني. وقد بدأ أمير صربيا الجديد عهده بإعلان يضمن المساواة لليهود مع الصرب الأرثوذكس، وهو ما جعل القلعي يشعر بالفرق ويقوم بطبع أولى مؤلفاته لدى المطبعة الأميرية في بلغراد. ولكن مع إبعاد الأمير ميلوش عن صربيا في ١٨٣٩ وتولّي أسرة كاراجورجفيتش الحكم انطلقت الحملة المعادية لليهود في صربيا، التي وصلت في ١٨٤٦ إلى حد منع اليهود من الإقامة في المدن الداخلية في صربيا، كما حُرّم اليهود من امتلاك البيوت والأراضي[٢]. ومع أن الأمير ميلوش الحكيم عاد إلى صربيا في ١٨٥٩ وأعلن من جديد «المساواة الكاملة لكل سكان هذه البلاد بغضّ النظر عن الدين والقومية» إلا أنه سرعان ما توفي في ١٨٦٠ لتعود الأمور أسوا مما كانت ضد اليهود، حيث تمّ طرد عشرات الأسر من المدن الداخلية في صربيا وتعرّض بعض الأفراد للقتل أو لاعتناق الأرثوذكسية

(١) للمزيد عما حصل لليهود في بلغراد بعد سيطرة قوات الانتفاضة الصربية عليها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٠٦ انظر: موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص ٧٧-٨٠.

(2) Štajner, Jehuda Alkalaj, p.60.

للخلاص[١]. وقد وصلت هذه الحالة إلى ذروتها في ١٨٧١ حين جاء الدور على يهود مدينة شاباتس Šabac لطردهم من المدينة. ومع أن القلعي سافر آنذاك خصيصا إلى باريس ليقوم مع الحاخام هيرش كاليشر Hirsch Kalischer والحاخام نثان فرايدلاند Nathan Friedland لإثارة موقف أوربي معارض ضد هذا القرار، ومن ذلك احتجاج القنصلية البريطانية في بلغراد، إلا أن كل ذلك لم يثمر عن شيء[٢]. في هذه الحالة السيئة غادر القلعي زيمون إلى القدس في ١٨٧٤، ولم تتغيّر هذه الحالة إلا بتدخّل القوى الكبرى في مؤتمر برلين ١٨٧٨، حيث اعترفت باستقلال صربيا وضمنت حماية الأقليات في القرارات التي صدرت عن المؤتمر[٣]، أي في السنة التي توفي فيها القلعي بالقدس.

ومن ناحية أخرى، كانت حالة اليهود في زيمون حيث يعيش القلعي أسوأ باعتبارها كانت تنظمها القوانين والأوامر الامبراطورية النمساوية التي كانت تعبّر عن روح معاداة اليهود. فقد كانت السلطات النمساوية تتعامل بشدة مع اليهود باعتبارهم يمثلون «الشرّ الذي لا يمكن استئصاله ولكن يمكن وضع حدّ لانتشاره»، ولذلك وضعت حدّا لتنقل اليهود من مدينة إلى أخرى حتى لزيارة الأقارب، وكان السكن في أية مدينة يحتاج إلى مرسوم إمبراطوري. فبعد انسحاب القوات النمساوية من بلغراد إلى ضاحية زيمون في ١٧٣٩، التي أضحت ضمن الحدود النمساوية الجديدة، جاءت معهم واستقرت في زيمون ٥-٨ أُسر يهودية، بينما احتاج الأمر إلى مرسوم من

---

(1) Ibid.

(2) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, p.138.

(٣) في معاهدة برلين، أو «المعاهدة الموقعة بين النمسا - المجر و فرنسا وألمانيا وبريطانيا العظمى وايرلندا وإيطاليا وروسيا والامبراطورية العثمانية لحل القضايا في الشرق»، الموقعة في ١٣/ ٧/ ١٨٧٨ وردت لأول مرة بنود لحماية الجماعات الدينية (المسلمون واليهود) ضمن حدود الدول المستقلة الجديدة، وهي ما أصبحت نواة «نظام الأقليات» الذي تبنّته لاحقا عصبة الأمم في ١٩١٩:

Thomas Burergenthal,International Human Rights in a Nutshell, Eagan (West Publishing Company) 2002, p.7.

الإمبراطورة تريزا في ٢٣/ ١٠/ ١٧٥٣ للسماح بسكن ١٩ أسرة يهودية فقط في المدينة[1].

ومع أن هذه الحالة كانت عامة في الامبراطورية فإن التشديد على اليهود في زيمون وجوارها كانت أكثر بسبب كونها ضمن المقاطعة العسكرية التي أنشأت على طول الحدود مع الدولة العثمانية في ١٧٤٦، حيث حظيت زيمون فقط في ١٧٥١ بمجلس بلدي يتمتع بسلطة سياسية وقانونية وقضائية من الدرجة الأولى، دون أن يعني هذا إلغاء التمييز ضد اليهود في المدينة. ولذلك كان من الطبيعي في هذه الأحوال أن يؤيد اليهود الثورة المجرية في ١٨٤٨ ضد الحكم الامبراطوري في فيينا على أمل أن يؤدي استقلال المجر إلى حالة أفضل لهم. ولكن بعد القضاء على الثورة في ١٨٤٩ عوقب اليهود الذين أيدووا هذه الثورة في زيمون، وكان منهم سيمون هرتزل S.Hercl جد تيودور هرتزل، فأصدرت القيادة العسكرية العليا في ١٨٤٩ أمرا يقضي بتحريم بقاء اليهود ضمن المقاطعة العسكرية بسبب تأييدهم للثورة المجرية[2].

ولكن مع تصاعد المعارضة المجرية والروح الليبرالية الجديدة في أوربا صدر في ١٨٦٧ الدستور الجديد الذي أرسى الأساس لامبراطورية ثنائية (النمسا والمجر) تقوم على نظام حكم سياسي جديد يضمن الحريات الشخصية والمساواة بين جميع المواطنين بغض النظر عن دينهم. وبالاستناد إلى ذلك تم في ١٧٦٨ الاعتراف في المقاطعة العسكرية بمساواة اليهود مع جميع المواطنين، على حين أنه في ١٨٧١ تمّ إلغاء نظام المقاطعة العسكرية مع ما فيها من قوانين خاصة ضد اليهود وأصبحت زيمون

---

(1) Marinković, Staging Proto-Zionism, p.27.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦.

وقد ورد في محضر مجلس مدينة زيمون رقم ٥٥٢ لعام ١٨٤٩ أن سيمون هرتزل تعرّض للمساءلة بسبب تأييده لـ«الثورة المجرية» وحكم عليه بالسجن عشرة أيام، ولكن أُطلق سراحه لاحقا مع مطالبة وضمانة الجماعة اليهودية في زيمون بسبب «الأعياد اليهودية»:

Štajner, Jehuda Hai Alkalaj, p.59.

مدينة حرة كغيرها[1]، أي في السنوات الأخيرة لحياة القلعي في زيمون التي قاربت الخمسين (١٨٢٥-١٨٧٤).

وبعبارة أخرى، يمكن القول إن هذه الحياة المديدة للقلعي في زيمون كانت في فترة صعبة من اضطهاد اليهود سواء في صربيا المجاورة التي كانت زيمون وثيقة الصلة بها أو في النمسا، وهي ما جعلت القلعي يفكر مليا في جدوى انتظار التدخل الإلهي للخلاص ويطرح أفكاره الجديدة للخلاص،التي جاءت انعكاسا لتلك السنوات الصعبة التي عاشها اليهود في النمسا وصربيا خلال إقامته الطويلة في زيمون التي امتدت نصف قرن. ومن المفارقة هنا أن القلعي امتدّ به العمر ليشهد آخر إلغاء آخر تمييز ضد اليهود في زيمون في ١٨٧١، أي بعد إعلان المساواة الكاملة لليهود في أرجاء الإمبراطورية الثنائية الجديدة (النمسا والمجر) التي أطلقت تيار الاندماج بين اليهود باعتباره هو الخلاص لهم.

ولكن لا يمكن أن نغفل هنا أن البيئة البلقانية، على ما كان فيها من اضطهاد لليهود سواء في الإمارات الدانوبية التي كانت تتمتع بحكم ذاتي ضمن الدولة العثمانية مثل صربيا ومولدوفيا وفلاشيا (الأفلاق) أو في النمسا والمجر، قد نبّهت القلعي إلى تطور مهم سيأخذه بعين الاعتبار في أفكاره الجديدة التي سيطرحها في مؤلفاته: الخلاص التدريجي على نمط ما اتبعته الحركة القومية الجديدة في البلقان، أي الاكتفاء بالحكم الذاتي لتثبيت الكيانية قبل الانتقال إلى العمل السياسي والدبلوماسي والمسلح (إن لزم الأمر) لانتزاع الاستقلال الكامل.

ب- الأفكار الريادية ليهودا القلعي ونشاطه لتفعيلها

ولد القلعي ونشأ في سرايفو، حيث كان اليهود السفارديم قد حافظوا على تراثهم الديني وثقافتهم التي حملوها معهم من الأندلس، ومن ذلك الحديث والتأليف

(1) Štajner, Jehuda Hai Alkalai, p.59.

باللادينو Ladino التي هي مشتقة من الاسبانية القديمة ومهجّنة بمفردات عبرية وعربية وتركية، ومنتشرة في المناطق التي استقر فيها يهود الأندلس من بريطانيا في الشمال إلى بلاد الشام مرورا بفرنسا وإيطاليا وشمال أفريقيا. ولكن مع دراسته في القدس يبدو أن القلعي تعلّم هناك العبرية القديمة واهتم بها أكثر بعد وصوله إلى زيمون في ١٨٢٥ وعمله في المدرسة الدينية الملحقة بالكنيس. وبحكم أفكاره الجديدة، التي ستتعرض لها هنا، لا يبدو من المستغرب أن القلعي نشر أوّل كتاب له فقط في اللادينو عام ١٨٣٤ ليتحول بعدها إلى الكتابة في اللغة العبرية.

ويمكن التمييز هنا بين السنوات العشر الأولى (١٨٢٥-١٨٣٤) التي قضاها القلعي في زيمون معلما ومتأملا في حالة اليهود في البيئة البلقانية المحيطة به، والسنوات اللاحقة (١٨٣٤-١٨٧٤) التي أصبح فيها حاخاما وتميّزت بالغزارة في التأليف والنشر. وقد توصّل الباحثون إلى حصر ٥٣ كتابا ومقالا ومنشورا للقلعي نشرها ابتداء من بلغراد المجاورة وحتى أمستردام، حُظيت بعضها بالترجمة إلى الانكليزية ونُشرت في أكثر من طبعة لما حملت أفكاره من جدّة صدمت التيار الديني التقليدي ووجدت ترحيبا من الشخصيات اليهودية في أوربا الغربية التي كانت قد وجدت «الخلاص» في الاندماج والتمتع بالمساواة في المجتمعات التي يعيشون فيها. وفي هذا المجال المحدود سنعرّف بأهم الأفكار الجديدة للقلعي كما وردت في أهم مؤلفاته حسب تسلسلها الزمني:

١. اسمعي يا اسرائيل، بلغراد ١٨٣٤

كتب القلعي هذا الكتاب الأول له في اللادينو ونشره في المطبعة الأميرية في بلغراد، خلال سنوات حكم الأمير ميلوش التي كانت تعتبر ذهبية بالنسبة لليهود، ولذلك وردت فيها فكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين، ولكن بشكل عابر ودون التوسع في مفهومها.

٢. سُبل الشعب (كتاب تعليم اللغة العبرية)، بلغراد ١٨٣٩

ضمن أفكاره الجديدة التي شملت إحياء اللغة العبرية واستخدامها كلغة للحديث اليومي والتأليف، أصدر القلعي هذا الكتاب في بلغراد أيضا ليكون مرجعا لتعلّم اللغة العبرية، بينما جاءت مقدمته في اللادينو ليشرح فيها أهمية تعلم اللغة لتكون لغة الشعب اليهودي وطرح فيها بشكل موجز فكرته الجديدة حول مفهومه للخلاص اليهودي بالاستناد إلى تفسيره لبعض ما ورد في التوراة. وعلى عكس مفهوم الخلاص التقليدي الذي كان يرتبط بالتدخل الإلهي وظهور المسيح يرى القلعي هنا أن الخلاص يمكن أن يقوم به البشر (اليهود) بأنفسهم وذلك بمساعدة بعضهم البعض للعودة إلى الأرض المقدسة تمهيدا للخلاص النهائي الموعود.

٣. السلام لأورشليم، ١٨٤٠

في هذا المقال أوضح القلعي الحالة الصعبة لليهود في البلدان التي يعيشون فيها وأوضح فيه فكرته السابقة أكثر عن الخلاص التمهيدي الذي يمكن أن يقوم اليهود بعودتهم إلى الأرض المقدسة إلى أن يأتي الخلاص النهائي من السماء، وطرح فيه لأول مرة بشكل واضح فكرة شراء أراض في فلسطين وتأسيس مستوطنات يهودية هناك.

٤. منحة يهودا، فيينا ١٨٤٣

في هذا الكتيّب المهم الذي صدر في فيينا بعد حادثة أو محنة يهود دمشق في ١٨٤٠، التي أثرت كثيرا على القلعي، يعتبر القلعي أن التوبة Teshuvah التي دعت التوراة اليهود إليها إنما تعني «العودة إلى صهيون» كشرط مسبق لنهاية النفي بين الشعوب. وهنا بلور القلعي بشكل أوضح مفهومه عن الاستيطان اليهودي في فلسطين، مقترحا بأن يبدأ مع اليهود الموجودين في الدولة العثمانية لأنه في هذه الحالة لن تكون هناك مشكلة من قبل السلطات العثمانية طالما أنهم تابعين للسلطان ويدفعون الضرائب المتوجّبة عليهم.

٥. دعوة (إلى الشعب اليهودي)، ١٨٤٨

نشر القلعي هذا المقال ليناقش فيه معارضيه سواء من اليهود المتشددين الذين كانوا يعارضون فهمه الجديد للخلاص، أي للتعجيل بتخليص اليهود من الاضطهاد وعودتهم إلى الأرض المقدسة تمهيدا لظهور المسيح، أو من اليهود الإصلاحيين في ألمانيا الذين أصبحوا يميلون إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها.

٦. من ثقب الإبرة، ١٨٤٩

في هذا المقال يعود القلعي مرة أخرى إلى الحركة الإصلاحية في ألمانيا التي اختلف معها وتجدر الإشارة إلى أن دعاة الحركة المعاصرين للقلعي مثل دافيد فريدلندر (D.Friedlander 1750-1834) وابراهام جايكر (A.Geiger 1810-1874) وغيرهما ذهبا إلى حدّ التخلي عن فكرة «شعب الله المختار» باعتبارها تعمّق من عزلة اليهود والدعوة إلى أن يكون الاصلاح منسجما مع التقاليد التلمودية المتوارثة التي تؤكد ضرورة رعاية المصالح تبعا لتغير الأزمان[1].

٧. المفسّر الصالح، لندن ١٨٥٢

أعاد القلعي هنا ما نشره في مقاله «دعوة» (إلى الشعب اليهودي) ولكن مع ترجمة انكليزية موضحة أكثر للنص الموجود في العبرية. فنظرا لأن الطبعة الجدية موجهة لليهود في بريطانيا وغيرها حرص القلعي على توضيح فكرته الرئيسية عن الهدف الذي يرمي إليه: «إشراك كل الشعب لأجل العودة إلى الأرض المقدسة..إن هذه العودة وبناء الهيكل لا ترتبط بظهور المسيح بل يجب أن تحدث قبل ظهوره... يجب ألا نحاول العودة بقوة السلاح بل بواسطة المساعدة من الدول العادلة والكريمة التي

---

(١) للمزيد عن الحركة الإصلاحية في ألمانيا وانتشارها انظر:

Dana Evan Kaplan, The New Reform Judism: Challenges and Reflections, Jewish Publication Society 2017.

حمتنا حتى الآن... إنّ الاتحاد قوة وإن التحرك يجب أن يبدأ معنا».

٨. خيمة السلام، ١٨٥٧

خصّص القلعي هذا المقال لتوضيح فكرته المعارضة لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، بينما كان يرى الخلاص لليهود بالعودة إلى فلسطين واستيطانها.

٩. المصير الإلهي، فيينا ١٨٥٧

يعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفات القلعي، ولذلك ترجم ونُشر أيضا في أمستردام، وفيها يعيد ترتيب أفكاره السابقة ويشرح خطته لتحقيق عودة اليهود إلى فلسطين واستيطانها لإحياء «أرض اسرائيل».

١٠. بنت صهيون، ١٨٦٩

كان القلعي من الرواد الداعين إلى تأسيس منظمة يهودية عالمية تعنى بتمكين اليهود وحثهم على الاستيطان في الأرض المقدسة، ومن المشاركين في تأسيس «الأليانس الاسرائيلي» في ١٨٦٠ في باريس. وفي هذا العمل الجديد يرى القلعي أن هذه المنظمة يمكن أن تتسع لكل يهود العالم ما ارثوذكس وإصلاحيين، وأن تنهي بواسطة «الكلمة المكتوبة والمسموعة» الانقسامات حتى «يصبح الشعب اليهودي واحدا». وفي هذا العمل طرح تأسيس شركة تشرف على تجميع اليهود وتسهيل ذهابهم إلى الأرض المقدسة للاستيطان هناك، مؤكدا مرة أخرى على أهمية جمع العشور من اليهود في العالم لدعم الاستيطان بشراء الأراضي وغرس الكروم وبناء البيوت وتطوير الحرف وافتتاح المحلات التجارية(١).

---

(١) للمزيد حول هذه المؤلفات وما فيها من أفكار جديدة انظر:

Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, pp.140-141; Štajner,Jehuda Hai Alkalai, pp.61-63; Goldwarwr, Pioneers, pp.14-23; Weisz, Theodore Herzl: A New Reading, pp.47-51.

وإلى جانب هذه المؤلفات قام القلعي بجولات عديدة في أوربا الغربية للقاء الشخصيات اليهودية التي أخذت تظهر في بلدانها وتستجيب لأفكاره مثل اللورد مونتفيوري (Montifiore 1784-1885) في بريطانيا وأدولف كريميه (A.Cremieux 1796-1880) وشارل نتر (Ch.Netter 1826-1882) في فرنسا وآل روتشيلد، حيث لم يكتف القلعي بالطرح النظري بل أطلق بعض الاقتراحات لتحقيق تلك الأفكار، التي تم تنفيذ بعضها في حياتها وبعضها بعد وفاته.

ففي ١٨٥٢ زار لندن وأسّس هناك جمعية «سلام أورشليم» لتشجيع الاستيطان اليهودي في الأرض المقدسة، وقابل هناك العديد من الشخصيات اليهودية وغير اليهودية المعنية بعودة اليهود إلى فلسطين. ومن المرجح أنه التقى هناك آرثر هولينغزوورث A.Hollingsworth الذي نشر في تلك السنة كتيّبه الذي يدعو فيه إلى تأسيس دولة لليهود في فلسطين يمكن أن تكون مفيدة لبريطانيا العظمى لحماية الطريق البري إلى الهند(١).

ومن ذلك كانت دعوته إلى تأسيس منظمة قومية لليهود تكون قيادتها من أهم الشخصيات اليهودية في أوربا، وهو ما تحقق مع تأسيس المنظمة الصهيونية ZO في ١٨٩٧ (التي تحوّلت عام ١٩٦٠ إلى المنظمة الصهيونية العالمية WZO)، وأكّد على أهمية العمل الدبلوماسي والحصول على دعم الحكام الأوربيين الذي يمكن بواسطته أن يوافق السلطان العثماني على حرية هجرة اليهود إلى فلسطين وعلى شراء أو استئجار الأراضي هناك لإقامة كيان يهودي يتمتع بالحكم الذاتي على نمط الإمارات الدانوبية (صربيا ومولدافيا وولاشيا)، كما طرح فكرة تأسيس صندوق لتمويل الاستيطان اليهودي في فلسطين يقوم على جمع ضريبة محددة من اليهود بالإضافة إلى التبرعات، وأكد على أن يكون العمل الزراعي أساس الاستيطان في فلسطين(٢).

---

(1) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, p.142.

(2) Štajner, Jehuda Hai Alkalai, p.62.

وفي هذا السياق فقد شارك القلعي خلال زيارته إلى باريس في ١٨٦٠ في تأسيس «التحالف الاسرائيلي العالمي» الذي اشتهر أكثر باسم «الأليانس الاسرائيلي» الذي بُرمج لمساعدة اليهود لنيل حقوقهم المدنية وتوفير الحماية لمن يحتاج إليها، والتقدّم العلمي والثقافي لليهود، وتطوير الزراعة والمهن لديهم، وتقديم المساعدات الاجتماعية، وشراء الأراضي لأجل الاستيطان اليهودي في فلسطين. ومع أن «الأليانس الاسرائيلي» تمكّن من افتتاح العديد من المدارس في البلقان (مناستير وسكوبيه الخ) وأرجاء الدولة العثمانية، إلا أن القلعي أخذ عليه أنه لم يقم بما فيه الكفاية لشراء الأراضي في فلسطين وتمكين اليهود من الاستيطان فيها، وإنما اكتفى بتأسيس المدرسة الزراعية «مكفيه يسرائيل» (أمل اسرائيل) في ١٨٧٠ بجوار يافا. ولكن بعد انتقاله إلى القدس في ١٨٧٤ ونجاحه في استقطاب متبرعين لشراء مساحات كبيرة من الأراضي في جوار يافا، نشر رسالة في جريدة «حفتسليت» Habazeleth بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٨٧٥ يعبر فيه عن سروره باستضافته في هذا المكان، الذي ستنشأ فيه بعد عدة شهور من وفاته في ١٨٧٨ مستوطنة «بتاح تكفا» (بوابة الأمل) التي أصبحت «أم المستوطنات»، حيث اعتبر أن هذا التكريم إشارة إلى مباركة إلهية له وأن «تنبّؤه أصبح حقيقة»[1].

ج. تأثير القلعي على تيودو هرتزل

في العقود الأخيرة ازداد الاهتمام بشخصية يهودا القلعي في إطار الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الصهيونية السياسية، وبالتحديد في مدى تأثيره على تيودور هرتزل باعتباره مؤسّس الصهيونية السياسية، حيث لم يعد الأمر مثار سؤال أو مثار شك في ضوء العلاقة الوثيقة التي ربطت بين الأسرتين (أسرة القلعي وأسرة هرتزل)، ومقارنة أفكار القلعي بما انتهى إليه هرتزل في كتابه «الدولة اليهودية» (١٨٩٦) التي

---

(1) Goldwater,Pioneers, pp.24, 32.

تؤشر لاطلاع هرتزل عليها ضمن هذه العلاقة بين الأسرة التي امتدت إلى ثلاثة أجيال.

وفيما يتعلق بأسرة هرتزل الاشكنازية الألمانية تفيد المعطيات الموجودة أنها كانت تقيم في بلغراد خلال الحكم النمساوي للمدينة (١٧١٧-١٧٣٩) وانتقلت إلى ضاحية زيمون مع القوات النمساوية بعد أن أصبحت ضمن الحدود النمساوية بموجب صلح ١٧٣٩ مع الدولة العثمانية. وقد ورد في إحصاء لليهود في المدينة عام ١٧٥٦ اسم كوهين هرتزل K.Hercel الذي جاء من بلغراد وأصبح له بيته الخاص في زيمون. وبعد عشرين سنة (١٧٨٢) يرد اسم الجد الأعلى فيكتور هرتزل في محاضر مجلس المدينة، حيث وردت شكوى من الزجّاج لورنس تشبيتش L.Čepić بأن الزجّاج فكتور هرتزل أضرّ بعمله، ولذلك قرر المجلس منع هرتزل من العمل بهذه المهنة في المدينة[1]، وهو ما كان يعكس التمييز ضد اليهود في ذلك الوقت.

أما الجد المباشر لتيودو هرتزل سيمون هرتزل (١٧٨٤-١٨٧٩)، الذي كان يعمل أيضا في صناعة الزجاج، فقد كان يمثل الجيل الأول في أسرة هرتزل الذي شبك علاقة وثيقة بيهودا القلعي وتأثر به. وتفيد المعطيات الموجودة أن القلعي هو الذي عقد قران سيمون على زوجته، وكان يحضر دروسه في المدرسة، كما أن الصلة الجديدة بين الأسرتين التي استمرت أربعين سنة كانت تضمن بأن يحصل سيمون على نسخة من كل كتاب يصدره القلعي. وبحكم تأثره المفترض بأفكار القلعي وتبرّمه من التمييز المتبّع ضد اليهود لم يكن من المستغرب أن يعبّر عن تأييده للثورة المجرية في ١٨٤٨ وأن يحاكم في ١٨٤٩ ويحكُم عليه بالسجن عشرة أيام[2].

في هذه الظروف ولد عام ١٨٣١ في زيمون الابن يعقوب أو ياكوف Jakov، أي والد تيودور هرتزل، الذي سافر بعد بلوغه الخامسة عشر إلى بودابست على أمل أن

(1) Štajner, Jehuda Hai Alkalaj, p.58.

(2) Ibid., p.60.

يحصّل فرصة عمل ومعيشة أفضل. ومع استقراره وزواجه وإنجابه لابنه تيودور، حافظ على علاقته مع الأسرة في زيمون بسفره من حين إلى آخر وحتى بتبرعه في إحدى المناسبات للكنيس في المدينة. ومن ناحية أخرى كان الجد سيمون يزور من حين إلى آخر بودابست ويحدّث الابن والحفيد تيودور عن الكتاب الأخير للقلعي «المصير الإلهي» الذي صدر في فيينا ١٨٥٧ وتناول فيه بالتفصيل خطته عن «عودة اليهود إلى الأرض المقدسة واستعادة مجد اورشليم»(١).

ونظرا لأن الجد سيمون توفي في ١٨٧٩، أي عندما كان تيودور في التاسعة عشر من عمره طالبا في كلية الحقوق، فقد كان الحفيد في عمر يستوعب فيه مثل هذه الأفكار. صحيح أن تيودور هرتزل كان في شبابه آنذاك من دعاة الاندماج لليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، إلا أنه بعد معايشته لمعاداة اليهود في فرنسا خلال تغطيته لمحاكمة الضابط اليهودي الفرنسي دريفوس الذي اعتقل عام ١٨٩٤ بتهمة تسريب وثائق إلى ألمانيا العدوة، ارتدّ عن إيمانه بالاندماج ووجد في مؤلفات القلعي وأحاديث جدّه سيمون عن كتابه الأخير «المصير الإلهي»، الذي طرح فيه خطته عن «عودة اليهود إلى الأرض المقدسة واستعادة مجد اورشليم» وأفكاره عن تأسيس جمعية تمثل يهود العالم وأهمية مفاوضة السلطان العثماني لأجل شراء الأراضي في فلسطين، منبعا لتفكيره الجديد الذي أعطاه إطارا سياسيا بحتا ليؤسس بذلك للصهيونية السياسية التي عبّرت عن نفسها في مؤتمر بال ١٨٩٧ وتأسيس المنظمة الصهيونية ZO.

وفي حدود ما نعلم فإن الحاخام د. سولومون غاون (وهو من سرايفو أيضا) كان أوّل من أشار إلى ذلك في دراسته عن القلعي التي نُشرت عام ١٩٥٢ وانتهى فيها إلى ما يلي: «يمكن أن نقبل أو نرفض القول بأن الحاخام يهودا القلعي كان له تأثير حاسم على تطور الفكر السياسي اللاحق من خلال سيمون هرتزل، جدّ تيودور هرتزل، ولكن لا يوجد شك في أنّ ما نشره القلعي حول تحرر اليهود والدولة اليهودية إنما مهّد

(1) Marinković, Staging Proto-Zionism, p.27.

الطريق لظهور تيودور هرتزل في التاريخ اليهودي»[١]. وقد تعرّض إلى ذلك بعد حوالي ربع قرن الباحث اليهودي الصربي ألكسندر شتاينر في دراسته عن يهودا القلعي التي نشرت في بلغراد عام ١٩٧١، حيث بيّن الصلة الوثيقة بين يهودا القلعي والجدّ سيمون هرتزل، وعن أحاديث الجدّ للحفيد عن أفكار القلعي ليكتفي بطرح السؤال التالي: «ألا يعني هذا منطقيّة الافتراض بأنّ مسيرة القلعي قد أثّرت كثيرا في د.تيودور هرتزل؟»[٢]. وبعد نصف قرن تقريبا (٢٠١٣) توقف الباحث جورج ويز في كتابه «تيودور هرتزل: قراءة جديدة» إلى العلاقة الممتدّة بين الأسرتين (القلعي وهرتزل) ليقرّر أن «أفكار وأنشطة القلعي أثّرت في أعضاء الجماعة اليهودية (في زيمون) وخاصة في الجدّ سيمون هرتزل وفي الحفيد تيودو هرتزل»، وأن أفكار القلعي كانت وراء ما جاء به تيودو هرتزل في «الدولة اليهودية» مع أن هرتزل لم يشر إليه ولا إلى والده ولا جدّه على الرغم من تأثيرهم عليه في توجّهه الجديد: الصهيونية السياسية[٣].

ومع هذه الملاحظات العامة نود أن نتوقف هنا عند بعض جوانب التأثير الواضحة، كما تبدو لنا، إذا قارنا بين أفكار القلعي الواردة في مؤلفاته التي أشرنا إليه وما تبلور لدى هرتزل سواء في كتابه «الدولة اليهودية» ١٨٩٦ أو في يومياته التي نشرت عام ١٩٦٠:

١. إن الفكرة الرئيسية عند القلعي التي ترى عدم انتظار التدخل الإلهي لخلاص اليهود من الاضطهاد الواقع عليهم في أوربا بل لا بدّ لهم من البدء بتحرّك فوري بأنفسهم لأنه «لا خلاص بدون رغبة بالخلاص» المتمثل بالعودة إلى «أرض اسرائيل»،

---

(1) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, p.147.

(2) Štajner, Jehuda Hai Alkalaj, p.64.

(3) Weisz, Theodore Herzl: A New Reading , pp.47-51.

يشير ويز هنا إلى الدور الفكري والعاطفي للجدّ والدعم المعنوي والمادي للوالد بعد تحوّل هرتزل إلى الصهيونية، ومع ذلك لم يذكر جدّه بالاسم إلا مرة واحدة في يومياته عندما وصل إلى محطة صوفيا للقطار في طريقه إلى استانبول عام ١٨٩٦، حيث فوجيء بجمع يهودي جاء لتحيته ولمح بينهم عجوزا ذكّره بجده!

وهو ما أصبح أساس الصهيونية السياسية لدى تيودور هرتزل مع العنوان الجديد لكتابه «الدولة اليهودية» حيث يقول إنّ «اليهود الذين يريدون دولة ستكون لهم دولة يستحقون أن تكون لهم»، مع الفارق في أنها ستكون دولة دستور وقوانين مدنية حيث «نُبقي الكهنة في المعابد.. كما نُبقي جيشنا المحترف في الثكنات»[1].

٢. بناء على هذه الفكرة الرئيسية، التي جوبهت بمعارضة عنيفة من قبل الحاخامات المؤمنين بانتظار التدخل الإلهي، بنى القلعي فكرته التنفيذية لتحقيقها: «لا خلاص بدون الاستيطان في الأرض المقدسة». ولم يكتف بالدعوة لذلك بل أسّس خلال زيارته إلى لندن عام ١٨٥٢ جمعية «سلام اورشليم» للاستيطان في الأرض المقدسة. صحيح أن الجمعية انحلّت لاحقا و«لكن لا يوجد شك في أن الفكرة التي طرحها بحماس تركت تأثيرها هناك واستمر ذلك التأثير إلى أن جاء هرتزل في أول زيارة له إلى لندن عام ١٨٩٥»، حيث خاطب جموع اليهود بحضور الحاخام موسى غستر M.Gaster[2] في «نادي المكّابيين»عن أفكاره الجديدة، وعاد من هناك ليعدّل ويصيغ بشكل نهائي كتابه «الدولة اليهودية» بعد أن كان عنوان مسوّدته «خطاب إلى روتشيلد».

٣. لأجل تحقيق هذه الفكرة الرئيسية على المستوى الأول (اليهودي) دعا القلعي إلى تأسيس منظمة عالمية لليهود وشركة company تعملان على تمكين اليهود في

---

(1) Thedor Herzl, Jewish State, Digireads.com 2011, pp.35,71.

(2) Gaon, Rabbi Jehuda Hai Alkalai, p.142.

موسى غستر (١٨٥٦-١٩٣٩) ولد في بوخارست في أسرة يهودية قادمة من النمسا ودرس أولا الأدب في ١٨٧٨ ثم نال شهادة الحاخامية في ١٨٨١ وانتقل إلى لندن وتجنّس عام ١٨٩٥ وأصبح من الشخصيات المؤيدة للصهيونية، حتى أنه انتخب نائبا لرئيس المؤتمر الصهيوني الأول في ١٨٩٧، ولولا أنه كان حاخاما لكان خلف هرتزل في رئاسة المؤتمر اليهودي بعد وفاته في ١٩٠٤. ويذكر له دوره في الإعداد لتصريح بلفور حيث أن المسودة الأولى للتصريح كُتبت في بيته بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩١٧ في حضور حاييم وايزمن وناحوم سوكولوف ومارك سايكس وهربرت صموئيل.

المجتمعات التي يعيشون فيها وتشجعهم على الذهاب إلى الأرض المقدسة للاستيطان هناك، وهو ما خصّص له هرتزل الفصل الثالث من كتابه «الدولة اليهودية»(١) وتحقّق مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ وتأسيس «المنظمة الصهيونية» ZO والشركات التي عملت على تشجيع وتنفيذ الاستيطان الصهيوني في فلسطين.

٤. على المستوى الثاني (العالم) ركّز القلعي كثيرا على أهمية العلاقات الدولية ودور الدول المؤثرة (بريطانيا وغيرها) في مساعدة اليهود للعودة إلى الأرض المقدسة إلى حد القول «إن اليهود لن يُسمح لهم بإنشاء مدن جديدة ومستوطنات في أرض اسرائيل دون موافقة دول العالم»، وهو ما يبدو واضحا لدى هرتزل في «الدولة اليهودية» ويومياته حيث سعى أولا إلى تأمين دعم القيصر الألماني بحكم علاقته الوثيقة بالسلطان العثماني وزيارته المبرمجة إلى القدس في ١٨٩٨.

٥. مع متابعة القلعي لتجربة الإمارات الدانوبية (صربيا ومولدافيا وولاشيا) التي استقلت بالتدريج عن الحكم العثماني (من حكم ذاتي متواضع إلى استقلال كامل) ركّز في مؤلفاته على أن يكون الاستيطان اليهودي بالتدريج في فلسطين بعلم ودعم السلطان العثماني سواء باستئجار أو شراء الأراضي هناك للاستيطان. وقد بقي القلعي مؤمنا بهذا الأسلوب أكثر بعد استقراره في القدس حيث كتب في ١٨٧٦ يقول إن السلطان (عبد الحميد الثاني) لن يتجاهلهم لأنه «يحب اللطف والعدل والقانون» ولأنه «يعرف أن اليهود خدم أوفياء لمملكته، وهو في حبّه ورحمته سيعاملنا بها ينسجم مع رحمته الواسعة»(٢)، وهو ما أمل به هرتزل أيضا في «الدولة اليهودية»(٣) وركّز عليه

---

(1) Herzl, The Jewish State, pp.47-60.

(2) Goldwater, Pioneers, pp.24, 32.

(3) Herzl,The Jewish State, p.46.

في العنوان الفرعي هنا «فلسطين أو الأرجنتين» يقارن هرتزل بين مزايا كل خيار بالنسبة للدولة اليهودية المقترحة، ولكنه يميل إلى جانب فلسطين لسببين: الجانب التاريخي والأمل باتفاق مع السلطان العثماني: =

هرتزل خلال سنوات (١٨٩٦-١٩٠٢) لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بمشروعه الصهيوني الجديد لاستيطان اليهود في فلسطين[١].

=«إذا أعطانا جلالة السلطان فلسطين يمكن لنا في المقابل أن ننظّم كلّ مالية تركيا» التي كانت تعاني وقتها من الإفلاس.

(١) للمزيد حول محاولات هرتزل مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وحاشيته خلال تلك السنوات للحصول على وعد أو قبول بمشروعه لدينا تفاصيل كثيرة في يومياته:

Theodor Herzl, The Complete Diaries,ed. Raphael Palai, trans. Harry Zohn, New York-London (Herzl Ptress & Thomas Yoseloff) 1960, pp.395-401, 1218-1219, 1378.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ١٢٣ـ١٦٥

إسهامات إبراهيم فوزي باشا فى تدوين تاريخ مصر فى منابع النيل فى النصف الثانى من القرن ١٩

أحمد عبد الدايم محمد حسين[١]

ملخص

شكلت كتابات اللواء إبراهيم فوزى باشا فتحًا جديدًا فى مجال الكتابة عن الإمبراطورية المصرية فى افريقيا. حيث أرخ لمصر فى كتابه «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، حضورًا طاغيا فى منابع النيل الاستوائية. فشكلت كتاباته تراكمًا معرفيًا مهمًا، ساعد مؤرخينا فى فك شفرات الوثائق التى أنتجتها السلطات المصرية التى حكمت تلك المناطق. وفى هذا السياق تم تقسيم الورقة إلى خمسة محاور رئيسية: الأول – التعريف بإبراهيم فوزى وظروف إصدار كتابه. الثاني، منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه. الثالث – إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية. الرابع، إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان. الخامس، قضايا النيل من منظور إبراهيم فوزى. وأوضحت الدراسة فى ختامها بأن إبراهيم فوزى قدم اسهامات مهمة فى مجال الكتابة التاريخية ونمطا جديدا من أنماط كتابتها، ورصدت تاريخًا إمبراطوريا فى حوض النيل. فبين لنا بأن الهوية الوطنية المصرية لم تتشكل على أيدى الحكام ورؤساء الحكومات والقادة، بل تشكلت على

---

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة.

أيدى هؤلاء الفاعلين الحقيقيين من المصريين من الجنود والتجار والمدرسين والرجال والنساء والعمال وغيرهم، ممن صنعوا بعرقهم وكفاحهم تاريخ مصر الحقيقى.

Abstract

The writings of Major General Ibrahim Fawzi Pasha formed a new field in the process of writing about the Egyptian Empire in Africa. Where he chronicled for Egypt in his book "Sudan Between Hands of Gordon and Kitchener", a great presence in the headwaters of the tropical Nile. His Writings constituted an important Accumulation of knowledge, which helped our historians decipher the documents produced by the Egyptian Authorities who ruled those Areas. In this context, The Paper was divided into five main Axes: First Axis - The Definition of Ibrahim Fawzi and the Circumstances of the Publication of His Book. Second Axis, The Book's methodology, Sources and it's Style. Third Axis - Ibrahim Fawzi's Contributions in recording History of Egypt in Uganda and Tropical Sources. Fourth Axis, Ibrahim Fawzy's contributions in recording history of Egypt in Sudan. Fifth Axis, Issues of the Nile in Perspective of Ibrahim Fawzi. In its conclusion, the study indicated that Ibrahim Fawzi made an important contributions in the field of Historical Writing and a new type of writing style, and monitored Empire History in the Nile Basin. He showed us that the Egyptian National Identity was not formed by rulers, heads of Government and Leaders, but rather was formed by these true Egyptian Representative, Soldiers, Merchants, Teachers, Men, Women, Workers, and Others, Who made with their race and struggle the true history of Egypt.

*

* *

مرت الكتابة التاريخية فى مصر بمراحل مختلفة، لكل منها خصائصها وسماتها وموضوعاتها. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، شكلت كتابات اللواء إبراهيم فوزى باشا فتحًا جديدًا فى مجال الكتابة عن الإمبراطورية المصرية فى افريقيا. فبحكم عمله كقائد عسكرى مبرز فى حملات التوسع المصرى فى افريقيا، أرخ لمصر فى كتابه «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، حضورًا طاغيًا فى منابع النيل، وقدم لنا حقلًا معرفيًا جديدًا لم يستطع أن يجاريه أحد من أقرأنه فى تسجيل مفرداته. فشكلت كتاباته حول تاريخ مصر الامبراطورى فى منابع النيل تراكمًا معرفيًا مهمًا، ساعد مؤرخينا المحدثين فى فك شفرات الوثائق التى أنتجتها السلطات المصرية التى حكمت تلك المناطق. ومع أن اللواء إبراهيم فوزى باشا لم يكن من الصنف الذى انشغل بالحديث عن نفسه، وعن دوره فى فتوحات تلك المناطق، إلا أنه لم يقدم لنا تاريخًا بطوليًا لسيرة الحكام المصريين فى حوض النيل أيضًا. حيث اهتم برصد تاريخ الجنود والعساكر المصريين وهم يفتحون الأقاليم، ويحققون الأمن والاستقرار فى تلك المناطق. وهو بحق أول من رصد لنا مفهوم قوة الدولة المصرية واستراتيجيتها فى افريقيا. فقد عرفنا من خلاله أقصى نقطة وصلت لها الفتوحات المصرية فى منابع النيل الاستوائية، وعرفنا من خلاله تاريخنا المشرف عبر هذا الحوض. وأخبرنا عن مصريين تاجروا وأفلحوا فى تجارتهم، وعن مصريين آخرين أخفقوا وضاقت بهم السبل. عرفنا من خلاله مصريين قدموا عمرانًا وحضارة لأبناء الوادى، وعرفنا أيضًا منغصات اعترضت طريقهم، ومؤامرات حيكت لإبعادهم. ولهذا فان كتابه الذى أنجزه فى نهاية القرن ١٩ يعد من أهم ما كتب فى تاريخ التوسعات المصرية فى منابع النيل بصفة عامة، وتاريخ مصر فى السودان بصفة خاصة. فقد حدثنا فى جزءه الأول عن تاريخ مصر فى المديرية الاستوائية وأوغندا، ورصد لنا تأثير الثورة المهدية فى السودان، واثر الانجليز فى الوقيعة بين المصريين والسودانيين وخروج مصر من السودان فى يناير

١٨٨٥. وراح فى جزءه الثانى يتحدث عن المآسي التى حدثت للمصريين بعد دخول قوات المهدى للخرطوم، وعن سوء دولة المهدية وقرب نهايتها.

ورغم أن كتاب إبراهيم فوزى، بجزأيه، يعد من الكتب المهمة فى تدوين تاريخ مصر الامبراطورى فى القرن ١٩، إلا أن صاحبه يعد أيضًا من مؤرخي مصر المهمين فى تاريخ التدوين التاريخى. ولأهمية الكتاب، تعرض صاحبه فى أحيان كثيرة لحملات تشوية مدبرة، حاولت الانتقاص من قدره، ووجهت له شتى أنواع التهم. والسؤال الذى يطرح نفسه للنقاش: ما هى قيمة كتابات فوزى فى تسجيل الحضور المصرى فى منابع النيل؟ وما هى المعطيات التاريخية التى اهتم بها المؤلف فى رصد الارتباط بين تاريخ مصر وتلك المنابع فى النصف الثاني من القرن ١٩؟ وكيف تناول أسباب التوسع المصرى فى تلك المناطق؟ وكيف عرض إخفاقاته ونتائجه؟ ,وهل النص يمثل إشكالية معقدة أنتجتها السلطة السياسية المصرية؟ أم أن الظرف التاريخى هو السبب الحقيقى فى إيجاده؟ وفى هذا الإطار يمكن تقسيم الورقة إلى خمسة محاور رئيسية:

المحور الأول: التعريف بإبراهيم فوزى وظروف إصدار كتابه.

المحور الثاني: منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه.

المحور الثالث: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية.

المحور الرابع: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان.

المحور الخامس: قضايا النيل من منظور إبراهيم فوزى.

المحور الأول: التعريف بإبراهيم فوزي وظروف إصدار كتابه

من المؤكد أن الإمبراطورية المترامية الأطراف، والتى كونتها الإدارة المصرية فى افريقيا، والتي سكنتها قبائل متعددة اللغات واللهجات والتقاليد، قد شارك اللواء إبراهيم فوزى فى تكوين جزء منها. فباعتباره احد هؤلاء القادة المصريين الذين

شاركوا فى توسيع الامبراطورية المصرية حتى بحيرتى فيكتوريا وألبرت، يعد أحد هؤلاء القادة العظام الذين وطدوا لنفوذ الدولة المصرية فى حوض النيل، وشاركوا فى صناعة الاستقرار والامن فى منابعه الاستوائية. فمن يا ترى هو ابراهيم فوزى؟ وما الظروف التى جعلته يؤلف كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر؟ وفى إطار الإجابة يمكننا تقسيم هذا المحور الى قسمين:

القسم الأول، التعريف بإبراهيم فوزى ودوره.

فقد ولد إبراهيم فوزى بالقاهرة سنة ١٨٤٨، ودخل المدرسة الحربية فى عهد الخديوي إسماعيل، وبعد تخرجه منها برتبة أسبران، التحق بحكمدارية السودان فى فترة حكم إسماعيل باشا أيوب(١). فسار مع غردون إلى خط الاستواء فى ٢١ فبراير ١٨٧٤(٢). غير أن خدمته مع غردون هناك جعلته يترقى فى مناصبه إلى رتبة اليوزباشى(نقيب)، ثم صاعقول أغاسى(رائد) سنة ١٨٧٥، فتم تعيينه مأمور أورطة. بعدها عُين مديرا لبورو الغربية، وهى اخطر مديريات خط الاستواء، فعمل ثلاثة أشهر هناك. وظل بها حتى عاد مع غردون للقاهرة، فقابلا الخديو إسماعيل سويًا، وبتوصية من غردون أنعم عليه برتبة قائمقام سنة ١٨٧٧. وظل عشرة أيام، غادر بعدها غردون إلى انجلترا، فأقام مؤلفنا فى مصر مدة شهرين حتى صدر له أمرًا بالتوجه لخط الاستواء باعتباره وكيل حكمداريه. ولما بلغ بربر علم بأن غردون أصبح حكمدارًا لعموم السودان وسواحل البحر الأحمر، وعلى اثر ذلك تم تعينه هو باش معاون لحكمدارية عموم السودان، وهى الوظيفة التالية لوظيفة وكيل حكمدار عموم السودان. وظل فيها إلى أن تم تعيينه مديرًا لمديريات بحر الغزال بعد ضمها لأملاك

(١) عبدالله حسين: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة العلمية، الجزء الاول، القاهرة – مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة ٢٠١٣، ٢٤٩.

(٢) نعوم شقير: تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، بيروت – دار جيل ١٩٨١، ٢٥٤.

الحكومة المصرية(١). ورقى لرتبة البكباشى بتاريخ ٩ مايو ١٨٧٧ وأصبح على الرتبة الرابعة(٢). وصدر فى ١٤ مايو ١٨٧٧ أمرًا بتعيينه مديرًا لبحر الغزال، مع الإحسان عليه برتبة البكباشى(٣). ثم اشرف على سليمان بن الزبير حين عين وكيلًا لاقليمى بحر الغزال ورول فى ٥ أكتوبر ١٨٧٧، لإصلاح الجهات وملاحظة إداراته والإشراف عليها(٤). ومكث بها إلى أن تم تعيينه من قبل الخديوي إسماعيل، مديرًا على عموم خط الاستواء ورول(٥)، نظرًا لما يملكه من الدراية والهمة، وبخلاف معرفته بأحوال تلك الجهات. وفى هذا الإطار تمت ترقيته من رتبة القائمقام إلى الميرلاى لزيادة اجتهاده، ولعدم وجود من يليق بخلافة مديرها السابق بروت بك، الذى كان مريضًا(٦). وحين تسلم أمين باشا حكم المديرية الاستوائية من إبراهيم فوزى، كانت تمتد من شمال بحيرة ألبرت إلى اللادو بجوار بحر الجبل بواقع ٢٠٠ ميل، وتضم أيضًا بلاد الأونيورو والشولى والمادى والمارى واللاتوكا والماكراكا والمورو، ومن شمال بحيرة فيكتوريا بخمسين ميلا وحتى بحيرة إبراهيم كيوجا(٧).

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- السودان بين يدى غردون وكتشنر، الجزء الأول، القاهرة - دار الكتب والوثائق المصرية ٢٠٠٨، ٢٨، ٢٩.

(٢) الوثيقة ٧٢: خاص بترقية ابراهيم وزى فى ٩ ماو ١٨٧٧، جميل عبيد: المديرية الاستوائية، القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، المكتبة العربية، وزارة الثقافة ١٩٦٧، ٣٩٢.

(٣) الوثيقة ٣٧: امر بترقية إدريس ابتر والنور عنقرة وابراهيم فوزى مع تعيينه مديرا على بحر الغزال، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٧١.

(٤) الوثيقة ٧٧: مصر توافق على تعيين سليمان بن الزبير تحت إشراف ابراهيم افندى فوزى فى ٥ اكتوبر ١٨٧٧، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٥.

(٥) الوثيقة ٧٨: تلغراف من إلى سعادة حكمدار الاقاليم الاسوائية فى ٢٨ يناير ١٨٧٨، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٩٥.

(٦) الوثيقة ١٨٧: تعن ابراهيم بك فوزيمديرا للاستوائية والرول فى ٢٧ يناير ١٨٧٨، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٤٦٨.

(٧) محمد سيد محمد: «المديرية الاستوائية ١٨٦٩- ١٨٨٩»، مجلة البحث العلمى والتراث الاسلامى، عدد ٦، السعودية، ١٩٨٣، ٣١٢.

ويبدو أنه لم يقدر لمنابع النيل الاستوائية أن يديرها مصرى، لهذا لفقت له حكمدارية السودان فى يونيو ١٨٧٨ تهمة الاتجار فى الرقيق، وأنه أرسل مركبا عليها ٧٠ رأسًا من الرقيق من خط الاستواء بإذنه، فتم سجنه[(١)]. ورغم أنه خرج من سجن السوباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩[(٢)]، إلا أنه بوشاية أقيل من منصبه كمدير للاستوائية، وعين مكانه الدكتور إدوارد شنيتزر، الذى سمى نفسه محمد أمين، وصار حاكما على خط الاستواء باسم أمين باشا. بعدها طلب إبراهيم فوزى نقله إلى مصر، فعاد للخدمة فى وزارة الحربية المصرية، وعمره ٣٠ عامًا. وفى سنة ١٨٨٠ عينه عثمان رفقى، ناظر الحربية، مأمورا لعمليات إقليم الغربية، ثم مأمورًا لتعداد النفوس بإقليم الجيزة، ثم عاد للغربية لفرز أنفار القرعة، ومحققًا فى دعوى جماعة من الضباط على البرنس إبراهيم باشا أحمد. بعدها أصبح باش معاونًا لنظارة الحربية، وظل بها حتى حوادث إطلاق الانجليز النار على الاسكندرية. فعين أميرلاى على آلاى أول الفرقة الثالثة بثغر رشيد، ثم عسكر بابوقير إلى ما بعد واقعة التل الكبير واحتلال بريطانيا لمصر. ثم سجن بتهمة اشتراكه مع العرابيين، فجرد من رتبه العسكرية التى أحرزها وهو يقتحم الأهوال، على حد قوله، فى فتوحات خط الاستواء. هذا وكان مؤلفنا يعرفه كل حكام مصر معرفة شخصية، وكان يعرفه كل رجالات القصر وتشريفاته، وكل كبار الدولة. وحين تكونت وزارة نوبار فى ١٠ يناير ١٨٨٤ لتنفيذ سياسة إخلاء السودان[(٣)]، صحب غردون إلى الخرطوم فى يناير ١٨٨٤[(٤)]، فحصل على رتبة لواء ليصبح قومندانًا للعساكر البرية والبحرية الموجودة فى لخرطوم. وحين أصيب فى

(١) الوثيقة ١٩٦: حكمدارية السودن تتهم ابراهيم فوزى بالاتجار فى الرقيق وتشير لزياة بعض رجال امتيسا فى٢٧ يونيو ١٨٧٨، جميل عبيد: المرجع السابق، ٤٧٣.

(٢) الوثيقة ١٠٤: حكمدارية السودان تتنازل عن شكواها فى حق ابهيم فوزى فى ١٨ فبراي١٨٧٩، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٤١٧.

(٣) بابكر فضل المولى حسين أحمد:- السودان فى عهد الخديوي توفيق ١٢٩٦-١٣٠٢هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٥، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ٢٠٠٠، ٢٠٨.

(٤) نعوم شقير:- المرجع السابق، ٤٣٦.

الخرطوم بجرح، عين فى وظيفة رئيس أركان حرب الحكمدارية، وأضيفت له وظيفة محافظ الخرطوم مع رئاسة الأركان، فمكث فيها حتى سقطت الخرطوم[١]. فأسره الدراويش مدة أربعة عشر عامًا، إلى أن أنقذه الجيش المصري سنة ١٨٩٨[٢]. وحينما خرج من سجنه كان معه ٨٨ سجينا[٣]. وعلى هذا نحن أمام شخصية عسكرية وصلت لأعلى المناصب بكدها وعرقها فى سن صغيرة.

وفوق هذا وذاك، كان فوزى ضليعًا فى فن المقاومة بالحيلة، وفى فن التمويه وأدب اللياقة والتمثيل، لدرجة أننا نجد صعوبة فى التفرقة بين مصداقية الأداء من كذبه، إلا حينما ينبهنا هو نفسه، معلنًا بأن ما شاهدناه إنما هو لعبة قام بها المؤدى للنجاة من نقمة المهديين وسطوتهم. ولعل تصرفاته السياسية المراوغة مع المهدى والتعايشى، جعلت صاحبنا متميزا فى فهم علاقات القوة. وعلى هذا قدم لنا نماذجًا عديدة لتلك الحيل، وكشف لنا عن تصرفات لمصريين آخرين خلقوا من محنتهم موروثا مخفيا استغلوه فى نقد سلطة المهدى يقولونه من وراءه. بل كان هو أحد هؤلاء الذين يستبقون أفكار المهدى والتعايشى ويساير رغباتها. لهذا مثل سلوكه الاحترازي بعدًا استراتيجيًا مهمًا فى عملية المقاومة بالحيلة. فكلما كان الحاكم القوى أكثر خطرًا، كان قناع صاحبنا أكثر سمكًا. فكان متميزًا فى قراءة نوايا المهديين وأمزجتهم. ومن ثم فإنه لا يمكننا أن نعتبر أشكال التنكر التى مارسها الرجل مجرد عوارض تاريخية يمكن أن نعجب بها أو نتأسف عليها، بل هى مثال لشخصية عسكرية كانت متقدة الذهن سريعة البديهة.

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، ١: ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤١،٤٤-٤٦، ٤٩- ٥٦، ٢٦٣-٢٦٦، ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) خالدة الشيخ:- شخصيات تاريخية.. إبراهيم فوزى، http://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-43316.htm.

(٣) سلاطين باشا، ضابط نمساوى جاء إلى مصر سنة ١٨٧٨ وعينه غردون حاكما على دارفور سنة ١٨٨٤ وادعى الاسلام فى عهد المهدية لكنه استطاع الهرب سنة ١٨٩٥، للمزيد انظر، سلاطين باشا: السيف والنار فى السودان، تعريب جريدة البلاغ، القاهرة - مطبعة البلاغ ١٩٣٠، التمهيد.

ومع ذلك تعرض الرجل للقيل القال وقذفته السهام من كل الجوانب، ووقفت سيرته لوحدها تدافع عنه. هذا ويظهر من كل المواقف التى تعرض لها، أنه كان محنكًا سياسيًا، سواء مع الخديو توفيق أو المهدى أو التعايشى. فعلى سبيل المثال انظر له وهو ينافق التعايشى حينما اتهمه «بأنه كان يخدم النصارى الكفار، فذكر أن الله قد أنعم عليه لأنه خدمهم بإخلاص، فكيف به وهو يخدم خليفة المهدى، الذى هو خليفة رسول الله، فضحك التعايشى ومال طربا». وأنظر إليه كيف يتصرف حينما اتهم بتهريب سلاطين باشا، فذكر «بأن سلاطين نصرانى ارتد عن الإسلام، وقد أبعده الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدى عليه السلام فى الدنيا والآخرة، وطالما أن الخليفة التعايشى ينوى الزحف على مصر هذا العام، فلابد من أنه واقع فى قبضة المهدية، وسيلقى جزاء خيانته وهروبه، لأن الله طهر مدينة التعايشى من الرجس والمحرمات، وجعلها طاهرة مطهرة»(١). وعلى هذا فإن اتهامه بأنه كان كان يجمع المصريين ليحرضهم على الثورة ضد الدولة المهدية، لم يكن نابعًا من فراغ. القسم الثانى، الظروف الى صاحبت تأليف الكتاب. فكتاب إبراهيم فوزى عن «السودان بين يدى غردون وكتشنر» عبارة عن جزأين. يتناول فى الجزء الأول فترة الخمسة عشرة عامًا من ١٨٧٤ وحتى سنة ١٨٨٥، ويقع تحته ٢١٧ عنوانا فى ٤٠٤ صفحة. وحين انتهى الجزء الأول وضع الجملة التالية «انتهى الجزء الأول من كتاب السودان بين يدى كتشنر وغردون، ويليه الجزء الثانى، وأوله قيام دولة المهدى فى السودان، وأن كل نسخ من هذا الكتاب تكون مختومة بختم المؤلف الذى هو هذا». أما الجزء الثانى فيتناول الفترة من ١٨٨٥ وحتى سنة ١٨٩٦، والعمل على استرداد السودان. وهذا الجزء يقع تحته ١٦٩ عنوانا فى ٣٦٤ صفحة. وكتب اللواء إبراهيم فوزى نسخة كتابه بخط يده. إلى أن نشرت مع بداية القرن ٢٠، حين وجد تشجيعًا من دار نشر أوروبية، وترجمها لجريدة المؤيدة التى نشرت نسختها العربية.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، ٢: ٢٦١، ٣٢٢، ٣٢٣.

السؤال الذى يطرح نفسه للنقاش، هو لماذا خرجت مذكرات إبراهيم فوزى فى سنة ١٩٠٠؟ وللإجابة على هذا السؤال كان لابد من الرجوع للسياق الزمنى الذى ظهر فيه كتاب فوزى للتعرف على الظروف التى ساعدت فى تأليفه. فبالرغم من صدور مذكرات العديد من قادة الثورة العرابية فى نهاية القرن ١٩، إلا أنه لا يمكن تصنيف هذا الكتاب فى إطار موضة العرابيين فى إصدار مذكراتهم، لتغذية الروح القومية لدى المصريين[١]. فبالرجوع لمذكرات سجناء المهدية، من أمثال رودلف سلاطين والأب أهور فالدر، التى قد قام بتحريرها السير وينجت باشا[٢]، والتى نشرت قبل نهاية القرن ١٩، نجد أن الدولة لمصرية كان لا يمكن أن تتجاهل الواقع سياسى لتلك الفترة. فهى شريك انجلترا فى الحكم الثنائى، وكان لابد من تسير على هدى الانجليز وتقتفى أثرهم فى معالجة الوضع فى السودان بعد استعادته واسترداده. ورغم أن ما كتبه ونجت، بأن إخلاء السودان سنة ١٨٨٥ لا يمحو حقائق الارتباط المتعددة التى نشأت بين مصر والسودان، وأن مصر أقامت خلالها مدنًا، وفتحت مدارس، وأنشأت تجارة، وكونت مجتمعات ونظام[٣]، إلا أن حديثة الاجمالى لا يصب فى هذا الأمر. بل ركز على الدور الذى لعبته بريطانيا فى استرداد السودان. ومن ثم فإن تبنيه لكتابات سلاطين باشا وغيره، ممن سجنهم المهدى ورجاله، كان هدفه هو التخديم على الرغبة البريطانية فى استقرار السودان لصالح بريطانيا بعد الحكم الثنائي. وهذا ما جعل مصر أيضا تقوم بنفس الشيء، لأنها أحد طرفى الحكم الثنائى.

فحينما خرجت مذكرات سجناء المهدى كانت بغرض الدعاية ضد أخطاء المهدية

---

(١) عبدالمنعم إبراهيم الجميعى:- اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.. القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة - دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤، ٢٧.

(٢) فقد كتب سلاطين عن السيف والنار فى السودان، وكتب الاب اور فالدر عشر سنوات من الأسر فى معسكر المهدى، للمزيد انظر نعوم شقير: المرجع السابق، ٩٣٦.

(٣) «عرض وتحليل لكتاب عن حياة الجنرال ونجت حاكم عموم السودان وسردار الجيش المصرى»، عرض محمد شفيق غربال، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٦، القاهرة ١٩٥٧، ١٧٠.

وخطاياها من ناحية، وتقديم تبرير للعنف الذى صاحب عملية استرداد السودان فى المتمة وكررى وأم درمان من ناحية أخرى. وبطبيعة الحال كان لا يمكن لمصر أن تدع انجلترا تقدم رواية سجنائها عن فترة المهدى، لهذا راح المسئولون المصريون يهيئون إبراهيم فوزى بعد خروجه من سجن التعايشى سنة ١٨٩٨ لكتابة مذكراته. ومن ينظر لإهداء الكتاب يتأكد تمامًا من هذا الأمر، فالنسخة الأولى التى طبعها المؤلف على نفقته ونفقة إدارة جريدة المؤيد فى شهر صفر عام ١٣١٩ هجرية، أهداها إلى الخديوي عباس باشا حلمى الثانى قائلًا فيها: «إلى سدة مولاي وولى نعمتي الخديو المعظم عباس باشا حلمي الثانى الأفخم، هذه يا مولاى معلومات ومشاهدات شخص من رعيتك قضى فى السودان أكثر عمره بين ضابط صغير وقائد كبير وسجين أسير، رأى كل ضروب الرخاء والشقاء خلال المدة التى قضاها فى تلك الأرجاء، وهى حوالى الثلاثين سنة، ما تسنت لمصرى غيرى، ولذلك رأيت أن أجعلها بين دفتى كتابى هذا، الذى سميته السودان بين يدى غردون وكتشنر، لأن جميعها عبارة عن مقدمة ونتيجة انطوتا فى معنى هذا الاسم، فتقبل يا مولاى هذه الخدمة التى قام بها جهد المستطاع، عبد من أخلص مخلصى رعيتك لسدتك، لم ينس فى كل أطواره واجب ولاء عبوديتك»[١]. وبالنظر لتلك المذكرات وإعادة قراءتها المرة تلو الأخرى، نجد أن فوزى قد نجح فى المهمة التى كلف، وهى أن يمهد الرأي العام المصرى والسودانى لعملية الثأر والمجابهة فى حرب الاسترداد، مبررا بطريقة غير مباشرة العنف الذى حدث خلالها. فتركيز فوزى على ما حدث لأعراض المصريات بصفة عامة، والسودانيات بصفة خاصة، كان كفيلا بقبول ما حدث من عنف تجاه من ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة من رجال المهدى والتعايشى الأشرار. وتصبح أكبر مسرة هو أن تنتظر غرز تلك الهراوات داخل أحشاء من ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة. حيث يأخذك بسلاسة فى شرح ما حدث لتتمنى قدوم المصريين والسودانيين للخلاص من

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، القاهرة، صفر، ١٣١٩، ١: ٢.

هؤلاء المغتصبين لشرف العفيفات، والانتقام من مستغلى الدين استغلالًا سيئا. واعتقد أن ما حدث مع إبراهيم فوزى قد تكرر حدوثه عندما قام يوسف ميخائيل بكتابة مذكراته المسماه «التركية والمهدية والحكم الثنائى فى السودان» سنة ١٩٣٤، أى بعد خمسين سنة من قيام الثورة المهدية.فحينما استشرى نفوذ المهدية فى السودان من جديد عن طريق عبد الرحمن المهدى، كان لابد من تذكير الناس بفظائعها وجرائمها فى حق السودانيين.

وعلى هذا فإن قيام بريطانيا، أحد أطراف الحكم الثنائى، بنشر المذكرات الدعائية، قد أوجب على مصر تقيم رؤيتها أيضًا فى هذا الموضوع. مرة للرد على تيار المدافعين المعاصرين عن المهدية، كعبدالقادر الكردفانى وغيره، ودحض رؤيتهم، ومرة أخرى لدعم تيار العلماء الذى خلقته خلال الثورة المهدية نفسها، وكان ممثلًا حينها فى الشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر الغربى والشيخ الأزهرى، ليستمر فى مقارعة أفكار المهدية فى حججها الواحدة تلو الأخرى. والسؤال الذى يطرح نفسه للنقاش: هل يمكن تصنيف كتاب فوزى فى إطار الحرب الدعائية التى شُنت ضد المهدية؟ أم أنه كمؤرخ إخباري أعطانا أيضًا رؤية جوانب مهمة لم يتطرق اليها احد كم معاصريه؟ فكتابات الرجل تعتبر سردية مهمة للجوانب السياسية والاجتماعية، قدمت لنا تاريخًا بطعم الرواية، ورواية بطعم التاريخ. ويبدو أن الدعاية لنشر هذا الكتاب قد وصلت إلى انجلترا قبل صدوره، فبالنظر إلى الخطاب الذى وصل لإبراهيم فوزى من شقيقة غردون، هيلين موفيت، فى ٢١ مايو ١٩٠١، وهو ينتهى من عمل مقدمته، لتشكره على ما ذكره فى حق شقيقها وصديقه غردون، وتستفسر منه عما حدث فى واقعة قتله، وتطمئن على حال البستانى الذى خدم مع إبراهيم فوزى شقيقها[1]، يشير بأن السلطات البريطانية كانت على دراية بكل خطوات المذكرات، وتطورات كتابتها ونشرها، وإلا فما الداعي لأن تحرض شقيقة غردون على كتابة هذا الخطاب فى لحظات

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، ٨.

الطبع، إلا إذا كانت السلطات المصرية والبريطانية قد قرأت مخطوطات الكتاب، ووافقت على مضامينه.

واعتقد أن المذكرات فعلت فعلها فى بداية الحكم الثنائى، فكان عدد المضارين من المهدية داخليًا وخارجيًا كبير للغاية. ومن ثم فإن صدور الكتاب جاء ليؤكد على ديكتاتورية المهدي ورجاله، ويبشر بعهد جديد للسودانيين تحت مظلة الحكم الثنائى. وعلى هذا فان مذكرات فوزى تمثل إعادة كتابة للقصص والشتائم والشكاوى والمحن والمآسي التى تقاسمها الجميع من وراء ظهر المهدى ورجالاته. بيد أن أهداف الكتاب تكمن فى توقيت إصداره ومحتواه لا فى مفرداته وأساليبه. غير أن هذه الكتابات لقيت رفضًا على المدى البعيد لكل ما جاء فيها. فقد وصفت إحدى الدراسات السودانية، بأن ما جاء فيها يعبر عن حقد وكراهية، وتغلب عليه المبالغة، وأن حقده صبه على التعايشى أكثر من المهدى، لأن الأخير وضعه فى الأسر(١). فالمؤرخون السودانيون الذين كتبوا تاريخاً بطوليًا عن شخصية المهدى، لم يتحملوا آراء مضادة لهذا التاريخ البطولى. صحيح أن قليل منهم اعتبر كتاباته ترقى لدرجة المصادر الأولية، وليس الثانوية، لكونه قد عايش أحداثًا عديدة، سواء فى السودان او فى مصر(٢)، إلا أن غالبيتهم تبنى موقفًا غير مفهوم من الرجل. فقد اتهموا كتاباته بالإجحاف فى حق المهدية ورجالاتها والقبائل التى انضمت لها، لهذا ابتعدوا عن الأخذ من كتاباته بطريقة محيرة. فكثير ممن كتب عن المهدية تجاهل الرجوع لكتاباته عمدا. ومن ثم رفضوا الخطاب المختلف الذى رفعه فوزى، وانحازوا لتاريخهم البطولى.

وبالرجوع لنص إبراهيم فوزى يتبين إثارته لقضايا هامة وخطيرة، فأول ما نلاحظه أن فكرته الرئيسية تدور حول أفكار المهدى وأباطيلها. وان قراءته الجزئية

---

(١) فيفيان امينة ياجى: «شخصية الخليفة عبدالله، مجلة الدراسات السودانية»، معهد الدراسات الافريقية الاسيوية بجامعة الخرطوم، مجلد ٨، عدد ١، ٢، السودان، اكتوبر ١٩٨٨، ٤٦.

(٢) بابكر فضل المولى حسين احمد: المرجع السابق، ك.

للتفاصيل تصب فى قراءته الكلية للموضوع. فهو لا يختلف فى تسمية الجنود المصريين للمهديين بالأشقيا، ولم يختلف معهم فى تسمية المهدى نفسه بالشقى أو الضال محمد أحمد(١). بل لم يقف عند هذا الحد، حيث جاء بالمزيد من الغرائب عن البعد الغيبى المرتبط بالحضرة النبوية. فأوضح أن هذا البعد كان حاضرًا فى العمل السياسى، ومن ثم ولد نوعًا من النصائح السيئة للسلطة. فكل من لم يؤمن بالمهدية قد مارس التقية، خشية تعرضه للانتقام. فحديث فوزى عن عدم وضوح السياسة الخارجية فى عهد المهدى، أورث خليفته عبدالله التعاشى منهجًا غير مفهوم. فشخصية االمهدى الذى يدعى التقاؤه بالنبى صلى عليه وسلم، ويصلى فى مساجد خارج السودان، فى مصر والحجاز والعراق وغيرها، خلقت صعوبة لدى التعايشى فى مسايرة تلك الادعاءات وترويجها. بل ان حديثه عن حروب التعايشى مع مصر والحبشة، فى ظل دول غير مستقرة داخليا، قدم لنا قراءة داخلية لصورة سودان لم يأت ذكره فى روايات المؤيدين لتلك الدولة. وهو ما يتقاطع مع رواية سلاطين فى كلامه عن محاولة فرنسا التنسيق مع المهدى ومساعدته، ورفضه تلك المساعدة، مدعيا بانه لا يتحالف مع امة غير مسلمة(٢).

ولا نمل من تأكيد فوزى فى الجزء الأول على هدفه من الكتاب، فحينما يتحدث عن الأوامر التى أصدرها المهدى بقتل أعوانه، مثل قتله للمنة، القائم بدعوته فى كردفان، وقتله للتوم زعيم الكبابيش، وعجيل زعيم الرزيقات، نتأكد من أنه يصب فى مفهوم الدولة الظالمة التى تقتل بنيها المخلصين. ولعل حديثه عن إقرار الناس بالتسليم للتعايشى ظاهرًا وباطنًا، وقيام الأهالى بتقديم بناتهم للمهدى كهدية يطأ الواحدة منهن كمملوكة يمين، وتقديم كثير من أعيان السودان لبناتهم كمحظيات للمهدى

---

(١) «يوميات عباس بك: معاون حكمدار عموم السودان الذى استشهد فى ميدان معركة شيكان بكردفان ٥ نوفمبر ١٨٨٣»، عرض عبدالرحمن زكى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣، عدد ٢، القاهرة ١٩٥٠، ٨٩، ١٠٨، ١٤٩.

(٢) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٣٥، ١٣٦.

وخلفائه[١]، فإنه يلفت نظر قراؤه لسوءات المهدية والشرور التى فعلتها فى حق السودانيين. وأنظر للجزء الثانى من الكتاب لترى بوضوح إنتقاد فوزى لإشكالية بناء الدولة والمشاكل التى واجهها عبدالله التعايشى بعد وفاة المهدى. فحديثه عن الانقسامات التى حدثت بين اقرباء المهدى والتعايشى، وسلسلة الإعدامات التى مارسها التعايشى ضد من شاركوا فى إنجاح الثورة المهدية نفسها، يوجهنا بشكل مباشر لتلك الإشكالية التى حدثت فى بناء الدولة المهدية لحظة التأسيس. فقد عكس الصراع السياسى بكل أبعاده، ليتضح بأن ما يدعيه البعض بان المهدية هى التى خلقت نموذج للدولة الوطنية، لم يكن صحيحًا. فقد ركز فوزى على إشكالية اعتماد التعايشى على قبيلته لنصرته، وعلى تشككه فى القبائل الأخرى. ومن هنا فان كتاباته قدمت لنا بصورة غير مباشرة، الوصفة الخاطئة التى تبناها التعايشى فى التحول من البناء الوطنى الى البناء القبلى، ناهيك عن صورة الحاكم الديكتاتور فى ابهى تجلياتها. فالواقع الاستبدادى الذى عاشه السودان فى فترة التعايشى، هو الذى ساهم فى تقديم رؤية غائمة حول صناعة القرار السياسى وصياغته، ليقول بشكل واضح بأنه هو المسئول عن اتخاذ القرارات الخاطئة وذات الإشكاليات الكثيرة والمعقدة.

المحور الثانى: منهج الكتاب ومصادره وأسلوبه

المنهج هو مجموعة خطوات متتالية تؤدى بالمؤلف إلى هدف محدد، ونتائج واضحة. ولما كان على المؤرخ أن يبحث فى فعل الانسان وأقواله، فعلى هذا وجب علينا فهم المنهج الذى تبناه إبراهيم فوزى لنفسه، والسرد الذى حول لنا فوزى زمنه التاريخي إلى زمن انسانى يخص العلاقات بين الأشخاص التى صنعت الأحداث، قد جعله زمنًا عامًا يخص الجمهور المستمع لهذا السرد. والخطاب الذى تبناه فوزى داخل تاريخه العسكرى الرسمى، لم ينصرف فيه عن التاريخ السياسي مطلقًا. بل برع فى وصفه، وفى

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غردون وكتشنر، القاهرة - دار الكتب والوثائق المصرية ٢٠٠٨، ١: ١٦٦-١٧٨، ٢٣٥.

وصف أبطاله وإبرازهم، لكنه اصطحب معه دوما الواقع الاجتماعى والاقتصادى للمناطق التى يتحدث عنها. غير أن تاريخه الاجتماعي لم يهتم بالعادات والتقاليد والطقوس والقيم والتدين بصورة كبيرة، بل جاء مفهوما مركبا معنيا بتأثير الوضع الاقتصادي على الناس، وكيفية تحولهم إلى طبقات متناقضة المصالح دون اختيار. وهو ما يفسر القيمة الكبيرة لكتاب فوزى باعتباره تاريخا مختلفا ومغايرا عن نمط الكتابة التاريخية السائدة طيلة القرن ١٩.

على أية حال، فإن غالب عناوين الكتاب وعددها ٣٨٦ عنونا عبر جزأين تقع فى ٧٦٨ صفحة. وتتناول هذه العناوين حادثة أو عدة حوادث على طريقة الحوليات. ورغم أن كثرة هذه العناوين تقف حجر عثرة أمام القارئ، إلا أنها تعبر عن وجود منهج واضح فى تناول الأحداث، هو أقرب للحوليات ومدرسة الإخباريين عن اى تصنيف آخر، فضلًا عن أن روايته للوقائع تتسم بأسلوب تاريخى مميز عن مؤرخي القرن ١٩. هذا وقد توفرت للرجل بعض صفات المؤرخين الكبار، كاتساع دائرته المعرفية، والمحايدة أحيانا، وخشيته من الوقوع فى الزلل والاعتماد على الرواية الشفوية وشهود العيان. ولهذا تنطبق على الرجل الصفتين: شاهد العيان، وراصدًا لشهود عيان آخرين، وجامعا لمنشورات المهدى ورجاله. وعلى الجانب الآخر فإن كتابات فوزى مثلت تغلغلًا للروح القومية داخل الكتابات المصرية، فإذا كان الراديكاليون المصريون قد أسسوا الحركة القومية ورسخوا لها مع بداية الاستعمار البريطانى، فإن إدراك هذا الوعى القومي يمكن رؤيته بوضوح فى كتابات براهيم فوزى باشا[1]. لهذا تعد كتابات الرجل كتابات فى الهوية، حيث تتعرض لمفهوم الشخصية الجماعية بشكل يثبت أن المصريين كانوا قادرين على التطور والترقى، ويملكون مقدرات فكرية وبناء وجدانى لم يتشكل عبر تاريخ مصر وجغرافيتها فقط، بل عبر وجودهم فى وادى النيل. فقد كان لهم روحا خاصة فعكسوها فى هذا الوادى فدان لهم. ومن ثم فإن

(١) LAHOUCINE OUZGNE, ROBERT MORRELL:- africa masculinties. Men in Africa from the late Nineteenth Cenury to the Present, New York, 2005, P. 158.

الكتاب يكتشف شفرة المزاج الخاصة بالمصريين، والتى تحرك أفعالهم وانفعالاتهم ومواقفهم، وأنهم اكتشفوها خلال توسعاتهم فى منابع النيل. واعتقد أن إبراهيم فوزى كان واحداً ممن ساهموا فى خلق الهوية القومية للمصريين. فالكتاب الذى كتبه بعد خروجه من السجن سنة ١١٨٩٨، وأصدره سنة١٩٠١، وضع فيها خبرته فى حوض النيل لمدة ثلاثين سنة. وواضح انه كان غير راضى عن الخدمة تحت قيادة الاتراك، حيث ركز على القومية المصرية التى تجلت بصورة واضحة عبر كتاباته، بل يعد هو أول من تحدث عن مفهوم قوة الدولة المصرية فى افريقيا(١). إذًا، نحن أمام مؤرخ مثقف وصانع للأحداث، فهو لا يعتمد على كتابات الآخرين فقط، بل يعتمد على ما رآه بنفسه وشارك فى صناعته. ولهذا نراه يتحرر من سلسلة الأسانيد، ويعتمد على مشاهداته ومشاركاته كوسيلة لاستقصاء الحقائق التاريخية. فكان يعمل على إبراز العناصر الرئيسة فى موضوعه. ورغم أنه لم يكن متعاطفًا مع السلطة أو دائرًا فى فلكها فحسب، بل كان صانعًا للأحداث ومحركا لها، إلا أنه لم يعدم الوعى بالتاريخ، ليتفوق فى مجال الكتابة التاريخية. وإذا كان التصاقه بالأحداث قد سمح له برؤية جزئية لها، إلا أن رؤيته الكلية زادت من المساحة المرئية لها.

ويعد كتاب فوزى نموذجا للكتابة عن المتناقضات، فكما عاشت فى ذاكرة مؤرخنا قصص البطولات والانجازات التى حققها المصريون فى السودان، عاشت معه أيضا قصص المآسي والنكبات التي حاقت بكثير من الأسر المصرية بعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى فى يناير ١٨٨٥. وكما تحدث عن الاستقرار الذى وفرته الإدارة المصرية فى وادى النيل، تحدث أيضا عن الفوضى التى خلقتها الثورة المهدية وانسحاب مصر من السودان. لكنه سد لنا فجوة معرفية بحقيقة ما حدث فى السودان بعد الخروج المصرى منها. وفى هذا الإطار حفظ لنا الرجل سجلًا مصريًا واسعًا فى حوض النيل. فقدم لنا عددًا من المخطوطات النادرة من منشورات المهدى، واستعان ببعض خطابات

---

(١) Ibid, ,PP. 155-157.

رجالات المهدية وزعامتها. غير أن تعليمه العسكرى وتكوينه، قد أثر فى كتابة تاريخه الامبراطورى. غير أن أفكاره الناقدة للأحداث، والمحرضة على استعادة مصر قوتها فى حوض النيل، ستتيح الفرصة للقارئ في تحديد مقاصد النص، واستنطاق المسكوت عنه، بما يجعل هناك أهمية كبيرة للكتاب فى قراءة الواقع السياسى المعاصر فى حوض النيل.

ومع أن ابراهيم فوزى لم يهتم بالتحليل بشكل كبير، إلا أن اختياراته للنصوص كانت تصب فى الهدف الرئيسي لكتابه، وهو فضح أباطيل المهدية وكشف غلوها. فكان يورد أحيانا نسخًا مبتسرة من رسائل المهدى، ربما لأن الرسائل ألموجهه للأقاليم لم تكن بصيغة أو ألفاظ واحدة. خاصة وانه لم يرغب فى أن يجعل كتابه كتابا لحشد منشورات المهدى، بل اختار من النصوص ما يُخدم على إبراز الأفكار المغلوطة للمهدية وينقدها[١]. فهو يربط بين الحوادث وبعضها، ويدلل على أباطيل المهدى وسذاجة التعايشى وأعوانهم. ويبين فساد منهج المهدية وبعدها عن الدن الاسلامى، فقيام المهديين بتصنيف الناس«هم ونحن»، بمعنى من لم يؤمن بالمهدية قليس منهم، ومن ليس معهم فهو ضدهم، قدم المصريين فى وجه جديد كحكام للسودان فى عهد الحكم الثنائى.

ومن المؤكد أن التركيبة المعرفية لإبراهيم فوزى، باعتباره رجلًا عسكريًا، وشارك فى صناعة العصر الذهبى للإمبراطورية المصرية، كانت حاضرة فى كتاباته ومؤثرة فيها. فقد تأثر بالجو المحيط وإسقاطات السلطة، بما جعله يتلون مع السلطة ويمارس كل أنواع النفاق والدجل السياسى والحيل. بل جعلته يتفهم موقف شمال السودان البراجماتى فى الانحياز للمهدى طوعًا، ويعى إنحيازات الغرب السودانى للمهدية، فساعد فى خلق معسكر عقائدى هناك. فكلام فوزى يوضح بأن كردفان بصراعاتها

---

(١) حسين مؤنس: «وثائق عن مدى السودان»، حوليات اداب عين شمس، مجلد ٢، القاهرة مايو ١٩٥٣، ١٦٧، ١٨٦.

وانقساماتها قبيل ظهور المهدى، كانت أفضل حاضنة لفكرة الثورة وتبنيها وإنجاحها. بل إن التركيبة العسكرية لفوزى تتفق وادعائه الولاء لدولة المهدية تجنبا لعقوبات تنتهى بمقتله كرجل عسكرى ومقتل أسرته. فعبر عن الواقع السياسى الذى كان يعيشه. ولهذا وجب علينا النظر فى رواية فوزى، ونوطن لها فى إطار الروايات الأخرى. حيث يحتوى الكتاب على مادة معرفية غزيرة ومهمة، لكنه لم يتعمق فيها بالشكل المناسب فى رؤاه التاريخية.

وفيما يتعلق بمصادر الكتاب، فلم يكن فوزى فيما يحكيه عن مشاهداته بالمؤرخ العادي، فقد كان قياديا وقريبا من صانعي القرار السياسي، ويعرف ما يجري فيه من تطورات وأحداث. ولهذا تعتبر كتاباته هى المرجع الرئيسي عن تاريخ مصر فى حوض النيل. بل اتسمت كتاباته بالموسوعية، حيث اصدر جزائين من القطع الكبير. ويتحدث هو عن مصادره فيقول بأنه اعتمد على رؤيته المباشرة، واستعان بجماعة من موظفى الحكومة، ممن كانوا قائمين بالعمل قبل دولة الدراويش الزائلة، حيث كانوا متفرقين فى أقسامها، بحيث كان له شاهد عيان على كل واقعة او حادثة، وأنه أطلع على ما كتبه سلاطين باشا ومسيو نيوفلد وغيرهما، ممن شاركوه فى حوادث السودان، وانه استعان بمنشورات المهدية التى ثبت بالتواتر روايتها، وثبت فى نفسه مغزاها. وأنه حقق فى كل رواية ذكرها، مبينًا مقصدها، لدرجته جعلته وهو ليس بمؤرخ أو كاتب يعتقد «بأنه وفىّ التاريخ حقه»، وأنه بعد أن أتمه وضعه بين يدى بعض الكتاب لمراجعة ألفاظه، وتنقيح عباراته وحذف المكرر منه، وعمل ترتيب وقائمة على ما يناسب الموضوع زمانًا ومكانًا. طالبًا بأن يعذره كل من كتب عن الأحداث بشكل غير الذى كتب به، لأن حوادث السودان كثيرة، وبها من الثورات والعواصف ما يختلف فيه التفسير. وأن تفسيره للحوداث جاء حسب ما شاهدها هو. لكن هناك حوادث يتحدى غيره أن يكون قد كتب عنها مثلما كتب هو، سواء فيما يختص بصحبته لغوردون ومعرفه مقاصده، أو شواهد دولة المهدى واضطهادات التعايشى، فيشير

على منافسه بأن «يخطئه فيها، وإلا فما كتبه فإنه هو الصواب»[١]. واعتقد أن الرجل فى كتاباته عن غوردون استطاع تغيير صورته فى ذهن قراؤه، فإظهار الرجل كبطل فى نظره انعكست فى الصورة الايجابية فى مجمل كتاباته. فوصفه فى مواضع عدة، بأنه كان لا يقبل شربة من احد، ولا يقبل هدايا مطلقا، وغير ذلك من أمثله تقدم غوردون الشهم والرجل والمقاتل، فإنه يبرز جوانب خفيه عن الرجل.

وفيما يتعلق بأسلوبه، فإن مؤرخنا إبراهيم فوزى يتشابه مع المؤرخين المصريين المعاصرين له فى الأسلوب واللغة، إلا أنه يختلف عنهم فى أربعة أمور: أولها، حسه القومى ونزعته العسكرية. فالتاريخ لديه هو سجل للمبادئ والأفكار ومواقف الحكام وحروبهم من اجلها. ثانيها، أن كتابه يعد تاريخا عالميا وإمبراطوريا، فقد ظل تاريخ مصر حتى ظهور هذا الرجل، تاريخًا محليًا. ثالثها، اعتمد أسلوبه على التدقيق والترجيح والتحقيق والاعتماد على الكتب والرواة الثقاة. رابعها، تميز أسلوبه بالدعوة لتاريخ مركزى امبراطورى، محرضا على بقاء السودان فى ظل مصر.

أما اللغة عند فوزى فهى أداة للأفكار، وبالتالى هى مرتبطة بمعرفته وتعليمه. وبحكم انه رجل عسكرى فانه لم يحاول ان يأت بغريب الألفاظ وعجيبها، بل كانت لغته لغة السهل الممتنع. فاستطعنا من خلال لغته ان نعرف من الذى يتكلم؟ وما وراء الكلام وأبعاده؟ واعتقد أن الرجل قد بذل جهدًا كبيرًا للانتقال من مرحلة صناعة القرار إلى مرحلة التمثل للمرحلة التاريخية التى عاشها، ثم التفكر والكتابة. ورغم أن غالبية كلمات فوزى كانت عربية مصرية خالصة، إلا أن بعض مفرداتها جاءت سودانية. وكما جرت العادة على مؤرخى العصر فقد غلب السجع والمحسنات البديعية على مقدمة الكتاب[٢].

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: «السودان بين يدى غردون وكتشنر»، جريدة المؤيد، صفر، ١٣١٩، ٦، ٧.

(٢) نفسه، ٤ – ٧.

المحور الثالث: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى أوغندا والمنابع الاستوائية

من المؤكد أن كتابات فوزى عن التوسعات المصرية فى منابع النيل الاستوائية، والمتصدرة للصفحات الأولى لكتابه، تحمل من المعانى ما يصعب على الأذهان تصوره، وبما يجعل كتابات غيره عنها مجرد أحاديث وهمية. ففى أول صفحة من كتابه يفصل لنا مسألة تعيين غوردون حاكما عاما للمديرية الاستوائية، وكيف أن انجلترا هى التى طلبت هذا التعيين من الخديوي إسماعيل، فأصدرا أمرًا بتعيينه فى تلك الوظيفة فى يناير ١٨٧٤. فتم الاتفاق على ان تصبح المديرية مستقلة فى عهد غردون عما كانت عليه فى عهد سلفه صمويل بيكر، حيث كانت تابعة لحكمدار عموم السودان. ويعطينا تفاصيل عسكرية أكثر عن مهمة غردون فى خط الاستواء، فيقول بأن الخزينة المصرية أعطته مبلغ ١٠٠ الف جنية كدفعة أولى من نفقات حملته، واختارت له من أبناء الغرب السودانى أربعة بلوكات من عساكر الجهادية، مسلحين بأسلحة رامنتون، وتولى رئاستهم ضباط يملكون خبرة عسكرية ونشاط وإقدام. لكن لم يغب على مؤلفنا أن يكشف لنا خشية الخديو إسماعيل من أن يصبح غوردون أداة لتنفيذ مقاصد بريطانيا التى يعلمها، فأوصى حكمدار السودان إسماعيل أيوب بأن يخلصه من تلك الورطة. وهنا يبرز لنا المؤلف بداية رحلته مع الأحداث، حيث عبر فى الخرطوم عن رغبته فى صحبة الحملة، فرفض إسماعيل أيوب. وحين اتضح لغردون بانه اختار له أسوأ الجنود وانكشف أمره، تدخلت الوكالة البريطانية بالقاهرة لصالح غوردون. وهنا يقص علينا بداية معرفته بالرجل، وانه طلبه بالاسم، فذهب إليه فى سراى الشرق، فوجده حليمًا شفوقًا كريم الأخلاق متواضعًا فى حديثه وحركاته وسكناته، مع مخايل شرف النفس وعلو الهمة، فكلفه بمهمة فرز البلوكات الأربع وضباطهم وأسلحتهم، فأجابه بأنه هو الذى رغب فى خدمه بلده بطلب مرافقته[1]. وعلى هذا

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٥-١٠.

يتبين بأن رغبة فوزى فى صحبة غردون فى الحملة الاستوائية، كانت رغبة شخصية، أراد منها أن يخدم بلده فى أقصى منابع النيل الاستوائية.

وهنا يدخلنا إبراهيم فوزى إلى عالم السحر والبطولة والأمجاد، فيتحدث عن الصعوبات التى واجهتها القوات المصرية المصاحبة لغوردون فى مديرية خط الاستواء منذ وصولهم إلى فاشودة، فغندكرو، فبحر الزراف والغزال، كانسداد الأنهار بالأعشاب الكثيفة الملتفة، والحشائش المشتبكة من الشاطئ إلى الشاطئ. وانهم باشروا فتح طريق واحد عند مشرع الرق مدة أربعين يومًا، ليقطعوا الغابات الكثيفة، ويزيلوا حشائش النهر فى ظل انسياب الأمطار عليهم بالليل والنهار، والتى يصفها بأنها كانت كأفواه القرب. وأنهم بعدما ساروا الى شانبيه وجدوا تجارًا أمثال أبو عمورى، وكوجك على، وغطاس وغيرهم، ينزلون فيها للاتجار بسن الفيل. فانشئوا مركزًا أقام عليه غوردون أحد المصريين حاكمًا. ثم ذهبوا للرجاف وأقاموا مديرية بور، وعينوا عليها ضابط سودانى. وفى غندكرو وجدوا رءوف باشا، فحكى لهم عن الجهود التى بذلها لإقرار الأمن والاستقرار فى تلك المناطق. لكنه تبين سوء إدارته وغلظته فى معاملة الاهالى فعزله غردون، وولى أحد السودانيين مكانه[١]. وفى هذا السياق أشارت إحدى الدراسات بان ما طرحه إبراهيم فوزى بتأنيب غردون لصمويل بيكر ورءوف بك لسلوكهما العنيف تجاه الاهالى لم يكن صحيحًا، وان الوثائق المصرية أثبتت امتداحه لهما ولإدارتهما. غير أن قيام غردون بإحراج رءوف باشا لإخراجه من المديرية الاستوائية[٢]، يصب فيما قاله إبراهيم فوزى سابقًا. فكانت سياسة إبعاد المصريين عن تلك المنطقة، سياسة واضحة، بحيث لا يستطيع أي مصرى أن يتولى أمر المديرية الاستوائية أبدًا.

وفيما يتعلق بأوغندا، فقد تحدث بأنهم بعد انتهائهم من القضاء على مقاومة الأهالى

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٥-١٠.

(٢) جميل عبيد: المرجع السابق، ٥٩.

التى ظهرت فى جبل مقى، قصدوا البحيرة الكبرى، فوصلوا بعد يوم واحد جهة اللابودية. فظلوا يسيرون حتى وصلوا البركة والميعة العظمى المسماة نيانزا. فوصف لنا الأجواء المحيطة بها، وكيف انهم استكشفوا محيطها وشواطئها. ثم راح يقص علينا وجها آخر من أوجه السياسة المصرية التى أمر بها الخديوى إسماعيل فطبقها غردون. فيقول «رأينا كيف يستعين بنا أهالى الديفلية المظلومين للدخول طوعًا فى رعاية مصر، بسبب المظالم التى يتعرضون لها من حكامهم من قبيلتا أريونجا وبكريك». فيحدثنا كيف تعاملت مصر مع الموقف فى تلك المناطق، حيث أرسلت نصف ترسانتها ونصف عمالها فى الخرطوم، لبحيرة نيانزا لعمل ترسانة فى محطة الديفليه على شاطئ البحيرة الغربى، وأنهم وضعوا نحو أربعين سفينة وخمس شلبات كبار، لكل ما يحتاجه خط الاستواء. وكيف أنشأ غردون ديوان خط الاستواء منفصلًا عن حكمدارية السودان، ورتب له الكتاب والموظفين، فعين عليه على افندى سراج، كملاحظ لأشغال خط الاستواء. ثم راح يحدثنا عن الصدمة الحضارية التى حدثت للاهالى، حين يصف كيفية اصطفاف أهالى البحيرة معجبين مندهشين من رؤية وابورات المصريين وهى تتحرك، إذ لم يكونوا رأوا سفينة بخارية من قبل. وكان إعجابهم يزيد كلما رأوا ضخامة أحد البابورات، ويتعجبوا فى كيفية نقله الى البحيرة مع تلك الضخامة. متحدثًا عن عملاتهم من النحاس الأصفر والخرز والودع الأبيض، وكيف كانوا يأتون إليهم ليبادلونهم سن الفيل الذى لديهم. وكيف تمت فتوحات كثيرة فى تلك الجهات المحيطة بالبحيرة دون إراقة أى دماء، وكيف تمت المواصلات بينها وبين محطة الديفلية، وكيف سارت الملاحة سهلة بين البحر الأبيض وبحيرة نيانزا. فأمكن تردد التجار والسياح الأوروبيين عليها. مستمرًا فى حديثه المتدفق حول توسعهم فى بلاد الوالى كبريكا، والسلطان أريونجا شرق البحيرة جهة فاتوكة، فاكتمل لهم الاستيلاء على البحيرة. ولعل الخطاب المعلن من قبل الخاضعين فى حضرة من يمثلون السلطة المصرية، قد جعل المصريين أبطالًا فى نظر السكان المحليين. فقد تحدث عن قبائل وضعت التراب داخل أفواهها كعلامة على الخضوع للمصريين، وكيف ساروا

بالجنود المصريين الى جهة مرولى من أراضى الملك أمتيسة. قائلين لهم بأن الملك أمتيسة ملك جبار عظيم السطوة، شديد البأس كبير القوة، وعنده الأسلحة النارية والمدافع، ويخشون من أن يكتشف أنهم أدلاء للمصريين، فيرسل لهم قوة تفتك بهم، وتنهب أموالهم وتهتك أعراضهم، فأدخلهم غردون تحت رعاية الحكومة المصرية، فأمنوا أعدائهم وديارهم، وعبروا بأنهم ذاهبون إليه ليدعونه وقومه لطاعة الحكومة الخديوية، فإن امتثل كان بها، وإلا أخضعوه بالقوة[1]. فانظر لطريقة عرض الرجل لأوج التوسعات المصرية، وكيف انقادت القبائل للقوات المصرية وخضعت لها، بالقوة تارة وحسن سياسة الأمور تارة أخرى.

ولما بلغت المحطات المصرية فى الإبراهيمية (دوفيلى) وفاشيلى وفاتيكو وغيرها، درجة كبيرة من التقدم، حيث أدخلت المحاصيل المصرية كالباميا والملوخية والبصل والفلفل والطماطم واللفت وغيرها. واطلق اسم بحيرة ابراهيم على بحيرة كيوجا، عقد غوردون معاهدة مع أمتيسة فى ١٩ يوليو ١٨٧٤، متقبلًا وضع مملكته تحت حماية مصر. فانشئوا محطة على بحيرة فيكتوريا، ثم محطة عسكرية مصرية فى عاصمة أمتيسة فى دوباجا، حسب طلبه، حيث قبل بنفسه بأن يتنازل عن استقلال بلاده لمصر. ونشرت الوقائع المصرية فى ٢ أغسطس ١٨٧٦ نبأ وصول مصر لعاصمة أوغندا. وفى هذا الإطار تحدث إبراهيم فوزى عن تعبير امتيسا فى أن يكون بلده ومصر يدًا واحدة. وأنه بلغ من قوة مصر انها بعد احتلال العاصمة، راح جنودها يكتشفوا المناطق المجاورة، مما جعله يستعين يبعضهم لتدريب جنوده. وعلى هذا فقد حقق المصريون أهم هدف كان الخديوي إسماعيل يسعى لتنفيه وهو تملك بحيرة نيانزة فيكتوريا[2]. ولعل حديثه بأنهم سيروا حمله كبيرة لقتال امتيسة أخافت الاهالى، مما جعلتهم يفرون من أمام الجيش المصرى المتحرك، خوفا من

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٤-٢٢.

(٢) جميل عبيد:- المرجع السابق، ٩٢، ٩٥-١٠٧.

بطش امتيسة، يثبت قوة ملك لوجاندة فى تلك المناطق. ولعل حديثه عن تعبير أحدهم عن خشية تلك القبائل من لوجاندة «بأن ينم الحجر والمدر والشجر عنهم، ليبلغ الملك امتيسه الذى له من كل شيئ واش ورقيب، بأنهم يتعاونون مع الجيش المصرى»، وأن هذا القول اضحك غردون، يدلل على سلطة امتيسة فى تلك المناطق. بل إن عودته لتعبير الرجل «بأن جميع الأشجار التى يرونها تخبئ عددًا من أعوان الملك، وأن أخبارهم تصل إليه دون شك أولا بأول عن كل حركة وسكون»، تدلل على جو الرعب الذى كان الأهالى يعيشونه خوفًا من غضب امتيسة وانتقامه منهم. وهنا يستمر فوزى فى الحديث عن كيفية إخضاع امتيسة، فيحكى كيفية فتح مرولى، أول مديريات امتيسة، وكيفية مناوشة الاهالى لهم بالقتال. وأن غردون بدأ يخابر أمتيسه ويعاتبه على فرار الاهالى من أمام المصريين، وتركهم لبلادهم، وأنهم «أتون باسم الحكومة المصرية، وهى قوية السلطان شديدة البأس، تريد تعميم المدنية والعدالة فى بلاده وتفتحها لخير التجارة وتبادل المنافع، وإن كان الملك امتيسه يريد خيرًا لبلاده صافى الحكومة المصرية، واستظل تحت علمها الوارف، والا أتاه بجنود لا قبل له بها، وأراه من قوتها واقتدارها ما يدك الجبال الرواسى، ويرغم أنوف الجبابرة، وانه مقيم بمرولى ينتظر رده». فانظر كيف بلغت القوة المصرية عظمتها فى منابع النيل، فحديث القوة يتضح فى تعليق فوزى «بأنه لم تمض أربعة أيام حتى حضر رسول من عند امتيسة يلوم غردون على تهديه الملك، لكنه يوافق على تشييد المحطة التى يريد المصريون تشييدها فى مرولى فى الحال، وإذنه للاهالى بأن يعودوا، وان يتبادلوا مع العساكر المصرية البيع والشراء، وأن المصريين بناء على هذا، قاموا ببنائها ورفعوا العلم المصرى عليها»[١]. ورواية فوزى السابقة تدعمها إحدى الدراسات التى أثبتت أن النفوذ المصرى فى أوغندا كان قويا لدرجة جعلت امتيسا يرسل ابنته لمصر عام ١٨٧٤، فبقيت هناك ثمانية

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٢-٢٤.

أعوام، مما جعل الخديوي إسماعيل يرغب فى تزويجها لأحد ضباطه، وحينها يرسله نيابة عنه ليمثله فى بلاط امتيسا(١).

ويستمر حديث فوزى متدفقا عن التوسعات المصرية الضخمة فى منابع النيل، فيشير الى إرسال غردون لمصر ليستحضر للملك امتيسة عربة يركبها، وانها هى التى كان تعايشى السودان يركبها فيما بعد. ثم راح يعطينا ملمحا عن امتيسة وملابسه، باعتباره أول مصرى يشاهد الرجل، فقال بأنه «كان يلبس القباطى الحريرية التى تصنع فى زنجبار، ويضع على رأسه عمامة كعمامة أهل مكة، وفى رجليه الجوارب والنعال الحمر، ويسكن بناء منظمًا»، متحدثا عن الشاب مفتاح الذى كان يحرسه، ويعمل مترجما له، كونه تعلم الانجليزية والعربية فى زنجبار. معتبرا امتيسة أقوى حاكم فى مجاهل افريقيا، وان أهل بلده على نوع من التقدم نوعا ما عن أهالى الجهات الأخرى. وأنهم يزرعون بلادهم بالكروم والحدائق، وان الغابات التى يمشى المسافر فيها أياما لا يكاد ينتهى لآخرها، تنتشر فى تلك البلاد. وهنا يطلعنا فوزى على امتداد الحكم المصرى فى بلاد امتيسه، فيقول بأنه حين استقر المصريون فى بلاد امتيسة فكر غردون فى دعوته للإسلام لأنه دين الحكومة المصرية فأجابه بالقبول، فطلب إرسال علماء لتعليمه وقومه أحوال الدين الاسلامى. فأرسل له فى الحال اثنين من أئمة الأؤرط العسكرية، واثنين من الحلاقين ليجريا لهم طريقة الختان، فاستقبلهم امتيسة بالحفاوة والكرم، وحين قابله الإمامين وجدا عنده أربعة قساوسة بروتستانت جاءوا إليه من زنجبار، فجعل هؤلاء عن يمينه، وهؤلاء عن يساره، وأخذ يسألهم، وحين تحقق من الإمامين أن غوردون مسيحى، وأن دينه كدين القساوسة، اختار الدين المسيحى، وكتب لغوردون يستشيره فى دخوله للنصرانية بعد تركه للفقيهين أياما طويلة، لا أحد يسأل عنهم، بلا قوت، يكاد يقتلهم الجوع، فرجعوا من حيث أتوا.

---

(١) محمد سيد محمد: «أوغندا قبل الحماية البريطانية»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة، مجلد٣، عدد٣، السعودية ١٩٧٨، ٦٧.

وهنا قطع ابراهيم فوزى بأن الرجل لم يدخل الإسلام بل اتهمه بالنفاق، كونه قد نظر لمصلحة نفسه، واستعمل كل غش وتدليس، فرغب فى الإسلام أول الأمر، ثم حين عرف مسيحية غردون اعتنق النصرانية دينا. واصفًا نفاق امتيسه عمليًا «بأنه كانت عنده رايتان فإذا حضر أحد من قبل المصريين رفع الراية المصرية، بحجة انه تابع للحكومة المصرية، وإذا حضر سياح أجانب أدعى أنه خاضع للسلطة الانجليزية، وانتهى أمره برفع العلم البريطانى دومًا، ولذلك تركه غردون على حاله، واعتبر مديرية مرولى آخر حدود السلطة المصرية، وعين بها محمد ابراهيم بك، من مواليد السودان واسمه ابن جميعة، مديرًا عليها» (١). وعلى هذا فان موقف إبراهيم فوزى يعد موقفًا متفردًا فى موضوع امتيسه. خاصة وان الوثائق المصرية نفسها تقطع بإسلامه(٢). وهناك من يقول بأنه أسلم بتأثير سلطان زنجبار لمساعدته فى حالة الهجوم عليه من خديوى مصر(٣). وهناك من يتأرجح فى موضوع إسلامه(٤).

وكما أمر غوردون فى ٤ ابريل ١٨٧٧ بالتقدم لمنطقة البحيرات قبل وصول الاوروبيين(٥)، أمر أيضًا، حسب رواية فوزى، بسحب قواته من عاصمة امتيسة. وهو الأمر الذى رفضته مصر، لأنه هو الذى طلب التبعية لمصر، وطلب إقامة العساكر المصرية ببلاده، واستجاب الخديوي إسماعيل لهذا الطلب، وعمم طلبه ببقاء القوات

---

(١) ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٤-٢٦.

(٢) الوثيقة ٢٨: خطاب خديوى للملك امتيسة ملك لوجاندة يهنئه باعتناق الاسلام ويعده بارسال العلماء والهدايا فى اول سبتمبر ١٨٧٤، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٦٦.

(٣) عبده كاسوزى: «الكاباكا موتيسا الأول يوطد الإسلام فى مملكة بوقاندا ١٨٦٢-١٨٧٥»، مجلة الراصد، مركز الراصد للدراسات السياسية والاستراتيجية، السنة ٤، العدد ٧، السودان، ديسمبر ٢٠٠٩، ١٢٩.

(٤) أحمد عبدالدايم محمد حسين: الوجود العربى فى منطقة البحيرات الافريقية الكبرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، مجلة كلية الاداب، جامعة حلوان، العدد ٢١، السنة ١١، ٢٠٠٧، ٥٢٠، ٥٢١.

(٥) الوثيقة ٧١: أمر لغردون فى ٤ ابريل ١٨٧٤ بالتقدم لمنطقة البحيرات قبل وصول الأوروبيين اليها، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٢.

المصرية فى عاصمته على قناصل الدول عبر الجرايد، طالبًا من غوردون ضرورة إرجاعه لمصر واستمالته(١). غير أن الخطوات التى اتخذها غوردون بسحب قواته خارج عاصمته، استدعت الخديوي لأن يصدر أمر بتعيين حدود خط الاستواء وتوصيفها(٢). فبعد تأسيس مديرية مرولى، رجعوا إلى اللادوه مرة أخرى، حيث فرح الأهالى بعودتهم فرحًا عظيمًا، وصارت مدينتهم عاصمة لقطر شاسع. وكانوا يأملون بأن يكون مستقبلها عظيم كبقية العواصم الكبرى. فسيطرة الجيش المصرى على ثلثى أوغندا خلصت الأهالى من سيطرة أصحاب الشركات المستبدين. فيحكى لنا كيف خلص وكيل التاجر المصرى الكبير احمد العقاد، ويدعى طه بن محمد، ومن معه من المصريين من الورطة، بل عادوا بالآلاف من حمر اللاتوكة الخضراء التى تدر الألبان، فوزعها على الضباط والعساكر، حيث دربت على الركوب والحمل. ويقص علينا طرقا من طريقة الحكم المصرى للمنطقة، بأنه «حينما صارت المديرية الاستوائية فى قبضة الحكومة المصرية وترامت أطرافها، اختار غوردون أن يضم إلى قواته بعض العبيد من العساكر المأجورين فى حراسة الزرائب، فصاروا بعد ذلك أحسن الجنود دربة ونظامًا. وكان يراعى شيئًا مهمًا فى إقامتهم، هو إبعادهم عن الخدمة فى مراكزهم الأصلية، فالذى أصله من الغرب، يبعث به إلى نقطة فى الشرق، والعكس بالعكس. مراعيًا تخالف الأميال ونفرة القبائل التى كانت مستحكمة، عملًا بقاعدة « أُحكم كل جهة بأعدائها». وهكذا كلما احتاج إلى عساكر يرسلها إلى جهة ينتخبهم من أعدائها، لتتأيد سلطته بتلك على الجميع(٣). ونخلص من كل ما سبق بخمسة نتائج رئيسية: اولها، أن السيطرة العسكرية المصرية على مجمل مناطق النيل الاستوائية كانت سيطرة

(١) الوثيقة ٦٩: مصر ترفض سحب قواتها من عامة الملك امتيسا وتطلعاتهم فورا، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) الوثيقة ٦١: أمر لحكمدار السودان بكيفية تعيين حدود خط الاستواء بالاتفاق مع غردون فى٨ مايو ١٨٧٤، جميل عبيد:- المرجع السابق، ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٦-٢٨.

كاملة. ثانيها، أن المصريين كانوا اول قوى خارجية تضع أيديها على تلك الجهات. رابعها، أن الواقع الاجتماعى والاقتصادى لاهالى تلك المناطق كان جيدًا من ناحية الثراء وكثرة الخيرات، لكنه كان سيئًا من ناحية الظروف الاجتماعية. خامسها، أن حديث إبراهيم فوزى عن تلك المناطق يحمل تاريخا إمبراطوريًا مصريًا مشرفًا فى منابع النيل، وأن روايته هى التى فكت لنا كثير مما ورد فى الوثائق الرسمية.

المحور الرابع: إسهامات إبراهيم فوزى فى تدوين تاريخ مصر فى السودان

أشارت بعض الكتابات السودانية بأن كثير من الكتابات الأوروبية حول الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٩٨ قد اتسمت بالانطباعات الشخصية. وأن الحكم المصرى كان فى عمومه حكمًا سيئًا، وأن المهدى كان محقًا فى ثورته ضدهم(١). فحديثهم عن الفساد والخزعبلات التى تركتها الحكومة المصرية تنتشر، وانشغالها بالتباهى بما أدخلته من إصلاحات، يجعلنا نقدم كتاب إبراهيم فوزى كإنموذج لهؤلاء الذين قدموا رواية متوازنة. فمن المؤكد أن غالبية حديث الرجل قد انصبت على السودان المصرى أو سودان المهدية، لكنه لم يعتمد على مشاهداته فقط، بل راح يمارس مهمة المؤرخ باقتدار. فأورد بابًا عن تاريخ السودان القديم منذ العصور القديمة والوسطى، منتهيا بفتح محمد على له، متحدثًا عن زيارته، مفصلًا الحديث عن ولاته وطريقة حكمه. ثم دخل مباشرة فى الترجمة للمهدى معلنًا موقفه فى صياغة عنوانه «ترجمة للمتمهدى»، أى مدعى المهدية. متناولًا سيرته ودعواه السرية ثم العلنية، وموقف مصر منها. وعن انتقاله إلى كردفان، التى أصبحت حاضنة لدعوته، وعن جهود الإدارة المصرية فى كشف بطلان دعوته، فكلفوا العلماء المصريين بفضح دعواه وبيان زيفها. مركزًا على القبائل التى دخلت فى طاعته، موردًا العديد من منشورات المهدى التى تطرح أفكاره

---

(١) عرض كتاب جابرييل ورببرج: اختلاف الرؤى التاريخية فى وادى النيل، هيرست شركاه، لندن، ١٩٩٢، عرض حذيفة الصديق عمر، مجلة محاور، مركز محمد عمر للدراسات السودانية، جامعة ام درمان الأهلية، السودن، يوليو ١٩٩٨، ١٢٦، ١٢٧.

وتدينها. فاضحًا علاقته بالنساء وبالتقشف، ذاكرًا بأن منشوراته هى مجرد توظيف لكلام الشيخ الغزالي فى كتابه إحياء علوم الدين. مفسرًا لنا كيفية تبنى وسط السودان لدعوته، منتقدا أخلاقيات تلك القبائل وسوء نسائها. منتقدًا كثير من القرارات التى اتخذها القادة العسكريون خلال مواجهتهم للمهدى، سواء يوسف الشلالى أو محمد سعيد باشا والى كردفان وغيره. غير أن حديثه عن أخلاق قبائل انحازت للمهدية، هو الذى جعله مستهدفًا منها. ومع ذلك انتقد الفساد الحادث فى الخرطوم قبل سقوطها، فتحدث عن تزوير العملة، وخيانة إبراهيم رشدى، كاتب غردون، الذى زور توقيع جعفر مظهر، وكان يبيع الوظائف لمن يدفع له، فكون ثروة طائلة بعشرات الالوف(١). وإذا كانت مراسلة السير مالت إلى إيرل جرانفيل فى ٢ اكتوبر ١٨٨٢ تشير لحوداث وقعت فى ١٧ سبتمبر ١٨٨٢ وتعلن عن ثورة شبت فى السودان على اثر برقيات أرسلها عرابى باشا إلى أهالى السودان، يأمرهم فيها بنبذ سلطة الخديوي، لأنها قتلت منهم خلقًا كثيرًا، مطالبًا بسلاح وقوة (٢). ورغم أن إبراهيم فوزي لم يكن فى السودان حين قامت الثورة المهدية، إلا أن عودته مع غوردون للقضاء عليها، وسماعه من شهود العيان جعلته يسمع كل ما يدور حولها. فلم يشعرنا بأنه كان بعيدًا عن السودان أبدًا. لكن وجب علينا أن نتفهم بأنه كخصم عسكرى وسياسى للمهدى، قد استخدم مصطلح العدو بشكل مباشر عبر كتابه، ومن ثم فان موقفه كان واضحًا من البداية للنهاية. فهو هنا ليس بمؤرخ بقدر ما هو خصم لمتمرد خرج عن طوع دولته. لهذا فإنه حين شرع فى شرح الأسباب التى جعلت المهدية تحقق انتصاراتها، راح يوجد المبررات التى جعلها تتصاعد وتنتصر، فقال بأن الحكومة المصرية كانت واقعة تحت براثن الثرة العرابية، ومخالب الأزمة المالية، وبالتالى لم تكن لديها القدرة على دعم جنودها المقاتلين ضد المهدى. بل انتقد موقف إسماعيل باشا أيوب ضد مطالب

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٣٥٢-٣٥٦.

(٢) مراسلة السير مالت إلى ايرل جرانفيل فى ٢ اكتوبر ١٨٨٢ مذكرة ارسلها الكولنيل تشارلس ولسن، للمزيد انظر، عمر طوسون:- المسالة السودانية، مطبعة المستقبل، الاسكندرية، ١٩٣٦، ٦-٨.

عبدالقادر حلمى باشا لأحقاد شخصية، مستشهدًا بالانتصارات التى حققها عبدالقادر حلمى فى الشرق، وما انتشر حوله من شائعات برغبته فى الاستقلال بالسودان لنفسه. وعلى هذا فقد أدان فوزى الخطأ الذى ارتكبه الخديو بسحبه عبدالقادر حلمى، متهما الحكمدار الجديد محمد علاء الدين، الذى كان معروفا بشرب المسكرات بالفساد، وانه حصلت فى عهده حملة هكس باشا، ذاكرًا بانه شرب زجاجة كنياك قبل مقتله بعشرين دقيقة(١).واتفق سلاطين باشا فى كتابه «السيف والنار فى السودان» مع رؤية ابراهيم فوزى حول إجراءات عبدالقادر لمواجهة الثورة المهدية، حيث يقول «لو صادفت نصائح عبدالقادر باشا أذانًا مصغية لجرت الأمور فى السودان فى غير المجرى الذى جرت عليه، ولكانت النتائج غير هذه النتائج السيئة»(٢). وبعد أن يتحدث عن سقوط الأبيض راح يقدح فى سلوكيات المهدى، متحدثا عن إصداره لمنشور ينص على أخذ كل حسناء من زوجها، وقيامه بقتل إمرأة بالحجارة رجما، لمجرد أن أحد أصحابه أبلغه بأنها زانية، ولأن أصحابه لا يكذبون، فحكم هذا الحكم. ولم يكن فوزى متجنيًا على المهدى فى رصد تلك السلوكيات، بل تلاقت روايته فى كثير منها مع رواية سلاطين باشا. وفى إعلانه عن خطأ تعيين محمد علاء الدين باشا مكان عبدالقادر كحكمدار، وفصل النظارة عن الحكمدارية(٣). فى حين تقول مراجع اخرى بانه تم تعيين سليمان نيازى باشا اولا، حيث كان علاء باشا مساعدا لهكس باشا، فى حين استدعى سليمان نيازى ليصبح هكس باشا قائدا عاما للحملة، فاعلن علاء باشا نفسه حاكما عاما بنفسه(٤). بل إن حديثه على إدعاء المهدى بأن اسمه وجد منقوشًا على الأشجار وبيض الدجاج، وأنه أخبر أتباعه بأن أصحابه

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١١٩-١٢٨، ١٣٠- ١٣٥. وانظر أيضا، سلاطين باشا: المرجع السابق، متفرقات.

(٢) عمر طوسون: المسالة السودانية، الاسكندرية - مطبعة المستقبل ١٩٣٦، ٢٦.

(٣) ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٣٥-١٤٦.

(٤) عمر طوسون:- المرجع السابق، ٣٢-٤٠.

أفضل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، لانهم يحاربون النيران ويخوضون بين القنابل والرصاص، فى حين حارب أصحاب النبى بالسيوف والرماح، وتعليقه «ولا يخفى ما فى ذلك من الكذب عمدا على الله ورسوله»، ينم على إدراكه المبكر لعملية التضليل التى يمارسها المهدى. فإضافته على لسان المهدى «بأن خلفاءه أفضل من الأنبياء، وانه يتواصل مع النبى ليخبره بالهزائم التى ستلحق بالترك»، يدلل على متابعة دقيقة للرجل وأفكاره والقدح فيها. بل إن ذكره بان عدد المصريين فى الخرطوم عند سقوطها كان يتجاو ٢٠٠ ألف نسمة، متحدثا عن سقوط دارفور ومصادرة أموال المصري هناك، وإرسال المصريات من هناك كمحظيات للمهدى[١]، يؤجج الأحقاد ضد الرجل وأتباعه، ويصب مباشرة فى سخط الرأى العام على المهدية ورجالاتها.

وتتكامل روايات إبراهيم فوزى مع روايات سلاطين باشا فى مناطق عدة، لتؤكد لنا الصورة العامة وتبرزها. فمثلا يحكى لنا إبراهيم فوزى عن حصار الخرطوم قبل سقوطها من الداخل، فيأتي سلاطين ليكمل لنا الصورة من خارج الخرطوم. وأتفقا حول سقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥. وأيضًا فى التعذيب، وفى توزيع النساء على المهدى وأتباعه. وفى المجاعات التى حصلت فى عهد التعايشى[٢]. فعلى لسان سلاطين باشا كان عدد المصريين كثير جدا فى السودان، وكان حسن حسين أميرا عليهم. وأيضا اتفق معه فى كراهية فصيل من أقارب التعايشى لبروزه، وفى انقطاع الصلة بعد احتلال بربر بين مصر والسودان، وان إذاعة منشور إخلاء السودان قد قلبت الحالة وسببت احتلال بربر[٣]. وعلى هذا فإن الكتابات السودانية التى اعتبرت بأن كتابات الأوروبيين، كسلاطين وونجت، ذات أهداف دعائية، وأنها

---

(١) إبراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٤٦،١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦.

(٢) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٥٢- ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ٢٠٠- ٢٠٠٥ وكذا انظر ابراهيم فوزى باشا:- المرجع السابق، ٣٩٦-٣٩٩.

(٣) سلاطين باشا: المرجع السابق، ١٢٦-١٢٨.

ألصقت بالمهدى والتعايشى كل النقائص، ووصفتهم بالتعصب والجهل والتعطش للدماء[١]، لم تكن سهامها بعيدة عن إبراهيم فوزى نفسه، وقد اشرنا لبعضها من قبل.

وفى إطار تذكير المصريين بهويتهم داخل سودان المهدى، ركز إبراهيم فوزى على مصطلح المصريين، فتكرر ذكر ضباط مصريين، وتجار مصريين، ونساء المصريين، ونصارى مصريين، وموظفين مصريين. وان كلمة ولد الريف،كان يطلقها السودانيون على المصريين. بل يورد لنا كثير من المآسي التى حدثت للمصريين بعد سقوط الخرطوم، فتحدث عن جنون إمرأة مصرية فقدت أولادها وأحفادها، وأنها كانت تحثوا التراب على وجهها. منتقلًا للحديث عن امرأة أحمد عبد الوهاب، وكيل الضبطية، حيث قتل زوجها وأخوتها الأربعة، فطلبت قتلها فحصلت عليه بعد أن أخذت سلاحًا هددت به فقتلوها على جرأتها. وراح بعدها يروى مأساة مقتل زوجة إبراهيم بك لبيب، حكمدار بوليس المدينة مع زوجها، لأنها احتضنته حينما هم الدراويش بقتله. فضلًا عن قتل ٣٠٠ مصرية أخرى. ناهيك عن قتل عدد كبير من المصريين، كحسين المجدى، ناظر المدرسة الأميرية، الذى كتب رسالة، كشف فيها أباطيل المهدية، ففسق أحد رجالات المهدى بامرأته، وفض آخر بكارة ابنته. متعجبًا من عدم انتفاخ جثث القتلى المصريين، وعدم تغير لونها، حتى أمكن رؤية الشخص المقتول بعد بضعة شهور، بل كانت الطيور لا تأكلها، ولم يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التى تنتاب الأجسام الميتة. متعجبًا من احتساب المهدى ذلك من كراماته. ثم راح يتحدث عن التمثيل بالجثث وعن مقتل العديد من العلماء لعدم الحاجة إليهم، فحسب زعمهم أن المهدى أصبح يتلقى الشريعة من النبى مباشرة[٢] واعتقد ان رؤية فوزى عن تعامل المهديين مع المرأة نقلتها كثير من الدراسات

---

(١) فيفيان أمينة ياجى: المرجع السابق، ٤٣.

(٢) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٦٠. ونظر ٢: ١٦- ٢٤.

واستشهدت بها(١). وعلى هذا فان اعتداء المهديين على أعراض النساء المصريات، قد شكل نقطة مفصلية فى تهييج المصريين ضد رجالات المهدية وكراهيتهم لها.

ومن الجدير بالذكر أن فوزى كشف لنا تحكم المهدى بالسودانيين من خلال إدراكه لمعرفتهم بأنفسهم. فقد اشتبك كتابه بشكل مباشر مع موضوعات دينية واجتماعية مرتبطة بالمعرفة المركزية. فشرح سمات أفكار المهدية وخصائصها، فعكس إدراكه بالبنية الفكرية التى ينطلق منها المهدى، فراح يدعو لهدمها. غير أن طريقة معالجة المهدى لها أوضحت للمجتمع المحلى بأن ما يجرى ما هو إلا أدوات للنظام لمحاربة الوعى والاستقلال الذى ينشدونه. فكشف فوزى بأن المناخ المعرفى السائد فى السودان هو الذى كان متورطا فى انتشار الأفكار المهدوية واتساعها. فنقل عن المهدى إلغاءه لكل الأحكام والشرائع التى سبقت ظهوره، وسمى اهلها «باهل الفترة»، فعلى سبيل المثال ألغى الطلقة الثالثة ولم يعترف بأي طلقة حدثت قبل ظهوره. ولعل المناقشات التى رتبتها الإدارة المصرية، وأدارها الشيخ محمد الأمين البصير وغيره مع المهدى، أثبتت دور العلماء فى تفنيد ضلالات الرجل وحججه. وفى هذا الإطار استدعت الدولة المصرية غردون مرة أخرى للسودان سنة١٨٨٤، فأعاد معه إبراهيم فوزى بكامل رتبه وألقابه(٢). وفى هذا الإطار رصد لنا وصول غردون الى الخرطوم وفرح المصريين بوصوله، وخطابات المهدى الثلاثة لغردون، غير أن حديثه عن تركز مهمة غردون فى وضع البلاد فى مخالب الفوضى، وأن يقضى على نفوذ مصر فى تلك الأنحاء، وأن يخلى السودان إخلاء تاما عن كل المصريين، يصب فى رفضه التام لمهمة الرجل رغم صداقتها. ذاكرًا بأن عدم مساعدة انجلترا لغردون وعدم الالتفات لطلباته، يؤكد الخذلان البريطانى للرجل. متحدثًا عن حصار الخرطوم وإصابة إبراهيم باشا برصاصة وملازمته للفراش ثلاثة شهور، وعن سقوط بربر وانقطاع

---

(١) LAHOUCINE OUZGNE, ROBERT MORRELL: Africa masculinties.. Men in Africa from the late Nineteenth Century to the Present, New York, 2005, P.162.

(٢) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ٢٥٩-٢٦٣، ٣٢٩.

الصلة مع مصر. وصيانة حاكمها لعرض المصريات فذكرها من حسناته، لكنه فى موضع آخر ذكر تعذيبه للمصريين(١).

وبالنسبة لظاهرة تفشى الجدرى بين الدراويش، فيعترف فوزى «بأن غردون قد أمر بوضع الجدرى فى جوف الكلل، فإذا وقعت وسط الدرايش بغير أن تنفجر، فسيأخذونها، ويجدون الماء ويقولون أنها من كرامات المهدى ويتبركون بالمادة الجدرية، ويمسحون بها وجوههم، ففشا فيهم الجدرى، ويلغ عدد الوفيات منهم ٥٠ كل يوم. فنقلت الأخبار للمهدى فبنى عليها ما بنى، وزعم أن النبى صلى الله عله وسلم أخبره بأن الكلل تحول إلى ماء، كرامة له، فاعتقد كثير من البسطاء بأن هذه المكيدة كرامة ثابتة للمهدى»(٢). غير أن إلقاء البعض التهمة على إبراهيم فوزى نفسه، وبأنه هو الذى قام بعملية النقل لمادة الجدرى من القاهرة للخرطوم، وأنه هو كان يقوم بإطلاقها على المهديين(٣)، لم يثبت صحتها.

على أية حال، أوضح لنا فوزى التناقض ما بين الأفكار الدينية لدى المهدى ورجاله، وشهواتهم الجنسية. فتحدث عن أشكال الممارسات الجنسية وإساءتهم لاستخدام المتع فى غير محلها. مشيرًا فى الجز الثانى عن قيام الدولة المهدية وعن عذابات الناس عند سقوط الخرطوم، وعن مأساة المصريين بهذا الدخول، فتحدث عن إرسال ألف عذراء من بنات أعيان المصريين، فاختار المهدى منهن ٣٠ فتاة من ذوات الحسن والجمال، مرسلًا عددًا عظيمًا لخلفائه الأربعة. وهذا الألف من جملة ٣٥ ألف فتاة أبيحت أعراضها. وانطلق بعدها يحكى لنا طرفًا من سيرة المهدى ووفاته وحقيقة طعامه، وانه لا يترك من الخروف إلا عظامه، وأنه كان يضع رطلًا من السمن مع رطل من العسل مخلوطا باللبن فى طعام الإفطار، ومع ذلك يظهر للناس الزهد.

---

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية ٢٦٧-٢٩٥، ٣١٢-٣١٦، ٣١٨-٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٣.

(٢) نفسه، ٣٤٤.

(٣) خالدة الشيخ: المرجع السابق.

وهنا يحدثنا فوزى عن قيامه بتسليم نفسه، فتم سجنه، وجردوه من أمواله. وأنه أضطر لاستخدام الحيلة والخداع عند مقابلته للمهدى وعبدالله التعايشى، فتلاعب بالمفردات أيما تلاعب[١].غير انه تأسف لأن الحكومة البريطانية سعت لفك أسر أبنائها من قبضة المهدى، أما مصر فلم تسع لذلك.

ويعج الكتاب بالإشارات بأن أصابع المصريين كانت واضحة خلال فترة سيطرة المهديين على السودان. ومن ينظر لحديث فوزى فى الجزء الثانى عن الثورة على التعايشى، وسجنه لأولاد المهدى، وتعامله مع نساء المهدى، وعن حال السودان فى عهده، وتبدل المهدية تبدلًا عظيمًا، وأن الفشل توالى عليها فى أماكن عدة، ولم تقم لها قائمة منذ سنة ١٨٨٩ بعد انتصاره على أبو جميزة فى دافور، ونجاشى الحبشة فى القلابات، يتعرف على حالة السودان المذرية فى عهد التعايشى. بل إن قوله «بأن زيادة التعايشى لعدد حراسه لـ ٣٠ ألف، فإذا خرج من المسجد أحاط به ٢٠ ألفًا»، يدلل على الشكوك التى دخلت على الرجل فى المحيطين به. فقد انغمس فى الملذات وضخم جسمه، وأكثر من نفى الأعيان وقتلهم. الى هنا لم يكن حديث فوزى واضحا عن أثر المصريين، لكنه ظهر فى كل ما سبق، فى حديثه عن أمر التعايشى بإبطال القهاوى التى يديرها المصريون، فقد اعتقد التعايشى ورجاله بأن المصريين فتحوا تلك المقاهى كمنتديات عامة للنقاش فى مسائل تمس المهدية، وفى خلع طاعة التعايشى. بل كانوا يطلقون عليه اسم رمزى هو «الزر»، فيقولون ماذا فعل الزر؟ فيقولون كيت وكيت، فقام بإبطال القهاوى تمامًا[٢]. واعتقد أن فوزى كان أحد هؤلاء الذين ينشرون الثورة من تحت السطح، فالقهوة التى فتحها فى ام درمان، والأخرى التى فتحها فى الخرطوم، وإغلاق السلطات لهما، لم تكن ببعيده عما يتحدث عنه. فقد اتهم صراحة بأنه يقود المصريين للثورة على المهديين.

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، :2 ٢-١٦.

(٢) نفسه، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٠٨- ٣١٠، ٣٤٢، ٣٤٣.

وحديث فوزى عن المشاهد الختامية يبشر اقتراب سنوات الحسم فى أمر المهدية فى السودان. فقد تحدث عن سلاطين وهروبه من أسر التعايشى، وكيف أن ونجت وكتشنر قد اعتمدا عليه فى جمع المعلومات التى بنى عليها جهاز المخابرات خطته فى استرداد السودان. ثم تحدث عن سجنه هو نفسه نتيجة هروب سلاطين، وكيف قضى ٥ سنوات فى سجن ام درمان حتى أطلقه كتشنر سنة ١٨٩٨. وفى هذا السجن اخبرنا عن عدد كبير من المتنبئين ومدعى المهدية والنبوة، وعن اعتقال ابنه محمد فوزى وختان المسيحين ومطالبتهم بتعدد الزوجات. متحدثا عن عربة امتيسة التى أخذها التعايشى وهى فى طريقها إليه، وكيف كانت هذه العربة تستغل فى جلب نساء للتعايشى ليأخذ منهن وطره. خاتما حديثه عن ارتعاد النساء من ذكر اسم يونس ولد الدكيم. منهيا الجزء الثانى معلنا بأنه سيبدأ الجزء الثالث بالحديث عن حملة دنقلة(١). غير أن هذا الجزء لم يبدأه أصلًا، لأنه لم يكن مطلوبًا منه الخوض فيما حدث خلال حرب الاسترداد. فكان مطلوبا من كتابه أن يوضع أمام السودانيين والمصريين، ليذكرهم فقط بهذا الماضى الجميل قبل وصول المهديين للحكم، وعن المآسي والآلام التى لحقت بهم بعدها، ويكمل الصورة التى رسمها سجناء المهدى الأجانب.

المحور الخامس: قضايا النيل فى منظور إبراهيم فوزى

يعتبر حديث إبراهيم فوزى عن النيل حديث الثقة، فالدولة المصرية القوية التى استطاعت السيطرة على منابعه لم تكن مشغوله حينها بالهواجس القديمة المحيطة بمياهه. ولم تشغلها مسائل المياه أبدًا، بل شغلها أمر الحشائش والنباتات التى تعوق حركة الجيش المصرى المتنقل للسيطرة على منابعه الاستوائية. مهتمّة بالأوامر الخديوية التى تتعلق بضرورة السيطرة على بخيرة فيكتوريا، ووضع بلاد اللوجاندة تحت الحماية المصرية. فملامح الهوان والضعف التى نراها اليوم بشأن المياه، لم تكن موجودة فى

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية ، ٣١١- ٣٢٠، ٣٢٥-٣٢٧، ٣٤٨-٣٦٣.

مفردات العصر الإمبراطورى الذى يؤرخ له فوزى. ولمزيد من فهم هذا المحور فهمًا جيدًا سنقسمه إلى جزءين:

الجزء الأول، وهو خاص بالمنابع الحبشية.

اعتقد أن الغائب الحاضر فى مذكرات إبراهيم فوزى هو الحبشة. ويمكن قبول هذا الغياب لانشغاله خلال فترة حروب مصر مع الحبشة بمهام أخرى فى المديرية الاستوائية. فحين صاحب غردون فى عودته كحكمدار للسوان كانت الحروب المصرية الحبشة قد انتهت. لكنه حين تحدث عن استقالة غردون سنة ١٨٧٩ من حكمدراية السودان ذكر بأن أحد أسبابها الرئيسية هو الخلاف بين مصر والحبشة حول مسالة تحديد التخوم، وعدم تعامله بطريقه ودية أو مخابراتية سليمة مع هذا الملف. ورغم أن فوزى لم يتحدث عن علاقات مصر بالحبشة، إلا أنه تحدث عنه فى صفحات وعناوين عديدة، أهمها حروب المهدية مع الأحباش، وفتح قندر بالحبشة، ومقتل نجاشى الحبشة فى القلابات(١). لكن السؤال الذى يطرح نفسه، هو لماذا لم يسجل شيئًا عن العلاقات المصرية الحبشية، رغم أنه أرخ لاحداث كثيرة لم يشهدها بنفسه؟ الإجابة المنطقية هو أن الرجل بدأ بتاريخ مصر الامبراطورى الكبير فى المنابع الاستوائية، ولم يشأ أن يضف صفحة الانتكاسات الحبشية لتلك الفترة الذهبية من تاريخ مصر. وفيما يتعلق بالفترة التالية لخروج مصر من السودان انشغل بتسجيل ماسيه وماسي الشعب المصرى والسودانى هناك بسبب المهديين، ليضعه أمام الطرفين ليكون شاهدا على جرائم المهدية وانتهاكاتها.

الجزء الثانى، وهو خاص بالمنابع الاستوائية.

فحينما بدأت مصر فى التوسع باتجاه منابع النيل، وأولت تلك المهمة لصمويل بيكر، فان حدودها قد اتسعت جنوبا أكثر فأكثر. وفى هذا الإطار توفرت الفرصة

---

(١) ابراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، ١: ٤٨ و، دار الكتب والوثائق المصرية، ٢: ١١٧-١٣١.

لتحديث تلك البلدان وتقدمها، وأتيحت الفرصة لدراستها دراسة علمية وجغرافية، فانتشر الوعى بتلك المناطق. وتوفرت لمصر لأول مرة معلومات متكاملة عن منابع النيل وشعوبه. وهنا يقدم لنا إبراهيم فوزى تفاصيل العصر الذهبى للإمبراطورية المصرية فى وادى النيل، وكيف استفادت هذه الإمبراطورية من أحسن الموظفين الأجانب فى خدمة أهدافها. فقدم لنا وصفا للخريطة الجغرافية المصرية فى منابع النيل، وكيف تسابق السكان المحليون على الدخول فيها والخضوع لها. فقدم لنا القرن ١٩ قرنا مصريًا بامتياز. فأدخلوا تحت جناحهم كل من يحتاج إلى رعاية وحماية وتعليم، وكل من يطلب تنويرًا وتحديثًا وحضارة. بل قدم لنا ابراهيم فوزى صورة مصر فى ابهى تجلياتها فى تعاملها مع الهويات الجماعية المتعددة لشعوب منابع النيل، مقدمًا صورة نحتاجها فى زمننا المعاصر. فأبرز القدرة المصرية على التعامل مع هويات تستند على عوامل لغوية وثقافية ودينية، وأخرى تستند على عوامل عرقية وجغرافية، بقدرة فائقة على تمييز الحدود الفاصلة بين الجماعات المختلفة. لكنه تميز عن الكتاب الأجانب بعدم وجود نظرة استعلائية فى كتاباته. فلم يصف شعوب النيل بالتخلف أو بأنهم أنصاف أطفال أو أنصاف بشر. ومن ثم فإن قضية التحديث وإدخال المدنية فى حوض النيل، كانت هى الهدف الرئيسى للإمبراطورية المصرية. حيث تحدث عن حركة التأثير الثقافى للمصريين فى الطعام والملبس والمسكن وفى زراعة الحدائق. وأعطانا صورة عامة لشبكة القوة العسكرية التى تعتمد عليها الامبرطورية المصرية فى حوض النيل، لكنه لم يتحدث عن كراهية المصريين لشعوب المنطقة، أو احتقارهم لتلك الشعوب. مشيرًا للدور الذى لعبته ترسانة الخرطوم المصرية فى توفير الأدوات اللازمة لاختراق منابع النيل. وهو الأمر الذى أتاح لها إقامة عشر محطات فى أوغندا. ولعل حديثه عن أعمال العمران والتحديث المصرى فى السودان وغيرها، وكيف أدخلت السكك الحديدية والتلغراف، لم يجعله يصطحب الواقع الاجتماعى فى السودان فحسب، بل يركز على بعض جوانب المهمشين وعلى القيادات والنخب فى كافة الأنحاء. واشاراته لاستمرار القوة المصري فى لحظات ضعفها، وأنها لم تنقطع حتى

بعد خروج مصر من السودان، وأنها ظلت حاضرة طيلة فترة حكم المهدية، يؤكده حديثه عن حضور مخابرات الجيش المصرى فى السودان منذ سنة ١٨٩٢ وحتى حرب الاسترداد، وعن وجود ٥٩ تقريرًا معلوماتيًا عن السودان لدى المخابرات المصرية، جمعها الضباط البريطانيون من التجار والجواسيس المتنقلين بين القاهرة والخرطوم(١).

وبخصوص معاملة الاهالى، فإننا لا نستغرب إشارة إحدى الوثائق المصرية للأوامر الخديوية الصادرة لغردون بضرورة معاملة الأهالى برفق ولين الجانب والتأليف والترغيب وتأهيلهم للعمارة وإدخالهم فى سلك الانسانية وإراحتهم(٢). فهذا ما حدثنا عنه إبراهيم فوزى تطبيقًا عمليًا، فنراه يتحدث عن لين غردون مع الاهالى وحسن إدارته لهم، وعن بناءه للمستشفيات. وفى نفس الوقت عن حزمه مع الخارجين عن سلطته، حيث كانت موازيين القوة فى صالح القوات المصرية، فى حين كان الأهالى يحاربون بالنبال والنشاب. ولعل حديثه عن ردود فعل غردون على تمثيل الأهالى بجثة عبدالعزيز ليناان، وأنهم صلبوا وقذفوه بحوالى ٥٠٠ نشابة وسهم، يتبين من قدرته على السيطرة على الأمور بكل النواحى. وحين تحدث عن أكلى لحوم البشر فى بلاد النيانم المتصلة ببحر الغزال، ذكر بأنها تتركز فى قبيلتان فقط ـ ولا تفعلانه دائما، وإنما يحدث حين يتفشى مرض ميئوس منه فى قبيلة ما، فكانوا يسلمون مريضهم للقبيلة الأخرى لتأكله، كما تفعل هى الأخرى بمريضها. مستنتجًا بان أكل لحوم البشر ليست غذاء، وإنما لبيان معزة الموت وأنها أسمى من دفن الانسان فى قبر أو إحراقه بالنار(٣).

ولم يقتصر حديث فوزى عن القوة العسكرية فى منابع النيل وملامحها فقط، بل تحدث عن الشركات المصرية وامتدادها حتى بحيرة فيكتوريا. بل انظر الى حديثه عن

(١) جوهر موسى النهار المهيدات: بريطانيا والحركة المهدية فى السودان ١٨٨١-١٨٩٩، رسالة ماجستير، كلية الاداب،جامعة اليرموك، الاردن، ٢٠٠٣، ٤.

(٢) الوثيقة ٢٧: توجيهات خديوية لغردون بخصوص ادارة الاستوائية، جميل عبيد: المرجع السابق، ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ١: ١٠-١٤، ٣٢، ٣٣.

تعجب سكان البحيرات الاستوائية من قدرة الحكومة المصرية على ترويض الأفيال التى جاءت بها من الهند. فقد أطلقوا على حاكم المديريات الاستوائية إبراهيم فوزى نفسه، والذي قضى الـ ٤٠ يومًا الأولى من حكمه خارج عاصمته اللادو يزور كل المديريات، بصاحب الأفيال[١]. وعلى هذا يمكن القول بنتائج ثلاث: أولها، أن أول مفردات للتحديث فى حوض النيل هى التى ادخلها المصريون. ثانيها، أن سيرة المصريين الحسنة فى وادى النيل هى التى جعلت غالبية شعوبه تتمنى أن تدخل فى مظلة التاج المصرى فيما بعد. ثالثها، أن التركيز على مفردات القوة والتاريخ الامبراطورى لمصر فى حوض النيل، يذكر أشقاء النيل، بأن تلك المفردات لم يحدث أن أساء المصريون استغلالها يوما ما طيلة تاريخ حكمهم لتلك المناطق.

(١) إبراهيم فوزى باشا: المرجع السابق، دار الكتب والوثائق المصرية، ٣٢، ٣٦، ٤٣.

الخاتمـة

* أوضحت الدراسة بأن إسهامات إبراهيم فوزى فى الكتابة التاريخية قدمت لنا نمطا جديدا من الكتابات التاريخية التى تهتم بتاريخ مصر خارج حدودها. فرصدت تاريخًا إمبراطوريا فى حوض النيل، شارك هو بنفسه فى صنع جوانب منه. فبينت لنا بأن الهوية الوطنية المصرية لم تتشكل على أيدى الحكام ورؤساء الحكومات والقادة، بل تشكلت على أيدى هؤلاء الفاعلين الحقيقيين من المصريين من الجنود والتجار والمدرسين والرجال والنساء والعمال وغيرهم، ممن صنعوا بعرقهم وكفاحهم تاريخ مصر الحقيقى.

* بينت الدراسة أن كتابات إبراهيم فوزى قد سدت فراغا تاريخيا يتعلق بتاريخ مصر الخارجى، فكانت تورايخ معاصريه من المؤرخين المصريين، تدور حول الشأن المحلى وقضايا الحكم وشئون الأراضى والقوانين والتعليم وغيرها. ومن ثم فان كتابه يعد رصدًا متفردًا لأول محاولة لتوحيد دول حوض النيل تحت الحكم المصرى فى القرن ١٩، وأول محاولة لدمج شعوب النيل فى بوتقة واحدة لصهرهم. وعلى هذا يعد الرجل أول من وضع أيدينا على وجود إستراتيجية مصرية فى حوض النيل فى النصف الثانى من القرن ١٩. ولهذا فإن قيمة إسهامه الحقيقي تمثل فى فهمه للصلات بين التاريخ المحلى والوطنى والاقليمى والدولى، وفى فهمه لتعقيدات الحياة النيلية ومجتمعاتها المتنوعة والصلات بينها. وأيضًا فى المشاهد الثلاث التى تفرد برصدها، وأولها المشهد الاستوائى فى منابع النيل، والثانى، الوضع داخل الخرطوم لحظة سقوطها. والثالث، أحوال المصريين الموجودين فى السودان فترة حكم المهدية، وكيف كانوا يخيفون السلطة القائمة.

* لم تكتف الدراسة بالتعريف بالكتاب وموضوعاته، بل اشتبكت مع أفكاره ومعلوماته اشتباكًا حقيقيًا، فطرحت الرؤى المقابلة، ووسعت من مساحة الرؤية المتاحة، وعرضت ما وراء الحكاية. وبينت بأن أهم هدف لنص فوزى هو تحميله

المهدى ورجاله لكل الأخطاء التى وقعت فى السودان وجواره الإقليمى، وأنهم كانوا سببًا رئيسيًا فى حرمان السودانيين من التقدم الذى كان قائمًا، بتوفيرهم الفرصة للتدخل الأجنبى فى كل الدويلات النيلية فيما بعد.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ١٦٧ـ١٨٧

ثورة ١٩١٩م وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية

أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس*

ملخص

يسلط هذا البحث الضوء على العلاقات المصرية الجزائرية من خلال «**أثر ثورة عام ١٩١٩م في مصر على الحركة الوطنية الجزائرية**»، وهذا الموضوع رغم أهميته لم ينل حظه من الدراسة، فقد ركزت الدراسات التاريخية على أثر هذه الثورة على بعض البلاد العربية مثل ثورة العشرين في العراق، وثورة علي عبد اللطيف في السودان فحسب ، رغم أن ثورة ١٩١٩م في مصر كان لها تأثير كبير على معظم الحركات الثورية في العالم العربي آنذاك ؛ ولذا فإن هذا البحث محاولة للكشف عن صفحة تكاد تكون منسية من قبل معظم الباحثين والمؤرخين ، أو هي مجتزأة منقوصة، متناثرة في بعض صفحات الكتب والمجلات والأدبيات العربية.

وتتضح من خلال هذا البحث مدى تأثر الطلاب الجزائريين الذين كانوا يدرسون في الأزهر الشريف ونقلوا روح الثورة إلى بلادهم ومن أبرز هؤلاء الشيخ مولود الحافظي. واحتكاك الكثير من المثقفين والوطنيين الجزائريين أمثال الأمير خالد الجزائري والشيخ عبد الحميد بن باديس.

ويتناول هذا البحث ثلاث نقاط رئيسة وهي كما يلي:

- **الثورة المصرية وتشكيل الوعي السياسي في الجزائر.**

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة عين شمس.

- جمعية العلماء المسلمين امتداد لثورة الأزهر.
- ثورة ١٩١٩ وظهور مقاومة الأمير خالد ومصالي الحاج.

Abstract

This research sheds light on the Egyptian-Algerian relations through **"The impact of the revolution of 1919 in Egypt on the Algerian national movement"** , and this topic despite its importance did not get its luck from study, as historical studies focused only on the impact of this revolution on some Arab countries such as the revolution of the twentieth (Al-Eshreen) In Iraq, and Ali Abd al-Latif's revolution in Sudan , even though the 1919 revolution in Egypt had a major impact on most of the revolutionary movements in the Arab world at that time; Therefore, this research is an attempt to reveal a page that is almost forgotten by most researchers and historians, or fragmented and incomplete, scattered in some pages of Arabic books, magazines and literature.

It is clear from this research how affected the Algerian students who were studying in Al-Azhar Al-Sharif and transferred the spirit of the revolution to their country. Among the most prominent of these is Sheikh Mouloud El-Hafezi. And friction between many Algerian intellectuals and patriots such as Prince Khaled Al-Jazaery and Sheikh Abdel Hamid bin Badis.

This research deals with three main points, which are as follows:

- **The Egyptian Revolution and the formation of political awareness in Algeria.**
- **The Association of Muslim Scholars is an extension of the Al-Azhar Revolution.**
- **1919 revolution and the emergence of the resistance of Prince Khaled and Masali Al-Hajj.**

*

* *

تعد ثورة ١٩١٩م في مصر، أول ثورة في العالم العربي وأفريقيا، بل وفي منطقة الشرق الأوسط، وهي الثورة التي سار فيها الشعب المصري على طريق الاستقلال للتخلص من الاستعمار البريطاني في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

هذه الملحمة الوطنية الخالدة، التي تجسدت خلالها الوحدة الراسخة بين ابناء الشعب المصري وعكست مسيرة النضال المصري نحو الحرية والاستقلال.

وبدأت في مارس ١٩١٩م وانتهت في فبراير ١٩٢٢م وإن استمرت نتائجها تتبلور حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وكان من أهم نتائج ثورة ١٩١٩م أنها ثورة ملهمة للبلاد العربية للقيام بثورات مماثلة للتخلص من الاستعمار الأوروبي.

يسلط هذا البحث الضوء على العلاقات المصرية الجزائرية من خلال أثر ثورة عام ١٩١٩م في مصر على الحركة الوطنية الجزائرية، وهذا الموضوع رغم أهميته لم ينل حظه من الدراسة، فقد ركزت الدراسات التاريخية على أثر هذه الثورة على بعض البلاد العربية مثل ثورة العشرين في العراق، وثورة علي عبد اللطيف في السودان فحسب، رغم أن ثورة ١٩١٩م في مصر كان لها تأثير كبير على معظم الحركات الثورية في العالم العربي آنذاك ؛ ولذا فإن هذا البحث محاولة للكشف عن صفحة تكاد تكون منسية من قبل معظم الباحثين والمؤرخين، أو هي مجتزأة منقوصة، متناثرة في بعض صفحات الكتب والمجلات والأدبيات العربية.

كما يهدف البحث إلى إماطة اللثام عن هذا التأثير والتأثر، سواء كان مباشرًا أو غير مباشرًا بين الثورات العربية التي يجمعها عامل الشعور القومي العروبي بشكل كبير، كما هو الحال في حالة التأثيروالتأثر الحاصلة في بلدان العالم العربي مؤخرًا، عندما انطلقت شرارة الثورة التونسية في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م، ثم انتقل لهيبها إلى مصر في ٢٥ يناير ٢٠١١م، ثم سوريا، وليبيا واليمن وغيرهم والتي أطلق عليها ثورات الربيع العربي.

وهذا التأثير والتأثر يمكن أن نطلق عليه مجازًا، عدوى الثورة أو حمى الثورة، بحثًا عن الهوية والتخلص من الاستعمار بكل صوره وأشكاله، فتنتقل داخل النطاق القومي والاقليمي والجغرافي بسرعة كبيرة، ثورة تسلم ثورة ونستطيع أن نستشهد على ذلك على المستوى الخارجي، ما حدث في منطقة أمريكا اللاتينية من الثورات للتخلص من الاستعمار الإسباني والبرتغالي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي[١] مثل ثورة هايتي ١٧٩١م ثم انطلقت الثورات إلى بقية دول أمريكا اللاتينية، وكذلك الثورات التي حدثت في منطقة البلقان (جنوب شرق أوروبا)، في عام ١٩١٢م للتخلص من الحكم العثماني في أوائل القرن العشرين[٢] وهكذا دواليك.

ولم يقتصر تأثير ثورة ١٩١٩م على البلاد العربية فحسب، بل تجاوزت النطاق القومي العروبي والجغرافي والإقليمي، إلى النطاق الخارجي، فقد وصل تأثيرها إلى الهند وإندونيسيا، فقد ألهمت ثورة ١٩١٩م الزعيم الهندي المهاتما غاندي Ma/hatma Gandhi (١٨٦٩-١٩٤٨م)[٣] وأسهمت في تعزيز اقتناعه بأهمية توحيد الهندوس والمسلمين في مواجهة الاحتلال البريطاني[٤]، مقتديًا بسعد زغلول الذي وحد بين المسلمين والمسيحيين، بل إن غاندي قال: « إن سعداً ليس لكم وحدكم ولكنه لنا جميعًا»[٥] وهذا القول يبين عالمية ثورة ١٩١٩م وزعامة سعد زغلول. فقد كانت ثورة

---

(١) ROBERT, R PALMER, *The Age of the Democratic Revolution: Apolitical History of Europe and America*, 1760-1800,VOL2 ,1964,pp.110-122.

(٢) WINSTON CHURCHILL, *The Word Crisis 1911-1918*, London, 1931,PP.278-280.

(٣) المهاتما غاندي: هو الزعيم السياسي الهندي الذي قاد الهند للحصول على استقلالها، ولد في ٢ أكتوبر ١٨٦٩م وتوفي في ٣٠ يناير ١٩٤٨م.

(٤) https ;// www.coptcsolidarity Org.

(٥) أندروز: المهاتما غاندي من سيرته كما كتبها بقلمه ونشرها مستر أندروز الانجليزي أحد مريديه، ترجمة إسماعيل مظهر، راجعه وقدم له معتز أبو القاسم، عمان الأردن - الأهلية للنشر والتوزيع د.ت؛ وانظر أيضًا: عباس محمود العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، القاهرة – منشورات مكتبة شركة فن الطباعة شبرا مصر د.ت.

١٩١٩م ملهمة رغم أنه لم يكن في برنامجها، برنامج واضح للتعاون مع الحركات الثورية[١].

ويجب أن نشير إلى أن ضبط أي محاولة للتأثير والتأثر، التي قد تحدثها أي ثورة في محيطها المباشر أوغير المباشر هي عملية نسبية، نظرًا لإختلاف الظروف الذاتية والموضوعية الحاصلة في كل بلد، كما أن التأثير قد يكون تأثيرًا آنيًا، كما حدث في الجزائر مباشرة في أعقاب ثورة ١٩١٩م، أو تأثيرًا مؤجلاً مختزنًا في الذاكرة السياسية يظهر عندما تتاح الظروف الموضوعية المساعدة على قيام الثورة، كما حدث عندما اندلعت ثورة نوفمبر ١٩٥٤م في الجزائر.

على الرغم من ندرة المصادر التاريخية والأدبيات العربية التي تناولت تأثير الثورة المصرية الكبرى ثورة عام ١٩١٩م على الحركة الوطنية الجزائرية، إلا أن مظاهر وأدلة عديدة تشير إلى قوة التأثير الذي يشبه عملية التأثير والتأثر التي حصلت في عدد من الدول العربية، كثورة السودان بحكم الجوار المباشر لمصر، وثورات العراق وسوريا وليبيا والجزائر والمغرب، لقد انطلقت ثورة عام ١٩١٩م من القلب ووصلت إلى الأطراف.

ففيما يتعلق بالجزائر، لم تتوقف فيها مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت قدماه أرض الجزائر في ٥ يوليو عام ١٨٣٠، حيث اندلعت الكثير من الثورات الشعبية المسلحة التي كان من أهمها، مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في الغرب الجزائري في منطقة المعسكر (١٨٣٢/ ١٨٤٧)، ومقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري في منطقة قسنطينة (١٨٣٧/١٨٤٨)، ومقاومة أولاد سيدي الشيخ في هضبة عوينه بوبكر شرق البيض في منطقة الحدود الجزائرية المغربية (١٨٦٤/ ١٨٨١م)، ومقاومة الحليمية بجبل مستاوة بالأوراس (١٩١٤/١٩١٦)، ومقاومة

---

(١) أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس: دراسات في تاريخ مصر المعاصر، القاهرة - مكتبة الآداب ٢٠١٨م،٤٩.

الطوارق في الصحراء الجزائرية في الجنوب الجزائري (١٩١٦/ ١٩٢٣م)، وغيرها من الثورات التي قدم فيها الشعب الجزائري ملايين الشهداء[١] ، عملت خلالها فرنسا الاستعمارية على تنفيذ إبادة جماعية للشعب الجزائري، عبر سياستها الاستيطانية، القائمة على الفرنسة، حيث اتبعت سياسه تهدف إلى هدفين هما: فرنسة الأرض، وفرنسة السكان. ففيما يتعلق بفرنسة الأرض، كانت فرنسا تزعم وتدعي أن الجزائر قطعه طبيعية من فرنسا وأن المنطقه الساحلية من الجزائر أي شمال الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها[٢] . أما فرنسة السكان، فقد أتخذت فرنسا طريقتين: أولهما محاوله فرنسة الجزائريون أنفسهم، وثانيهما جلب أعداد كبيرة من الأوروبيين عامة ومن الفرنسيين خاصة ليستوطنوا الجزائر[٣] . وبناءً عليه اتخذت فرنسا كل الوسائل والطرق غير المشروعة وسن القوانين لضم الجزائر إلى فرنسا واعتبارها أرضًا فرنسية ينطبق عليها ما ينطبق على فرنسا الأم في أوروبا.

وهذا وضع شاذ وادعاء كاذب؛ فالجزائر أرض عربيه أفريقية، وشعبها عربي لغَة، وأفريقي موطنًا، وإسلامي دينًا، وليست الجزائر هي فرنسا، وليس شعبها شعبًا فرنسي، فالجزائريون يختلفون عن الفرنسيون في الدين واللغه والعادات والتقاليد والجنس والأهداف والتاريخ[٤].

وكان من الطبيعي أن تثير هذه السياسه التعسفية ثائرة الوطنيين الجزائريين، منذ الإحتلال عام ١٨٣٠م وحتى أعقاب الحرب العالميه الأولى، وخلال هذه الفتره التي

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: DAVID GORDON, *The Passing of Algeria*, London, 1966. عبد الله شريط ومحمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، الجزائر ١٩٦٥م، وانظر أيضًا: مسعود مجاهد الجزائري: أضواء على الاستعمار الفرنسي للجزائر، القاهرة – دار المعارف ١٩٥٨م.

(٢) إسماعيل أحمد ياغي (الدكتور): تاريخ العالم العربي المعاصر، الرياض – مكتبة العبيكان ٢٠٠٠م، ٣٩١.

(٣) نفسه ٢٩١، ٢٩٢.

(٤) فليب رفله: الجزائر، الطبعة الثانية، القاهرة – مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠م، ١٤٥.

بلغت ما يقرب من ٩٠ عامًا من الاحتلال (١٨٣٠-١٩١٩م)، كانت التيارات الوطنية الجزائرية المقاومة للإحتلال متعددة ومتنوعة، ولكن يؤخذ عليها أنها كانت في أوقات متفرقة، وليست في وقت واحد وليس هناك تنسيق بينها، مما سهل على الاستعمار الفرنسي القضاء عليها، الأمر الذي أثر بشكل كبير فيما بعد في ردود فعل الجزائريين، وفي تحركاتهم من أجل الحرية، واستدعت في مرحلة ما بعد الثورة المصرية بداية من عام ١٩١٩م، التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى، أن ينتقل الجزائريون إلى نوع آخر من المقاومة هي المقاومة السياسية بدلاً من المقاومة المسلحة، تجنباً لبطش فرنسا، التي لم تكن تتعامل مع الجزائر كأرض مستعمرة، وإنما باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأرض الفرنسية، وهي بذلك تختلف كليًا عن نوعية وطبيعة الاستعمار أو الانتداب في المستعمرات الأخرى.

الثورة المصرية وتشكيل الوعي السياسي في الجزائر

تواكب اندلاع ثورة عام ١٩١٩م في مصر، مع أحداث أخرى مهمة، حدثت في المنطقة والعالم، كان لها مجتمعة، أثرها في إعادة تشكيل الوعي السياسي لدى الجزائريين، خاصة مع الإدراك المرير بفشل المقاومات الشعبية المسلحة في مقارعة الاستعمار طوال ما يقرب من ٩٠ عامًا كاملة من الاحتلال، بسبب التفوق الكبير للمحتل تنظيمًا وتسليحًا، وقد تشكل الوعي الجديد مع عودة أعداد لا بأس بها من الطلاب الجزائريين من المشرق العربي، وتحديدا من مصر، حيث كانوا يدرسون في الأزهر الشريف، واحتكاك الكثير من المثقفين الجزائريين بالحراك المصري، وثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول، وفي الوقت نفسه تواكب مع عودة أعداد كبيرة من المجندين الجزائريين الذين كانت تجندهم فرنسا في صفوف الجيش الفرنسي لمساعدة فرنسا في حروبها الاستعمارية إلى الجزائر، يحملون أحلام الحرية والاستقلال، مدفوعين مع أقرانهم من بقية الجزائريين داخل الجزائر، بالقرارات التاريخية التي تمخض عنها مؤتمر فرساي بباريس من توصيات كان على رأسها مبدأ حق الشعوب في

تقرير مصيرها، وكذا مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون الـ١٤، والأهم من ذلك، هو اصدارفرنسا قانون فبراير ١٩١٩م الذي عُرف بقانون (جونار Jonnart)(١) الذي سمح للجزائريين بالنشاط السياسي، وحق التصويت في الانتخابات (وإن كان ذلك مشروطًا بالتجنس) الذي رفضه أغلب الجزائريين فيما عدا تيار الاندماجيين، وكانت كل هذه العوامل مجتمعة أفضل صدفة، جعلت من الحراك السياسي الجزائري، يتوافق زمنياً مع ثورة الشعب المصري للتحرر من الاستعمار البريطاني.

جمعية العلماء المسلمين امتداد لثورة الأزهر

كان لاندلاع ثورة ١٩١٩م، الأثر الأبرز في الحفاظ على الشخصية العربية المسلمة في الجزائر، ولن نكون مبالغين اذا أكدنا أن تشكيل أهم حركة دينية إصلاحية في الجزائر بل وفي المغرب العربي، وهي «جمعية العلماء المسلمين» كانت من ثمرات الثورة المصرية١٩١٩م، على الرغم من الفارق الزمني بينهما، فمن بين المراجع المهمة والنادرة في آن واحد، هو ما ذكره الكاتب الجزائري «محمد الطاهر آيت علجت»(٢)، بأن من أبرز مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الشيخ مولود الحافظي الجزائري الأزهري(٣)،

---

(١) قانون جونار: نسبة للحاكم الفرنسي العام للجزائر شارل جونار Charles Jonnart وهو سياسي ودبلوماسي فرنسي ولد عام ١٨٥٧م وتوفي عام ١٩٢٧م، وقد صدر هذا القانون في ٤ فبراير ١٩١٩م، وتمت الانتخابات على دورين في ٣٠ نوفمبر ١٩١٩م ثم في ٧ ديسمبر ١٩١٩م. https://www.wikizero.com

(٢) محمد الصالح آيت علجت: الشيخ المولود الحافظي، حياته وآثاره، الجزائر – منشورات دار الكتاب ١٩٩٨، ٢٨.

(٣) المولود الحافظي، ولد في عام ١٨٨٠م في قرية آث حافظ منطقة آث وارثيلان ولاية سطيف (حاليًا) وفي هذه المنطقة ولد العديد من كبار العلماء والفقهاء منهم على سبيل المثال الشيخ الحسين الورثيلاني وحفيده الشيخ الفضيل وغيرهم، وسمي الشيخ الحافظي باسم المولود نسبة أنه ولد في يوم المولد النبوي الشريف، حصل الحافظي على شهادة العالمية من الأزهر الشريف، واشتغل في التعليم العربي الحر بالمعهد الحافظي، والمعهد اليلولي، والمعهد الحملاوي والكلية الكتانية، وهو عضو مؤسس لجمعية العلماء المسلمين الجزائرين، ثم رئيس جمعية علماء السنة (١٩٣٢-١٩٣٤م)، وتوفي ٨ فبراير عام ١٩٤٨م. انظر، عطلاوي عبد الرزاق:=

الذي شارك برفقة عدد من الطلبة الجزائريين مشاركة مباشرة في ثورة ١٩١٩ عندما كان يدرس في الأزهر؛ ولذا لقب بالأزهري، حيث يشير الكاتب إلى أن تلك الثورة التي شارك فيها الأزهر الشريف بقوة، وكان الأزهر هو الملتقى الدائم للثوار، كما كان طلبته وعلماؤه في الطليعة، ومن أول الضحايا الذين استهدفوا من طرف القوات البريطانية طلاب الأزهر، عندما قاد الطلاب المظاهرات بعد صلاة الجمعة ١٣ مارس ١٩١٩م فأطلقت المدرعات البريطانية النار على المتظاهرين وقتلت منهم اثنتا عشر متظاهرًا من طلاب وعلماء الأزهر(١)، واختلطت الدماء المصرية والعربية من الشوام والمغاربة معًا دفاعًا عن الأوطان والمقدسات الإسلامية.

فقد كان الطلبة الجزائريون يقيمون في رواق المغاربة وهو أحد أهم وأكبر(٢) أروقة الأزهر الشريف(٣)، وكان يطلق اسم رواق المغاربة مجازًا على كل الوافدين من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وهذا البحث يركز على الطلبة الجزائرين فحسب وليس كل المغاربة.

رواق المغاربة، كان يعكس التفاعل الثقافي المصري والشرقي مع ثقافة المغرب، ودليل حضاري وتاريخي واضح، على كون أن روح مصر تعيش في بلاد المغرب، وأن عقل بلاد المغرب يعيش في مصر.

=الرحلات العلمية وأثرها في الحركة الإصلاحية الجزائرية (١٩٠٠-١٩٥٤م)، عمان الأردن - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ٢٠١٧م، ٥٠، ٥٩، ٧٠.

(١) https://arabi21.com/story/1169064

(٢) بلغ عدد أروقة الأزهر الشريف تسعة وعشرون (٢٩) رواقًا، انشأها السلاطين والأمراء والعظماء وخصص معظمها للطلاب الفقراء والمنقطعين لطلب العلم، وكان معظمهم من الأغراب الذين لامأوى لهم، وكان لكل رواق شيخًا يعتبر بمثابة رئيس يدير مصالح الرواق، يعاونه وكيل يقوم مقامه في غيبته، كما يساعدهما نقيب الرواق وهو من الطلاب القدامى ويتولى توزيع الجراية وأخذ الغياب والحضور وغير ذلك.

(٣) محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، الجزائر - موقم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٠م، ١: ٢٠١-٢٠٢.

وكان كثير من الطلبة الجزائريين الذين يدرسون في الأزهر متأثرون بأفكار الحركة السياسية المصرية، ويرسلون أخبار ثورة ١٩١٩م إلى ذويهم في بلادهم سرًا [١].

كان هؤلاء الطلبة متأثرين بأفكار شيخهم الأزهري، الشيخ محمد بخيت المطيعي (١٨٥٤-١٩٣٥م) أحد علماء الأزهر الشريف، وكان مجاهدًا وطنيًا وكانت له بصماته الأصيلة الواضحة في مجال القضايا السياسية، فقد كان الشيخ المطيعي يواصل اهتماماته السياسية ومشاركاته الفاعلة في العمل الوطني لمواجهة أعداء الأمة، من خلال تدريسة للطلاب ومشاركاته السياسية، ومقابلته للسفراء الأجانب في مصر وأبلغهم قرار الوطنيين المصريين بما تنويه مصر من الجهاد في سبيل الاستقلال، وكان على رأس الداعين إلى الجهاد إبان ثورة ١٩١٩م خلال سفر سعد زغلول إلى فرنسا[٢]، ولما علم سعد زغلول بدور الشيخ المطيعي قام بإرسال رسالة له من باريس في ٢٦ يناير ١٩٢٠م شكره فيها على دوره الوطني[٣] وقد انعكس حماس ووطنية الشيخ المطيعي على طلابه وكان له تأثيرًا قويًا عليهم بصفة عامة والجزائريين منهم بصفة خاصة.

حتى أن الكاتب الجزائري سعيد بويزري[٤] يصف علاقة الحافظي باستاذه المطيعي فيقول: «تأثر به (أي تأثرالحافظي) أيما تأثر، كان لايذكره إلا بالإعجاب والتقدير، ... ويضيف كان غيثًا من العلم منهمرًا، وأخلص ونبغ كل من تتلمذ على يديه»[٥] أخذ الحافظي عن أستاذه الجهاد بالفكر والقلم واللسان

---

(١) محمد الصالح آيت علجت: المرجع السابق، ١: ١٩-١٠١.

(٢) ostmubasher.aljazeera.net

(٣) Ibid.

(٤) سعيد بويزري، أستاذ الشريعة والقانون بكلية الحقوق والعلوم السياسية، بجامعة مولود معمري تيزي وزو، بالجزائر.

(٥) سعيد بويزري: عبد الحميد بن باديس باني النهضة العلمية والفكرية بالجزائر (١٨٨٩-١٩٤٠م)، الجزائر ٢٠١٨م، ٢، ٣.

وبعد اندلاع ثورة١٩١٩م، تخوف البريطانيون من وجود الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في الأزهر لمشاركتهم في الثورة، فترصدت حركتهم وشددت عليهم الرقابة، ولم يمض وقتًا طويلاً حتى اصدرت السلطات البريطانيه في مصر أوامرها بضرورة مغادرة (الأجانب)غير المصريين من مصر ولعل ما يؤكد ذلك، إصدار السلطات البريطانية في مصر قرارًا بطرد الشيخ مولود الحافظي الجزائري من مصر، وورود اسمه في القائمة السوداء التي أرسلتها تقارير المخابرات الفرنسية من مصر، إلى السلطات الفرنسية في الجزائر، تضمنت أسماء الطلبة الذين تعتبرهم عناصر قد تشكل خطرًا على أمن الدولة الفرنسية في الجزائر[١].

وكان من الطلبة الجزائريون الذين درسوا في مصر وشارك في ثورة ١٩١٩م بخلاف الشيخ الحافظي، الشيخ الرزقي الشرقاوي الأزهري[٢] ، وعندما حاول العودة إلى الجزائر ضيق عليه الاستعمار الفرنسي الخناق، لأنه كان يندد بهم ويهاجمهم ويهاجم أذنابهم من الخونة والمرتدين الذين باعوا دينهم ووطنهم بأبخث الأثمان، وتنكروا لأصالتهم وأمجاد أوطنهم[٣] ، ولذا لم يستطع العودة للجزائر إلا في عام ١٩٣٣م[٤].

وكانت السلطات الفرنسية في الجزائر مهتمة، جدًا برصد تحركات الطلبة والعلماء الجزائريين المقيمين في الأزهر، فتعددت لذلك التقارير بين هذه المخابرات على السلطات الفرنسية في الجزائرلمراقبة الطلبة الجزائريين حتى لا ينقلوا روح الثورة

---

(١) see also https://https://morchid.yoo7.com/t1482-topic

www.echoroukonline.com/%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A2%D8%AB-%D8%AD%D8%A7%D9%81%D8%B8-

(٢) الشيخ الرزقي الشرقاوي الأزهري، الذي ولد بمنطقة جبال جرجرة عام ١٨٨٠م، وحصل على شهادة العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٢١م، وتوفي في عام ١٩٤٢م.

https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php 145388

(٣) https://www.ccdz.cerist.dz/admin/notice.php?id=

(٤) Ibid.

المصرية إلى الجزائر، ومنها تقرير الرائد قاضي المتضمن قائمة إسمية من بينهم المولود الحافظي، الذي كان عنصرًا مهمًا في تلك الثورة، وعندما قرر العودة إلى أرض الوطن (الجزائر) عام١٩٢٢، فوجئ بتوقيفه عند الحدود التونسية، ومنعه من الدخول إلى الجزائر، إلا بتقديم عائلته ضمنات تتعهد بموجبها بعدم مزاولته لنشاطات سياسية ضد فرنسا، فتكفل الشيخ الخرشي إمام منطقة بنى أث وارثيلان بقضيته - هي منطقة الشيخ الحافظي - واتصل بالقائد المسئول عمر بن عبيد، الذي تفهم وضع الحافظي، فتوسط له لدى الإدارة الفرنسية التي وافقت بشرط الالتزام وعدم الخروج على السلطات الفرنسية[١] . وعلى أثر ذلك سمح له بالدخول إلى أرض الوطن بعد غياب دام ستة عشر عامًا (١٩٠٦-١٩٢٢م)، قضى معظمها في مصر وبعضها في تونس.

وعلى الرغم من ذلك، فإن نشاط الحافظي الوطني والسياسي لم يتوقف فقد كتب مقالة في صحيفة «الشهاب» الجزائرية[٢]عام ١٩٢٦م دعا فيها إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين، و شرع الحافظي في البحث عن رفقة من علماء الجزائر في إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كان في مقدمتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس[٣] ، والبشير الإبراهيمي[٤] ،

(١) Par Mahfoud Kaddche,Histoire du natonalisme rien Question nationale et politiqueal- gerienne,sned,Alger,1981,pp370-371

وانظر أيضًا: محمد الصالح آيت علجت: المرجع السابق، ٧٨.

(٢) صحيفة الشهاب، صحيفة أسبوعية كانت تصدر باللغة العربية، انشأها عبد الحميد بن باديس عام ١٩٢٤م مبدأها الإصلاح الديني والدنيوي للجزائريين وبعد أن بلغت من الأعداد ١٦٨ عددًا في أربع سنوات حولت عام ١٩٢٨م إلى مجلة شهرية واستمرت كذلك حتى أغلقت في عام ١٩٣٩م http://www.alukah.net

(٣) عبد الحميد بن باديس، من رجال الإصلاح في الوطن العربي، ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر، ولد في قسنطينة في٤ ديسمبر ١٨٨٩م، وتوفي في ١٦ أبريل ١٩٤٠م.وأصبح رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين.

(٤) البشير الأبراهيمي، من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، ومن العلماء العاملين في الجزائر، ولد في رأس الوادي في ١٩ يوليو ١٨٨٩، وتوفي في سطيف في ٢٠ مايو ١٩٦٥م.

والطيب العقبي[١] ، وعندما تجسدت الفكرة أخيرا مع كوكبة من ٧٢ عالمًا، ظهرت للنور عام ١٩٣١، وكان بعضهم شارك في ثورة ١٩١٩، علاوة على التأثر الكبير الذي لحقهم جميعًا من حركة الاصلاح الديني في المشرق العربي عموما التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان وغيرهم[٢] .

بعد عام واحد انسحب الحافظي من الجمعية بسبب وجود تيار متشدد يقوده الشيخ الطيب العقبي الذي عاش في الحجاز وكان يريد تطبيق النموذج الحجازي في الجزائر، وأمام هذا الإختلاف انسحب الشيخ الحافظي من الجمعية وأسس جمعية أخرى تعرف بجمعية علماء السنة[٣] ، وكان الحافظي يقوم بالتدريس لطلبة العلم في بيته، ثم في بعض الزوايا، مثل زاوية عبد الرحمن اليلولي، وزاوية عبد الرحمن الحملاوي، والمعهد الكتاني بقسنطينة، وكان يغرس فيهم حب الوطن، وكان دائمًا يقول للطلبة (أنتم أمل الجزائر)، كما اتسم فكره بالوطنية فقد كان يدعو لتوحيد الصف الجزائري ونبذ الفرقة[٤] ، ورفض الواقع الذي فرضه الاحتلال الفرنسي، وكان يدفع طلابه واتباعه على أن يصروا على التغيير بقدر استطاعتهم، وأن ينهضوا فوق الأحداث ويهتموا بتربية أبنائهم حتى يكونوا عدة للمستقبل[٥] ، كما دعا الحافظي في سلسلة مقالاته التي نشرها في صحف النجاح و الشهاب والمنتقد تحت عنوان « العلم والأدب وحالة الجزائر» عن الإصلاح والمصلحين إلى

---

(١) الطيب العقبي، أحد الأعلام البارزين في الفكر الإصلاحي الجزائري، والحركة الوطنية الجزائرية، ولد بجبل (أحمر خدو) وقد اختلف المؤرخون حول العام الذي ولد فيه، و يرجح أنه ولد عام ١٨٨٩م في سيدي عقبة ببسكرة الجزائر، وتوفي في ٢١مايو ١٩٦٠م.

(٢) ناصر الحكيم: جدلية الفكر والعمل عند الأمير شكيب أرسلان «دراسة تاريخية فكرية نقدية»، لبنان - الدار التقدمية ٢٠١٠م، ١٥٣.

(٣) محمد الصالح آيت علجت: المرجع السابق، ٨٩.

(٤) https://sawtsetif.com/v/468/

(٥) https://sawtsetif.com/v/468/ see also: https://binbadis.net/archives/7011

معرفة أسقام الأمة والإخلاص في معالجتها[١].

كما عنى الحافظي برفض التجنيس والإندماج الذي قال فيه: «نصرة الدين وتقوى الله وطاعة الله ورسوله فيما جاءت به الشريعة السمحة، وهي شروط العزة والسيادة والقوة والسلطان. والذين ضيعوا عزة الله وضاعت منهم العزة وهي في متناول أيديهم وفي إمكانهم الحصول عليها، أصبحوا يطلبونها بطريق التجنيس، عليهم أن يكونوا أعزاء مثل الذين يلحقون بهم، وينتسبون إليهم في عزتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى مكر بهم، ورد كيدهم في نحورهم بجعلهم أذلاء للذين حاولوا المساواة بهم في عزتهم»[٢].

وقد كان لميلاد جمعية العلماء المسلمين، التي نهل أعضائها من ثقافة الأزهر، من خلال مشاركتهم الكبيرة في ثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول، الأثر الأبرز في الحفاظ على الشخصية العربية المسلمة في الجزائر من الذوبان، وفي تحريك وصناعة وعي جديد أكمل التيارات الوطنية الأخرى، حيث ركزت بشكل ذكي عبر تحركاتها ومدارسها التعليمية ومنابرها الإعلامية التي انطلقت حتى قبل تأسيسها مثل صحيفة (المنتقد) في عام ١٩٢٥م[٣] ثم صحيفة (الشهاب) في ١٩٢٦، في الدفاع على العقيدة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ والتقاليد والعادات الجزائرية، فقد كتب عبد الحميد ابن باديس مقالات أكد فيها أهمية مشاركة العلماء في العمل السياسي، متأثرًا بعلاقاته مع مجموعة من العلماء المصريين أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعي. ونجح بن باديس في عقد مؤتمر عام ضم مختلف الأحزاب والاتجاهات الفكرية في الجزائر[٤]، وشكلت بذلك الأرضية العقائدية لاندلاع ثورة التحرير الكبرى عام ١٩٥٤، حيث تبوأ الكثير

---

(١) محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ٢٠١.

(٢) صحيفة الشهاب، العدد ١٧٢، فبراير ١٩٢٨م.

(٣) أغلقها الاستعمار الفرنسي بعد صدور ١٨ عدد منها، بسبب تبنيها خطًا ثوريًا مستفزًا للاستعمار.

(٤) ROBERT, R Palmer,op.cit pp24-27.

من خريجي الجمعية مناصب قيادية في جيش التحرير الجزائري، علاوة على قاعدته البشرية، هكذا كان للطلبة الجزائريون الذين تعلموا ودرسوا في الأزهر الشريف دور مهم ومؤثر ومباشر في الحركة الوطنية الجزائرية.

ثورة مصر وظهور مقاومة الأمير خالد ومصالي الحاج

من المؤكد أن تزامن الثورة المصرية الكبرى ١٩١٩م، مع ميلاد حركة الأمير خالد[١] الاستقلالية، ومطالبه الثورية، داخل الجزائر وفي بلاد المهجر، لم يكن صدفة، عبر تأسيس جمعية الأخوة الجزائرية عام ١٩١٩م، التي تطورت بعد سنوات قليلة من المطالبة بالمساواة ليرفع في وجه فرنسا الاستعمارية المطالبة بالاعتراف باستقلال الجزائر لأول مرة، ويتحدى به الاستعمار الفرنسي، ويطالب بإنشاء حكومة وطنية برلمانية مع التمثيل النيابي في المؤسسات[٢].

وهذه المطالب تتوافق مع مطالب سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩م في مصر والتي ظفر بها وتشكلت حكومة الشعب عام ١٩٢٤م بزعامة سعد زغلول. وعلى الرغم من أننا لم نجد في الوثائق ما يشير إلى إلتقاء سعد زغلول بالأمير خالد مباشرة وجهًا لوجه، ولكن نستدل عن أثر فكر سعد زغلول على الأمير خالد، عن طريق شكيب أرسلان[٣]، حيث كان شكيب أرسلان صديقًا لسعد زغلول، وعلى وفاق مع حزب الوفد في مصر، وقد كانت صلة شكيب أرسلان بالجزائر قديمة

---

(١) الأمير خالد، ولد بمدينة دمشق بسوريا في ٢٠ فبراير ١٨٧٥م وتوفي في ٩ يناير ١٩٣٦م.

(٢) بسام العسيلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، بيروت - دار النفائس ١٩٧٠، ١٤-١٩.

(٣) شكيب أرسلان، كاتب وأديب عربي لبناني، اشتهر بلقب أمير البيان بسبب كونه أميرًا وشاعرًا، بالإضافة لكونه سياسيًا. كان يجيد اللغة العربية والتركية والفرنسية والألمانية. ألتقى بالعديد من المفكرين والأدباء خلال سفرياته العديدة مثل جمال الدين الأفغاني والمناضلين العرب في البلاد العربية، ولد في لبنان في ٢٥ ديسمبر ١٨٦٩م وتوفي في ٩ديسمبر ١٩٤٦م. انظر، محمد قنانش، ومحفوظ قداش: نجم الشمال الأفريقي (١٩٢٦-١٩٣٧م)، وثائق لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٤٨م، ١١٨.

تعود أصلاً إلى معايشته لجاليتها في الشام، ثم لقاء بعض الجزائريين في مصروفي باريس[(١)] ، هكذا كان شكيب أرسلان بمثابة حلقة الوصل لنقل أفكار سعد زغلول للزعماء الجزائريين، كل ذلك أدى أن يكون هناك اهتمامًا مشتركًا وثقة متبادلة بينه وبين هؤلاء الجزائريين ومنهم الأمير خالد، ومصالي الحاج وعبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي وغيرهم، هكذا كانت رمزية سعد زغلول ملهمة للزعماء الجزائريين.

كما كانت صلة شكيب أرسلان بإيطاليا وألمانيا عدوتي فرنسا وبريطانيا تشجعه على المضي في مد يد العون للحركات الوطنية في المغرب العربي، مما جعله يقدم خدمة جليلة لقضية الجزائر في إطارها العربي الإسلامي بقدر ما ساهم في انقاذ الجزائريين من الإندماج في الكيان الفرنسي، ومن خلال هذا التأثير غير المباشر انتقلت أفكار سعد زغلول للزعماء الجزائريين وفي مقدمتهم الأمير خالد.

ونستطيع أن نرصد أيضاً أن التوافق بين سعد زغلول والأمير خالد، كان في تزامن الوعي السياسي لدي الزعيمين في بدايه عام ١٩١٩م، حيث أعلن سعد زغلول عن تشكيل وفد مصري للمشاركه في مؤتمر الصلح بباريس، وأعلن أيضًا الأمير خالد عن تشكيل وفد جزائري للمشاركه في نفس المؤتمر، ويمكن أن نطلق عليه توارد الأفكار ومن هنا يأتي التأثير والتأثر، وعلى غرار ذلك تشكلت الوفود العربية الأخرى مثل الوفد العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، والوفد التونسي بقيادة عبد العزيز الثعالبي وغيرهم[(٢)].

يعتبر الأمير خالد مؤسس الحركة الإصلاحية في الجزائر، فقد عمل على استثمار الرصيد النضالي لجده الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨-١٨٨٣م) للوقوف في وجه السياسة الفرنسية الاستعمارية.

---

(١) ناصر الحكيم: المرجع السابق، ٩٧-٩٩.

(٢) https://arabi21.com/story/1169564

بدأ نشاطه السياسي في التصدي لدعاة الإدماج والداعين إلى التجنس بالجنسيه الفرنسيه، أسس الأمير خالد «صحيفة الإقدام» عام ١٩٢٠م للتعبير عن أفكاره، والدفاع عن فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق السياسية، وإنشاء «جمعية الإخوة الجزائرية»، إلا أن السلطات الفرنسية قامت بنفي الأمير خالد إلى مصر في يوليو ١٩٢٣ واستقبل بحفاوة كبيرة، ولكن نفي الأمير خالد لم ينه نشاطه السياسي، ومن منفاه أرسل رساله إلى إدوارد هيريو (Herriot)[١] رئيس وزراء فرنسا عام ١٩٢٤م أكد فيها من جديد على المطالب الأساسية للجزائريين[٢]، وهكذا يتضح أن هناك جملة من العوامل التي أثرت إيجابيا في تكوين الأمير خالد وتحصيله سياسيًا ووطنيًا، يمكن نجملها في النقاط التالية:

١ – انتسابه إلى عائلة الأميرعبد القادر الجزائري ذات المرجعية الدينية.

٢– اعتماده على المرجعية التاريخية لعائلته.

٣– نفيه إلى مصر إبان ذروة ثورة ١٩١٩م، ومعايشته للحركة السياسية المصرية اكسبته حنكة سياسية.

لقد كانت حركة الأمير خالد الإحيائية ثم الاستقلالية، متأثرة بالتوجه العربي، حيث وقفت حركته في وجه الاندماجيين الذين لم يكونوا يعيرون بالاً للغة العربية والدين الإسلامي، من أمثال فرحات عباس[٣]، وطالب بضرورة تعليم الجزائريين اللغة العربية، وجعلها إجبارية في المدارس، وكانت تلك المطالب تعبيرًا صادقًا على

---

(١) إدوارد هيريو، Edouard Herriot رئيس وزراء فرنسا (من ١٥ يونيو ١٩٢٤م إلى ١٧ أبريل ١٩٢٥م.

(٢) بسام العسيلي: المرجع السابق، ٢٢-٣٠.

(٣) عباس فرحات، زعيم سياسي جزائري، مؤسس الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وعضو جبهة التحرير الوطني إبان حرب التحرير الجزائرية، وكان زعيم الاتحاد الليبرالي الاندماجي في إطار فيدرالية فرنسية جزائرية عام ١٩٢٧م، وكان ينادي بالمساواة والأدماج، ولد في ٢٤ أغسطس ١٨٩٩م في بلدية الشحنة بالجزائر، وتوفي في ٢٤ ديسمبر ١٩٨٥ بالجزائر.

رفض مساعي فرنسا الدائمة لفصل الجزائرعن محيطها العربي بكل تفاصيله، ما جعل من حركة الأمير خالد، التعبير الأبرز والعملي لمدى التأثير الذي لعبته الثورة المصرية الكبرى ثورة ١٩١٩م في إحياء روح القومية العربية لدى الجزائريين من جديد.

ورغم ما تلقاه الأمير خالد من صنوف التهجير والتضييق، فقد تمكن من بث روح جديدة ومتجددة في الجسد الجزائري، الذي أنهكته سياسة الفرنسة والتجهيل، لتمهد الطريق أمام الأجيال القادمة، المتشبعة بقيم العروبة والإسلام، علاوة على الحس الوطني ومطالب الاستقلال.

ولعل من أبرز ثمار هذا التوجه الاستقلالي المقاوم للاستعمار الفرنسي، الذي هبت ريحه من الداخل اعتمادا على الثورات الشعبية التي لم تتوقف قط، وزادته الثورة المصرية ١٩١٩م تأصيلاً، هو ظهور الزعيم مصالي الحاج[١] ، وهو من الشباب الجزائريين الذين جندتهم فرنسا في الحرب العالمية الأولى للمساعدة في حروبها الاستعمارية، وعاد إلى الجزائر مع رفاقه وكله أمل في حصول بلاده الجزائر على الحرية والاستقلال، الملقب بأبو الوطنية الجزائرية، من خلال تأسيسه مع مجموعة من إخوانه، «حزب نجم شمال أفريقيا في مارس ١٩٢٦م، وكان ينادي باستقلال الجزائر منذ العشرينيات متمسكًا بالعمل السياسي معارضًا للكفاح المسلح»[٢].

كان مصالي الحاج من أوائل من نطقوا بكلمة «الاستقلال» عام ١٩٢٦م بعد تأسيس حزب نجم شمال أفريقيا، الذي تم تحويله إلى حزب الشعب الجزائري ١٩٣٧م، وبعد تحويله دعا إلى وحدة دول الشمال الأفريقي كافة، وتحقيق حلم الوحدة بين دوله العربية، لتنبت بذلك فكرة المغرب العربي الكبير، من دون أن تكون مصر منفصلة عن هذا الطرح الوحدوي الذي سبق عصره، وترك أرضية حقيقية نحو

---

(١) مصالي الحاج، ولد في مدينة تلمسان في ١٦ مايو ١٨٩٨م وتوفي في ٣ يونيو ١٩٧٤م.

(٢) بنيامين سطورا: مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤م) رائد الوطنية الجزائرية، ترجمة صادق عماري، مصطفى ماضي، الجزائر - دار القصبة للنشر ١٩٩٩م، ٥٤-٥٧.

الوحدة العربية الشاملة[١] ، غير أن الدولة الوطنية ما بعد الاستقلال فشلت في استثمارهذا الطرح العروبي، وانهارت أمام الطرح الاستعماري في التفتيت والتجزئة والتقسيم

ومن المعالم المساهمة في اليقظة الجزائريه وقتئذ، بروز حركة صحيفة وطنية نشيطة عالجت القضايا الجزائرية، ومن هذه الصحف نذكر صحيفة «النجاح» التي أسسها عبد الحميد بن باديس عام ١٩١٩م، وكان لها دور ثقافي وتوعوي للشباب الجزائري، وصحيفة «الإقدام» التي أسسها الأمير خالد عام ١٩٢٠م، ثم صحيفة «لسان الدين» التي أسسها الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي في تلمسان عام ١٩٢٣م بالإضافة إلى صحيفتي «الشهاب» و«المنتقد» الذي أسسهما عبد الحميد بن باديس - المنتقد عام ١٩٢٥م والشهاب ١٩٢٦م - بهدف تسليط الضوء على أخطار الاستعمار الفرنسي للوقوف في وجه مخططاته[٢] ، وسعيًا منه لإحداث هزة عنيفة في ثقافة وفكر الشعب الجزائري، أما صحيفة «صدى الصحراء» التي أسسها الشيخ أحمد بن العابد العقبي عام ١٩٢٥م بمدينة بسكرة، فقد كانت تهاجم الصحف المسالمة للحكم الفرنسي وتحث الشباب على الروح الوطنية[٣] .

ولاشك أن كثير ممن كتبوا في هذه الصحف ذهبوا إلى مصر واحتكوا وتأثروا بالحركة الوطنية المصرية، وكتبوا عن الإضطرابات التي كانت تحدث في مصر ومناهضة المصريين للإحتلال البريطاني، وهذه الأخبار كانت أكثر تأثير في النخبة الجزائرية الوطنية المثقفة أمثال الأمير خالد، ومصالي الحاج، وعبد الحميد بن باديس وغيرهم، التي جعلتهم يكتبون المقالات التي تبث الحماس في الشباب الجزائري للتخلص من الاحتلال الفرنسي، وسوف تجني الجزائر ثمار ذلك بقيام ثورة أول نوفمبر عام ١٩٥٤م.

---

(١) بنيامين سطورا: مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤م) رائد الوطنية الجزائرية، ٦٠، ٦٤.

(٢) صحيفة المنتقد، السنة الأولى، العدد الأول، ١٩٢٦م.

(٣) عطلاوي عبد الرزق: المرجع السابق، ٨٢، ٨٤.

الخاتمـة

لقد كانت ثورة عام ١٩١٩م في مصر بزعامة سعد زغلول، أول ثورة تقوم في بلد عربي ضد الاستعمار الأجنبي في اعقاب الحرب العالمية الأولى، وقد فاجأت بقيامها الجميع وكانت بمثابة صدمة عنيفة لبريطانيا التي خرجت لتوها منتصرة في الحرب العالمية الأولى، ثورة تحدت القوى الكبرى في العالم، بل وأبهرت العالم بقيامها وبجرأة قيادتها وشعبها.

وقد غيرت ثورة عام ١٩١٩م التاريخ، فالأحداث قبلها تختلف عن الأحداث بعدها، لقد أثارت بقيامها الشعوب في معظم البلاد العربية للقيام بثورات مماثلة، فهي بمثابة ثورة ملهمة للجميع وانطلاق لمرحلة جديدة في عالمنا العربي ونموذجًا اهتدى به الثوار في العالم العربي لمقاومة الاستعمار بكل صوره وأشكاله بصفة عامة، والجزائر في مقاومة الاستعمار الفرنسي بصفة خاصة.

ويتضح مما سبق مدى تأثير ثورة عام ١٩١٩م على الحركة الوطنية الجزائرية تمثل فيما يلي:

- تأثرالطلاب الجزائريين الذين كانوا يدرسون في الأزهر الشريف ونقلوا روح الثورة إلى بلادهم، ومن أبرز هؤلاء الشيخ مولود الحافظي الذي لعب دورًا كبيرًا سواء في مشاركته في ثورة ١٩١٩م في مصر وشارك مشاركة مباشرة، أوفي مشاركته في الحركة الوطنية الجزائرية بعد عودته إلى بلاده من خلال نشر الوعي السياسي بين الطلاب من خلال تدريسه لهم، أو من خلال دوره في نشأة الأحزاب السياسية، أو خلال المقالات التي كان يكتبها في الصحافة الجزائرية.

- احتكاك الكثير من المثقفين والوطنيين الجزائريين، أمثال الأمير خالد الجزائري الذي كان منفيًا إلى مصر وكان على صلة بالحركة الوطنية السياسية المصرية، والشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان على علاقة بمجموعة من العلماء المصريين، أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعي.

- من خلال الشوام الذين كانوا بمثابة حلقة الوصل بين مصر والجزائر مثل شكيب أرسلان الذي كان على علاقة طيبة بسعد زغلول وحزب الوفد المصري، وكذلك على علاقة بالأمير خالد الجزائري وغيره من الوطنيين الجزائريين.

- تأثر الصحافة الجزائرية التي كانت تنقل أخبار الثورة في مصر ضد الاحتلال البريطاني مثل صحف النجاح والشهاب والمنتقد والإقدام وغيرها من الصحافة الجزائرية.

- هكذا كانت ثورة عام ١٩١٩م ثورة امتد تأثيرها إلى الثوار الجزائرين، تأثيرًا آنيًا فقد كان سعد زغلول ملهم لغيره من الثوار، فقد كان يجمع في شخصه نضال أمة بأسرها

يبقى التأثير الكبير الذي ظل مؤجلا، هو في اندلاع ثورة الجزائر المجيدة في نوفمبر١٩٥٤م، والتي كان صوتها الإعلامي الأكبر يخرج من قلب القاهرة عبر «صوت العرب»، وامتد صداها واسعًا في العالم، وكانت السبب المباشر في استقلال عدد كبير من الدول العربية والأفريقية.

المجلة التاريخية المصرية ٥٤ (٢٠٢٠) ١٨٩ـ٢٢١

دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي

ماجد الحسيني الحارثي*

ملخص

مما لا شك فيه أن تشكيل المشرق العربي من خلال نشأة وقيام الدول العربية فيها في العصر الحديث قد ارتبطت بشكل وثيق للغاية بسقوط الدولة العثمانية، والظروف التي خلقها وقوع المنطقة العربية تحت هيمنة القوى الاستعمارية الأوروبية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث لعبت مختلف العوامل والمكونات الاجتماعية والسياسية العربية في ذلك الوقت دورًا بالغ الأهمية ومتعدد المظاهر والأشكال والاتجاهات في رسم ملامح الدول العربية الناشئة بعد ذلك.

لقد شهدت فترة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي بروز المكونات الاجتماعية والسياسية الفاعلة، والتي اتخذت صورًا عرقية وقومية وعشائرية، وأخرى دينية، طائفية ومذهبية، فضلًا عن بروز الحركات والتيارات السياسية ذات التوجهات الأصولية الدينية والتوجهات الليبرالية والتوجهات القومية والتحررية، بالإضافة إلى بروز العديد من الشخصيات والزعامات السياسية التي سطعت أسمائها في تلك الفترة، وكان لها دور بالغ الأهمية في التأسيس والبناء والتكوين لعدد من الدول العربية

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم التاريخ – جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

في منطقة المشرق العربي، وخاصة الدول ذات النظام الملكي والإمارات العشائرية في الجزيرة العربية والعراق والشام، خاصة وأن أغلب التوجهات السياسية آنذاك كانت تتجه نحو النظم الملكية، قبل أن تأتي الظروف المغايرة التي سمحت للنظم الجمهورية في الظهور بعد ذلك.

وإن لمن المهم لإدراك ومعرفة كيف نشأت وتطورت الأنظمة والدول العربية في العصر الحديث، دراسة طبيعة وماهية المكونات والتيارات والتنظيمات والهويات التي نشطت في تلك الفترة، نظرًا لما في ذلك من قيمة موضوعية وتاريخية تكشف عن الدروس والتجارب التي يمكن الاستفادة منها في مواجهة التحولات والإرهاصات التي تشهدها المنطقة العربية في العصر الراهن.

وبناءً على ذلك، اختار الباحث أن يكون هذا البحث بعنوان: «**دور المكونات الاجتماعية في تشكيل دول المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي**».

والمكونات الاجتماعية كثيرة ومتعددة ومتباينة، لكن اتجاه البحث ينحصر في دراسة أدوار ومساهمات المكونات الاجتماعية التي عكست آنذاك واقع التنوع العرقي وطبيعة المجتمع (الحضري، القبلي)، خاصة في ظل المواقف والاتجاهات المتباينة لتلك المكونات إزاء السياسات الاستعمارية الأوروبية التي بسطت نفوذها على المنطقة العربية في تلك الفترة.

وتفصل هذه الأدوار في **مبحثين أساسيين** هما :

أولا: دور التنوع العرقي في مجتمع المشرق العربي.

ثانيا: دور المكونات الحضرية والقبلية.

فرضية البحث

وتتمثل في أن للمكونات الاجتماعية العربية في النصف الأول من القرن العشرين

دورًا بالغ الأهمية ومتعدد المظاهر والأشكال والاتجاهات، ساهم في رسم ملامح الدول العربية الناشئة.

أهمية البحث

وتكمن في إبراز الدور الذي لعبته المكونات الاجتماعية في تشكيل المشرق العربي في تلك الفترة، سواء أكانت متماهية مع الاستعمار أو مقاومة له.

Abstract

There is no doubt that the formation of the Arab Mashreq through the emergence and establishment of Arab countries in it in the modern era has been very closely linked with the fall of the Ottoman Empire, and the conditions created by the fall of the Arab region under the domination of European colonial powers after the end of the First World War, where various factors and social components played Arab politics at that time played a very important and multi-faceted, shapes and trends in shaping the features of the emerging Arab countries after that.

The period of the first half of the twentieth century AD witnessed the emergence of active social and political components, which took ethnic, national, and tribal forms, as well as religious, sectarian and sectarian forms, in addition to the emergence of political movements and currents with religious fundamentalist tendencies, liberal tendencies, and nationalist and liberal orientations, In addition to the emergence of many personalities and political leaders who shone their names in that period, and had a very important role in the foundation, construction and training of a number of Arab countries

in the Arab Mashreq region, especially the countries with the monarchy and the tribal emirates in the Arabian Peninsula, Iraq and the Levant, especially since most of the trends Politics at that time were moving towards monarchies, before the different conditions that allowed republican regimes to emerge after that came.

It is important to understand and know how the Arab regimes and states emerged and developed in the modern era, to study the nature and nature of the components, currents, organizations and identities that were active in that period, given the objective and historical value that reveals the lessons and experiences that can be used in the face of the transformations and the precursors they are witnessing. The Arab region in the current era.

Accordingly, the researcher chose to have this research entitled: "The Role of Social Components in Shaping the Countries of the Arab Mashreq in the First Half of the Twentieth Century AD".

The social components are many, multiple and varied, but the direction of the research is limited to studying the roles and contributions of the social components that at that time reflected the reality of ethnic diversity and the nature of society (urban, tribal), especially in light of the differing positions and trends of these components vis-à-vis the European colonial policies that extended their influence on the Arab region in that Period.

These roles are separated into two main topics:

First: The role of ethnic diversity in the Arab Mashreq society.

Second: the role of the urban and tribal components.

*
* *

المقدمة

تفاوتت التركيبة الاجتماعية بين بلدان المشرق العربي (العراق، بلاد الشام، مصر، الجزيرة العربية) من حيث التعددية والتنوع العرقي من جهة، ومن حيث طبيعة المجتمع الحضرية والبدوية والطابع القبلي والعشائري من جهة أخرى، ومع ذلك فإن هذا التفاوت لم يخل من بعض القسمات المشتركة بين هذه الأقطار العربية، والتي تفاوتت بدورها بين قطر وآخر، الأمر الذي لابد وأنه انعكس على دور هذه المكونات في بناء وتكوين الدولة العربية المعاصرة في النصف الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت الكثير من التحولات الحاسمة في الاتجاه الذي رسمته القوى والحركات الوطنية ذات التوجه التحرري والمناوئة للاستعمار والمشروعات الامبريالية التي كانت طاغية في تلك المرحلة.

لقد سادت في بداية مرحلة الانتقال من التقليدية إلى التحديث قيم اجتماعية وسياسية متباينة بين الوحدات الاجتماعية والسياسية، حيث احتاجت البيئة الداخلية في هذه الأقطار العربية إلى نوع من التصالح أو بناء تنشئة سياسية جديدة، واتصفت علاقات نظام الحكم مع القوى الغربية بنوع من التبعية والاسترضاء والتوافق المتبادل(١).

يرى الباحث، أن الطابع البدوي العشائري والقبلي والذي غلب عليه العنصر العربي كان الأكثر سيادة وشيوعًا في معظم أقطار المشرق العربي ذات الطبيعة الصحراوية في وسط وشمال الجزيرة العربية وأجزاءً من العراق وبلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى الطابع القروي والريفي الذي وجد في المقابل في المناطق التي اعتمدت

---

(١) باسم الطويسي: دور العوامل الاجتماعية في التجنيد السياسي – دراسة في النخب الحكومية الأردنية في بداية مرحلة التحديث، عمّان – جامعة الحسين بن طلال، ٢٠١١، ٩.

دومًا على الإنتاج الزراعي، في والعراق وبلاد الشام ومصر، وهذه الأخيرة ارتبطت بالمكونات العرقية غير العربية كالأكراد والأرمن والكلدان والتركمان في العراق وسوريا، وأيضًا الأقباط في مصر، أما المكونات الحضرية فقد تركزت غالبًا في المدن والموانئ الرئيسية.

أولا: دور التنوع العرقي في مجتمع المشرق العربي

تعتبر الدولة المعادل الموضوعي للتنظيم البشري الحديث، إذ أن الدولة قد جاءت متزامنة مع الفرد والمجتمع، وذلك في سياق الاشكاليات المتعلقة بنشأتها وتطورها ومن ثم التساؤل عن وظائفها ووسائلها سواء في الظروف الزمانية أم المكانية، تحافظ بالضرورة على محتواها ما دامت هي ظاهرة اجتماعية عامّة(١). وهي الاشكالية التي تزداد تعقيدًا كلما ازدادت مظاهر التعددية والتنوع العرقي والطائفي بين سكان الدولة.

برزت اشكاليات التمايز العرقي في البلاد العربية بعد انهيار الدولة العثمانية ودخول المنطقة بشكل كلي تحت سيطرة النفوذ الاستعماري الأوروبي، بدرجات متفاوتة في الأقطار التي اتسمت بطابع التعددية والتنوع العرقي، وهي الاشكاليات التي اتخذت طابعًا من الحدة في العراق، كما كان لها أثرًا نسبيًا في توجيه مسار بناء الدولة العربية في حاضرة الشام ومصر أيضًا، في حين أن تلاشت هذه الاشكاليات في مناطق الجزيرة العربية وبادية الشام، نظرًا لكون أغلب السكان في هذه المناطق ينتمون إلى الأرومة العربية.

ومما لا شك فيه أن جملة من العوامل في المناطق التي تتسم بطابع من التعددية والتنوع العرقي يمكن أن تؤدي إلى ما يعرف بـ «عنف الأقليات»، والتي تشكل تهديدًا لأمن الدولة ووحدتها الوطنية، ناهيك عن بقاءها واستمرارها. كما أن تعامل

---

(١) عمر الحضرمي: «الدولة الصغيرة: القدرة والدور – مقاربة نظرية»، مجلة المنارة، المجلد (١٩)، العدد (٤)، (٢٠١٣): ٤٦.

الأنظمة السياسية مع جماعات الأقليات العرقية، يلعب دورًا هامًا في تحديد طبيعة العلاقة بين الطرفين، فالدول التي لا تراعي خصوصيات الأقليات وظروفها وأوضاعها قد تلجأ إلى اتباع سياسات تعامل قد تكون عواقبها وخيمة(١). فقد عانت هذه الدول من صراعات أثنية مهلكة، رافقها حالات واسعة من الهجرة واللجوء بسبب الصراعات والخلافات الاجتماعية والعرقية والإبادة الجماعيّة والافتقار إلى الأمن الداخلي، كان وراءها فقدان المؤسسات السياسية المستقرة، والتي اتسمت بالتقلبات الكثيرة وبغياب الشرعية الشعبية للأنظمة السياسية، الأمر إلى أدى غالبًا إلى العديد من الانقلابات العسكرية التي أتت بحكم يفتقد إلى الخبرة ويقوم في أساسه على العلاقات الشخصية والقبلية(٢). وهذا ما ينطبق على مسار الدولة العراقية الحديثة منذ نشأتها في عشرينيات القرن الميلادي الماضي.

يتألف سكان العراق من الناحية العرقية من مكونين رئيسيين هما المكون العربي والمكون الكردي، بالإضافة إلى مكونات عرقية أخرى تمثل أقليات استوطنت العراق منذ أقدم الأزمنة مثل التركمانية والآشورية والكلدانية والآرامية، وقد شكلت بمجموعها النسيج الاجتماعي للعراق(٣).

اعتمد قيام الدولة العراقية على توافقات نظام البنى الاجتماعية والجماعات الفاعلة والأنساق الأيديولوجية المرتبطة بهذه التشكيلات والبنى، إذ أن ظهور الدولة العراقية في أعقاب الحرب العالمية الأولى شكل انتقالية نوعية بعد قرون طويلة من الهيمنة العثمانية، التي تركت ورائها مجتمعًا ذا طابع عرقي وطائفي، فجاء الاستعمار البريطاني

---

(١) خيرة ويفي: تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، رسالة ماجستير ، قسنطينة – الجزائر: جامعة منتوري، ٢٠٠٥، ٢٥.

(٢) عمر الحضرمي: مرجع سابق، ٦٦.

(٣) إياد عايد والي البديري، التركيب الاثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة واستقرارها، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (١٣)، العدد (١)، (٢٠١٠): ١٤٨.

وعمل على بناء دولة جديدة تجمع خليطًا متعددًا من القوميات والطوائف التي لها تاريخها الخاص وثقافتها المباينة، في كيان دولة سياسية مركزية صنعها القرار البريطاني؛ وهو القرار الذي منح قيادة الدولة للأمير فيصل بن الشريف حسين، والذي قام بتأسيس جيش ساد فيه العنصر العربي وجرى اعتباره القوة الضامنة لوحدة الدولة المركزية، فضلًا عن استخدام هذا الجيش في تطويع الجماعات العرقية والدينية من أجل إذابة خصائصها القومية والثقافية في جسم الدولة الناشئة(١).

وسنأخذ النموذج الكردي كمثال على ذلك، حيث يعتبر أبرز النماذج حضورًا في مسار بناء الدولة العراقية؛ فقد كان الأكراد في العراق في حالة ثورة مستمرة منذ تأسيس الدولة العراقية بعد الحرب العالمية الأولى، وهو الوضع الذي فرضته ثلاثة عوامل رئيسية: أولها أن الأكراد في العراق يشكلون نسبة أكبر من السكان من تلك التي يشكلونها في البلدان الأخرى (تركيا، ايران، سوريا، الأردن)، وتبعًا لذلك ورغم عددهم الأصغر فإنهم مثلوا كتلة لها وزنها وخطورتها في العراق أكثر من أي بلد آخر، وهو ما مكنهم من لعب دور أكبر من أقرانهم في الدول الأخرى، أما السبب الثاني فهو أن العراق كدولة جديدة كانت لها شرعية أقل من تركيا وإيران ــ القائمتان منذ قرون ــ رغم الأقليات الكردية الكبيرة فيها، فيما يتمثل العامل الثالث في انقسام العراق نفسه إلى طوائف وأقليات أخرى، ومثل هذا التنوع كان ومازال يثير الجدل والشكوك حول مستقبل الدولة العراقية(٢).

على الرغم من أن الأكراد خاضوا صراعاتهم منذ القرن الثامن عشر ضد العثمانيين، إلا أن بروز الاتجاه القومي لديهم كمحرك سياسي كان أقوى منذ بداية

---

(١) فايز عبد الله العساف: الأقليات وأثرها في استقرار الدولة القومية – أكراد العراق نموذجًا، رسالة ماجستير ،عمان – جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠، ١٣.

(٢) مايكل إم غينتر: كورد العراق: آلام وآمال، ترجمة: عبد السلام النقشبندي، أربيل – كردستان العراق: دار اراس للطباعة والنشر، ٢٠١٢، ١٣.

القرن العشرين، والذي اتخذ أبعادًا جديدة بعد الحرب العالمية الأولى[١]. فحتى عام (١٩٢٠م) كانت معاهدة سيفر قد أعطت الأكراد حق الحكم الذاتي، وكذلك اتفاقية لوزان (١٩٢٣م). في الوقت نفسه كان البريطانيون والعراقيون قد أصدروا بيانات اعترفت بشكل نظري بحقوق الأكراد في الحكم الذاتي، عبر عنها الإعلان المشترك بين بريطانيا والعراق الملكية الذي رفع إلى الأمم المتحدة في (١٩٢٢م)، وجاء فيه الاعتراف بحق الحكم الذاتي للأكراد داخل حدود مملكة العراق[٢].

لم ترهق الدولة العراقية مشكلة سياسية أو اقتصادية مثلما أرهقتها مشكلة التنوع الإثني (العرقي)، فقد استنزفت المشكلة الإثنية/ السياسية الكثير من موارد الدولة وأدخلتها في صراعات جانبية وتنافس سياسي وانقلابات عسكرية للوصول إلى السلطة أخرت كثيرا من تطور العراق كدولة نفطية حديثة، فضلا عن أنها ساهمت في إضعاف دور العراق والتقليل من وزنه السياسي على المستوى الإقليمي والدولي، لاسيما وأن الصراع على السلطة في العراق ظل مستمرًا منذ نشأة الدولة العراقية بصيغتها الملكية عام (١٩٢١م) وحتى اليوم[٣].

وعلى هذا الأساس، يؤكد الباحث على أن المسألة الكردية في العراق ظلت تُحمل على محامل غير جادة في حلها ومعالجتها وفق وجهة النظر الكردية، أو حتى وفق الحقوق المعترف بها للأكراد، وفي المقابل استمرت التوجهات الكردية مناوئة للدولة المركزية في العراق سواء في فترة الملكية العراقية تحت الانتداب (١٩٢١ ــ ١٩٣٦م)، أو في فترة استقلال مملكة العراق (١٩٣٧ ــ ١٩٥٨م)، فكانت المسألة الكردية من أخطر الاشكاليات التي أعاقت مسار بناء الدولة العراقية الحديثة واستقرارها، فضلًا عن مساهمتها النسبية في سقوط الملكية وقيام الجمهورية.

---

(١) خيرة ويفي: مرجع سابق، ٥٨.

(٢) مايكل إم غينتر: مرجع سابق، ١٤.

(٣) إياد عايد والي البديري: مرجع سابق، ١٦١.

في (١٩٣٠م) ظهر شعور قومي كردي عندما اندلعت المظاهرات والإضرابات في مدينة السليمانية، ولأول مرة يبدو أن القيادة الكردية بدأت تتحرك بعيدًا عن الريف العشائري والاتجاه الديني وأنها توجهت إلى المدينة وطبقتها الوسطى، ثم أن التغيير في الحركة الوطنية الكردية اتخذ منحًا آخر بظهور القيادة البارزانية بقيادة مصطفى البارزاني بعد هزيمة الشيخ محمود الذي كان قد نصب نفسه ملكًا للأكراد، وخاض صراعًا مع الملكية الهاشمية المركزية في العراق انتهى بهزيمته. في حين بدا تأثير البارزاني كبيرًا وعميقًا على الحركة القومية الكردية، لاسيما وأنه احتفظ ببعض سمات القائد العشائري(١).

ثانيا: دور المكونات الحضرية والقبلية

كان توزيع السكان في بلاد المشرق العربي حتى منتصف القرن العشرين شديد الوضوح ضمن ثلاث مجموعات بشرية كبيرة: السكن المدني، السكن الريفي أو القروي، السكن الصحراوي أو القبلي، وهي الأنماط المتمايزة اجتماعيًا عن بعضها البعض داخليًا، فبينما خضعت التجمعات المدنية للقانون، فقد ظلت العشائر والقبائل تخضع للأعراف والتقاليد، في حين ظل المجتمع الريفي القروي يشكل حلقة الوصل الرئيسية بين المدينة والصحراء، فتم استتباع سكان مناطق الأرياف للمدينة أولًا، ثم استخدام الأرياف وتوظيفها كنقطة انطلاق لغزو الصحراء وإخضاع جماهير البدو(٢).

استفادت القوى الاستعمارية من نتائج الحركة الاصلاحية التي كانت قد تبنتها الدولة العثمانية في أواخر عهدها والتي ساهمت في تنامي النشاط التجاري والاقتصادي، الذي أدى بدوره إلى استقرار بعض القبائل المتنقلة وتوطنها وتحول النشاط الاقتصادي لتلك القبائل من تربية الحيوانات إلى الزراعة، حيث استحوذ

---

(١) مايكل إم غينتر: مرجع سابق، ١٦.

(٢) مسعود ضاهر: المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة، بيروت - معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ٧٦.

رؤساء العشائر على مساحات واسعة من الأرض وحتى أوائل القرن العشرين كانت قد تركت بأيدي الشيوخ ووجهاء القبيلة مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية إضافة إلى سيطرة البعض منهم حتى على مصادر الري(١).

كانت ظواهر التحول والتحديث المتسارع التي شهدها المجتمع في العراق وبلاد الشام فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ــ والتي غلبت عليها التأثيرات الأوروبية المباشرة ــ أقل بروزًا بين القبائل البدوية وفي قرى الريف منها في المدن الكبرى. ومع ذلك فقد احتفظ ملاك الأراضي الزراعية بهيمنتهم وتعسفهم بحق الفلاحين الصغار، بينما ظلت القبائل البدوية تحت سيطرة الانتداب الأوروبي (الفرنسي والبريطاني)، من حيث تم اخضاعها بشكل مباشر لأجهزة امبريالية مباشرة، لم يكن فيها لقوى المجتمع الوطني أي سلطة مباشرة عليها، لاسيما وأن المكون القبلي والبدوي كان يقابل بازدراء من قبل المكونات الحضرية والريفية(٢).

استطاع ملاك الأراضي الزراعية في المناطق الريفية سواءً في العراق أو بلاد الشام تكوين طبقة حضرية قادرة على أن تمدد نفوذها إلى المدن، التي هيمنت عليها دائمًا الأعيان المتحضرة والتي سكنت في المدن وأيضًا التجار، فضلًا عن احتفاظ هذه الفئة بسلطاتها الاجتماعية على مناطق الريف التي جاءوا منها والمحيطة بتلك المدن. فقد كانت هذه القوى بسبب موقعها السياسي/ الإداري في النظام العثماني هي المؤهلة فعلًا للعمل السياسي في مرحلة ما بعد انهيار الدولة العثمانية، حيث لعبت دورًا فاعلًا في البحث عن بديل في إطار الصراعات الدولية بين قوى الاستعمار الأوروبية، لكن أهليتها في أن تشكل السلطة البديلة اصطدمت في عدم تمثيلها مصالح جمهور واسع، فقد كانت تمثل

---

(١) حيدر صبري شاكر الخيقاني: «جذور التحديث الاجتماعي في العراق (١٨٥٠-١٩١٤) - دراسة تاريخية»، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد (١٢)، حزيران (٢٠١٣)، ٤١.

(٢) ستيفن همسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل، بيروت: دار الحقيقية، د. ت، ٣٥٥.

في أغلب الأحيان مجموعة من العائلات ذات الجمهور المحدود في الأحياء والقرى، فضلًا عن صراع العائلات فيما بينها على السلطة والمناصب الفاعلة في الدولة[١].

في المقابل، ونتيجة ارتباط المكونات القبلية البدوية المباشر بالقوى الاستعمارية ودخول الكثير من أفرادها وشيوخها تحت ظل السلطات الاستعمارية، كان لعامل العصبية القبلية دورًا بالغ الأهمية في بناء وتكوين المشروعات السياسية في المنطقة. فقد استطاعت بعض العصبيات القبلية من أن تتحول إلى دولة، لاسيما في تلك الحالات التي ساهمت فيها تلك العصبيات القبلية بشكل مباشر في ولادة كيانات التجزئة في المشرق العربي. فهناك قبائل أدمجت في كيانات التجزئة كفلسطين وسوريا والعراق والأردن واليمن، وهناك أيضًا قبائل سيطرت لتؤسس دولًا كبيرة كالسعودية، وهناك قبائل تحولت إلى إمارات ومشيخات. واستخدمت الهجرة لتغطية النقص الحاد في السكان، كالكويت وقطر والبحرين والإمارات.. وأغلب هذه الكيانات السياسية ولدت تحت الارتباط التبعي المباشر بالسيطرة الخارجية، بفعل الوجود العسكري الأوروبي المباشر بعد سقوط الدولة العثمانية[٢].

كانت بريطانيا قد وقعت مع الكويت اتفاقية الحماية مبكرا في ٢٣ يناير كانون الثاني سنة (١٨٩٩م)، والتي مكنت بريطانيا من تأكيد نفوذها في الكويت ومواجهة التنافس الأوربي عليها، مما اضطر الدول الأوربية إلى الإقرار بالأمر الواقع والاعتراف بالنفوذ البريطاني في الكويت، في الوقت نفسه الذي اعتبرت فيه هذه الاتفاقية بمثابة ضربة موجهة للدولة العثمانية، وتهديد لنفوذها ومصالحها في العراق[٣].

---

(١) وجيه كوثراني: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني - قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، بيروت - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣، ٨٥.

(٢) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٨ - ٩.

(٣) CRAVES PHILIP, The life of Sir Percy cox, (London, 1951). 101.

وبحسب ما تشير إليه الوثائق البريطانية، فقد جاءت بالفعل ردود فعل الدولة العثمانية على اتفاقية الحماية كبيرة، حيث مارست ضغوطًا كبيرة على الشيخ مبارك زعيم عشيرة آل الصباح الحاكمة في الكويت، من خلال إعادة حمدي باشا واليًا على البصرة لدعم انشقاق شقيقا مبارك عليه، على أساس أن تأييد الدولة العثمانية لذلك الانشقاق ينطوي على تأكيد لسيادتها على الكويت. الأمر الذي دعا بريطانيا إلى تفعيل اتفاقية الحماية تحسبًا لأي احتمال لهجوم عسكري عثماني على الكويت، فأصدرت تعليمات للقوة البحرية لمنع الهجوم المتوقع. كما اقترح السفير البريطاني في الآستانة وجوب توجيه إنذار للباب العالي قبل القيام بأعمال عسكرية(١).

وهو الأمر المتوقع، حيث أخذت سيطرة الدولة العثمانية منذ نهاية القرن التاسع عشر على شبه الجزيرة العربية تضعف، في الوقت الذي ركزت فيه بريطانيا على تعزيز معاقلها بتوفير وسائل الاتصال بالخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وجميعها طرق اتصال حيوية بالهند، وحفاظًا على هذا الاتصال أقامت بريطانيا شبكة من العلاقات مع المكونات الاجتماعية وعلى رأسها الحكام المحليين، في حين أنها حرصت على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع اسطنبول. وتتضح هيمنة بريطانيا غير المباشرة على المنطقة من المعاهدات التي أبرمتها في المنطقة؛ مثل المعاهدة التي وقعت بين بريطانيا وشيخ الكويت في عام (١٨٩٩م)، والتي وفرت للكويت الحماية مقابل التبعية، وبحلول عام (١٩١٣م) كانت بريطانيا قد زادت بشكل كبير من نفوذها في منطقة الخليج. إذ في نفس هذا العام أبرمت اتفاقية مع

---

(١) F. O. 78/5114 Memorandom on Kuwait Confidential Foreign office (secret 29 Oct. 1901). And F. O. 78/5114 from Sir Nichola O'Conor to Lord Salisbury No. 228 (secret).

نقلًا عن: ميمونة خليفة العذبي الصباح: ردود الفعل التركية على اتفاقية الحماية البريطانية للكويت – دراسة مقارنة بين الوثائق الإنجليزية والعثمانية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، المجلد (١٥)، العدد (٥٩)، ١٩٨٩، ١٤٣ – ٢٠١. ١٤٨.

الدولة العثمانية أكدت سيطرتها تلك[(١)].

كانت التوجهات القبلية ذات الطموحات المحدودة في تأسيس دول عربية صغيرة على أساس قبلي وعشائري تحظى باستجابة ودعم بريطانيين دائمًا في تلك المرحلة، حتى المشروعات الطموحة منها، كثورة الشريف حسين جرى توظيفها في اتجاه تحطيم النفوذ العثماني في الجزيرة العربية والعراق وسوريا واليمن، الأمر الذي عبر عنه (توماس لورانس Thomas Lawrence) الذي كان قائدًا ميدانيًا في الثورة العربية الكبرى (١٩١٦م) في إحدى رسائله السرية، حيث أكّد فيها على أن «نشاط (الشريف حسين) كان مفيدًا لبريطانيا، لأنه يتماشى مع أهدافها المباشرة، والمتمثلة في تفتيت الجبهة الإسلامية وهزيمة وتمزيق الإمبراطورية العثمانية ... وإذا عولج العرب بطريقة مناسبة سيظلّون في حالة من التشرذم السياسي، نسيجًا من الإمارات الصغيرة المتنازعة وغير القابلة للتماسك»[(٢)].

هكذا، تمكنت بريطانيا من تحويل مناطق الخليج العربي وقبائله ومشيخاته وسلطناته إلى محميات تابعة للتاج البريطاني في مطلع القرن العشرين، وبدأت تتوغل نحو داخل الجزيرة العربية، حيث كانت الدولة العثمانية لا تزال تحافظ على مواقع قوية بين شيوخ القبائل. ولذلك أوكلت بريطانيا إلى حلفائها المحليين مهمة غزو القبائل الموالية للعثمانيين وإجبارها على خوض معارك منهكة، على إثرها صعدت قوة ابن سعود في الجزيرة العربية، والذي عمل على القضاء على نفوذ العثمانيين تمامًا[(٣)]. وفي عام (١٩١٣) جرى عقد اتفاقية الخليج بين بريطانيا والسلطنة العثمانية، والتي اعترف

(١) جوزيف كوستنر: العربية السعودية (١٩١٦ – ١٩٣٦) من القبيلة إلى الملكية، ترجمة: شاكر سعيد، القاهرة – مكتبة مدبولي، ب. ت)، ٧.

(٢) PHILLIP KNIGHTLEY AND COLIN SIMPSON, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, (New York, McGraw-Hill Book Company, 1969). 60-61.

(٣) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١١٧.

العثمانيون بموجبها بمشيخات الخليج واستقلال الكويت ودخولها في كنف الحماية البريطانية، وكذلك بالنسبة لقطر والبحرين ومسقط. كما سارع الادريسي ــ زعيم بعض القبائل اليمنية ــ إلى توقيع اتفاقية مماثلة مع بريطانيا في عام (١٩١٥)[١].

فرضت القوى الاستعمارية الأوروبية في خضم صراعها مع العثمانيين، على القبيلة العربية أن تواجه أزمتها الأولى مع نشوء الدولة الحديثة، أو مع وجود كيان مركزي، الأمر الذي ظهر بوضوح جلي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بدءً من الاحتكاك بين قبائل الشمال والسلطة العثمانية التي سعت إلى توطينهم، أو بعد ذلك مع نشوء الدولة الاقليمية الحديثة في العراق (١٩٢٠م) وإمارة نجد (١٩٢٠م)، فقد جاء تشكيل كيان سياسي جغرافي بالمفهوم الحديث للدولة، ليمثل عائقًا وسدًا منيعًا في وجه الانسيابية التي كانت تتمتع بها حركة القبائل العربية منذ آلاف السنين[٢].

في نفس السياق، ظهرت إمارات الساحل المتصالح بالإضافة إلى الكويت والبحرين ومسقط (عمان)، أما في سواحل اليمن وحضرموت فجرى تقسيمها بين عدة عائلات قبلية: الخاطري، الوحيدي، والقعيطي، وغيرها، وكانت الاتفاقيات التي تعقدها بريطانيا مع هذه العائلات تلزم بأن يوقع عليها شيوخ القبائل الأخرى من مشايخ البدو في جنوب اليمن[٣].

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، إلا والكثير من القبائل في الجزيرة العربية تحت زعامة شيوخها المحليين قد أقامت علاقات مباشرة مع السلطات البريطانية، وفي الوقت الذي تمكنت فيه بريطانيا من التخلص من الشريف حسين بضغط قوي من هذه القبائل التي قامت بدعم ابن سعود للتخلص من آل الرشيد.

---

(١) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١١٩.

(٢) غانم النجار: القبيلة والدولة في الكويت والجزيرة العربية، الكويت - جامعة الكويت، ١٩٩٦، ١.

(٣) مسعود ضاهر: مرجع سابق: ١٢٣ - ١٢٤.

فتصدرت الأسرة السعودية حكم الحجاز وعسير ونجد وحائل وسمت الدولة باسمها[١]. ففي رسالة مؤرخة بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٨، من القنصل البريطاني (جورج ديفي George Devi) في دمشق موجهة للسير (جيرارد لاوثر Gerard Luther)، يؤكد فيها بأن «سعود بن رشيد بعد مقتل أخيه سلطان لم يظهر أي شجاعة أو كفاءة في الإدارة، وإن حكمه محصور بالكاد في بلدة حائل، وأن عبد العزيز بن سعود أصبح أمير نجد فعلًا الذي لا ينازع، والمعترف بحكمه في الرياض والقصيم، وعلى جميع العشائر البدوية في نجد، وحتى سعود بن رشيد نفسه يعترف بأن اماراته في حائل ليست سوى تابعة لسيادة ابن سعود»[٢].واستمر هذا الحال طوال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

لقد ظلت السياسات البريطانية متسقة مع ما سعت إليه بريطانيا في السنوات اللاحقة، على نحو ما تشير إليه رسالة من نائب الملك البريطاني في الهند إلى وزارة الهند في ٢٧ فبراير (١٩١٤م)، والتي أكد فيها على ضرورة الاستفادة من موقف ابن سعود لوضع وكيل محلي في القطيف، لتأمين الأهداف البريطانية على ساحل الخليج العربي. إذ أن مثل هذا التوجه قد مهد لبريطانيا من أن تتمكن من احتلال العراق، من خلال ما أشارت إليه الرسالة من تحسن علاقات ابن سعود مع شيوخ قطر وعمان والإمارات العشائرية الأخرى التي كانت تحت الحماية البريطانية آنذاك[٣].

سعت بريطانيا سياسيًا وعسكريًا إلى الحد من سيطرة العثمانيين ونفوذهم في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، بل وإلى انهاء هذه السيطرة تمامًا، من خلال تبني مشروع «الثورة العربية» بزعامة الأسرة الهاشمية في مكة، وبقيادة الشريف حسين

---

(١) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الأول) ١٩١٤ - ١٩١٥، بيروت، دار الساقي للطباعة والنشر ١٩٩٦، ١: ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٢٢.

الذي نصب نفسه ملكا للعرب، وقائدًا للثورة التي لم يكن هدفها مقاومة العثمانيين عسكريًا فحسب، بل أيضًا إقامة دولة عربية تحميها بريطانيا، وقد حظيت تلك الأهداف بتأييد القوميين العرب في سوريا. في الوقت الذي كان فيه المسؤولون البريطانيون المرابطون على طول الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية؛ ابتداء من بلاد ما بين النهرين وامتدادًا إلى منطقة الخليج، يعملون في إطار السلطة السياسية لمكتب الهند البريطاني وفي لندن وحكومة الهند، وكان مكتب الهند، شأنه شأن المكتب العربي، يرعي المناطق التابعة له، لدعم هذا التوجه ورعايته(١).

لقد جرى توظيف النزعة العرقية العربية كغطاء لكل التوجهات المناهضة للعثمانيين الذين تبنوا سياسات التتريك قبل ذلك، وعند سقوط الدولة العثمانية برزت مشاريع الدول العربية (البديلة) في ضوء السياسات الاستعمارية التي رسمتها بريطانيا وفرنسا لتجزئة وتفتيت المنطقة العربية. فجاءت تلك المشروعات وليدة عوامل مختلفة ومعقدة: الطائفة، العائلة، الثقافة المحصلة، الموقع الاقتصادي للقوى الاجتماعية. فإذا كانت كل هذه القوى مشتركة في كونها من التجار والملاكين في المناطق الريفية والقروية، فإنها مشتركة بشكل آخر في المناطق البدوية القبلية، وبالتالي فإن حجم تلك الملكيات الزراعية في الأرياف، ومناطق النفوذ القبلي في الصحراء، كان محددًا رئيسيًا للحيز الجغرافي لمشروع الدولة البديلة (جغرافيًا وبشريًا)، وحتى لتحديد اسم الدول الأجنبية المنتدبة أو المساعدة في حال الاستقلال(٢).

ومن جهة أخرى، كان توفير الحماية الخارجية للحكام المحليين وتثبيت الحكم في أيدي الأسر الحاكمة قد أوقف النخب القبلية، ومن ثم عطل القيود والضغوط البنائية ــ كقوى مضادة للمجرى العام في النظام السياسي للحالة الطبيعية ــ التي تعمل على تقييد سلطة الحكام، كما أوجد للحكام مصادر دخل بديلة للغنائم التي كانوا يحصلون

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق: ٨ – ٩.

(٢) وجيه كوثراني: مرجع سابق، ٨٦.

عليها من الغزو والسلب والنهب.. وأحيانًا كانت الإدارة الاستعمارية تسهم في تمويل الحكام بشكل استثنائي، كما فعلت بريطانيا مع سلاطين ومشايخ حضرموت، أو مع الشريف حسين، أو السعودية الثالثة في سنواتها الأولى(١).

ساند المسؤولون البريطانيون عن شرقي شبه الجزيرة العربية جميع الشيوخ والزعامات القبلية المحلية، عملًا بتوصيات الكابتن (وليام شكسبير William Shakespeare) الذي أجرى أول اتصال بـعبد العزيز بن سعود بحث فيه مدى استجابته لمساعدة بريطانيا في مقابل أن يحصل على دعمها في تحسين فرصه الخاصة أمام منافسه الشريف حسين الذي تركت له بريطانيا مساحة واسعة للتفاهم مع الأتراك ومسايرتهم في سبيل تحقيق أهداف ثورته، فضلًا عن المنافسة التي كان يواجهها ابن سعود من قبل آل رشيد في زعماء جبل شمر الموالين للعثمانيين(٢). وهي السياسة البريطانية الممتدة من قبل الحرب العالمية الأولى، ففي رسالة سرية بعثها من الكويت الكابتن شكسبير في الثامن من ابريل (١٩١١م) إلى المقيم السياسي في الخليج (بيرسي كوكس Percy Cox)، تضمنت تقريرًا عن المحادثات التي أجراها شكسبير مع عبد العزيز ابن سعود، يؤكد شكسبير على صلاحية عبد العزيز لحكم العشائر العربية في بلاد العرب الوسطى والشرقية ــ يقصد نجد والاحساء، وأنه يتمتع بالكثير من الخصائص التي تجعله الأفضل بين منافسيه»(٣).

وعلى الرغم من وفاة شكسبير عام (١٩١٥م) والتي كادت أن تحد من علاقة بريطانيا بعبد العزيز بن سعود، إلا أن انقسامات حادة بين آل رشيد أنفسهم، أفادت المندوب البريطاني «كوكس» ما بين عامي (١٩١٦ ــ ١٩١٧م)، أجرى اتصالًا مع

---

(١) خلدون حسن النقيب: المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف، بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩، ٩٩.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ٩ – ١٠.

(٣) نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق. ١٥٦ – ١٥٧.

بعض المتصارعين من آل رشيد، هما داري بن طوالة وفيصل بن فهد وكان كوكس يرمى إلى خلق ائتلاف يضم هذين الشخصيتين وسعود بن صالح السبحان، وهو زعيم رشيدي بارز في حائل تربطه علاقات مع جماعات عديدة من شمر، ونوري شعلان من قبيلة رواله النشطة في الصحراء السورية، وكان الاتصال بشعلان يعني اختراقا لصفوف العثمانيين تتبعه عمليات قطع للاتصال بين العراق وحائل أو المدينة التي يسيطر عليها العثمانيون، في الوقت نفسه اعتبر كوكس أن ابن سعود هو الشخصية الأقوى التي يمكن الاعتماد عليها في القضاء على أي نفوذ عثماني في جزيرة العرب، ولم يكن يبقى سوى ازاحة الشريف حسين وحصر طموحاته الجغرافية على سوريا والعراق، لتخلو الجزيرة العربية لابن سعود(١).

تكشف إحدى الوثائق البريطانية، وهي تقرير أرسله القنصل البريطاني في جدة إلى القنصل البريطاني في اسطنبول السير (جيرارد لاوثر Gerard Luther) في الحادي عشر من اكتوبر (١٩١١م)، عما كان يظهره الموظفين البريطانيين من ميل شديد إلى تدعيم موقف عبد العزيز بن سعود في مواجهته مع الشريف حسين، وإظهار هذا الأخير بموقف ضعيف لاستمالة الحكومة البريطانية في اتجاه دعم ابن سعود، إذ تشير الوثيقة إلى أن «الشريف حسين بدا مترددًا ويرى نفسه غير قويًا بصورة كافية لمواجهة ابن سعود، ما مكن من عقد هدنة بين الطرفين في عام (١٩١٠م)، خاصة وأن هناك شكوكًا بنجاح حملة الشريف حسين على عسير»(٢).

كما تشير الوثائق البريطانية إلى أن بريطانيا ظلت حريصة على أن تبقى العلاقة بابن سعود، وأن تظل أي محادثات بينه وبين الأتراك تحت رقابة بريطانيا وسيطرتها، للحيلولة دون أي تقارب بينهما قد يؤثر على مصالح بريطانيا، الأمر الذي وضحته رسالة من المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في الخليج

(١) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ٩ - ١٠.

(٢) نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق: ١٦٥.

العربي – بوشهر في مارس (١٩١٤م)[١].

بيد أن ترتيبات أخرى لوضع الجزيرة العربية كانت بريطانيا تجريها وتعد لها على قدم وساق، لاسيما فيما يتعلق برسم ملامح العلاقات السياسية والجغرافية للمشرق العربي، وهي الترتيبات التي تعلقت أكثر بوضع شمال اليمن وإقليم عسير مقابل جنوب اليمن وحضرموت من جهة، وعدن التي تسيطر عليها بريطانيا من جهة أخرى. فكان المسؤولون البريطانيون في عدن، يهتمون أساسًا بالجزء الشمالي من اليمن وبأقاليم جنوب اليمن، فشجعوا حاكم عسير محمد الإدريسي، على التمرد على الإمام يحيى حميد الدين – زعيم اليمن الشمالي الموالي للعثمانيين – وكان حلفاء العثمانيين يضمون زعماء جبل شمر الرشيدية، وهم حلقة وصل هامة بمعقل العثمانيين في المدينة الذي لم تستولي عليها قوات الشريف حسين، بل ساعد الإمام يحيى العثمانيين في شن هجوم على عدن في عام (١٩١٥م)[٢].

يرى الباحث، أن بريطانيا أدركت في ذلك الوقت أن المشكلة تكمن في وجود الادريسي حاكم عسير، إذ أن استقلال إقليم عسير سيكون مثارًا لمشكلات كثيرة تعوق الترتيبات الجيوسياسية التي تسعى بريطانيا إلى تنفيذها على جزيرة العرب، والتي قضت بمساعدة ابن سعود الأقوى في مد سلطانه على أكبر قدر من المناطق بما فيها إقليم عسير، وإبقاء اليمن الشمالي محاصرًا من النفوذ البريطاني في جنوب اليمن.

على هذا الأساس، قامت بريطانيا بعقد معاهدة في ابريل (١٩١٥م) بين حاكم عسير محمد الإدريسي والسلطات البريطانية في عدن، قضت بأن يحصل الإدريسي على ألفي جنيه شهريًا مع الوعد بالاستقلال مستقبلًا في مقابل القيام بثورة ضد الإمام يحيى، كما وقع ابن سعود في ديسمبر من عام (١٩١٥م) معاهدة دارين مع كوكس حصل بموجبها على وعد بالاستقلال الفعلي مقابل أن يتخذ موقفًا داعمًا لبريطانيا، إلا

(١)نجدة فتحي صفوة: مرجع سابق: ٢٣١.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق: ١٠.

أن البريطانيين توصلوا إلى حل وسط فيما يتعلق بقدرة السعوديين على المناورة في المنطقة، وذلك بجعل ابن سعود يضمن عدم التعدي على إمارات الخليج الخاضعة للحماية البريطانية(١).

في الوقت نفسه، قامت بريطانيا بتمويل الشريف حسين في الحجاز وتسليحه وتعزيز جيش الثورة العامل وتدريبه بعد ديسمبر عام (١٩١٦م)، وذلك للقضاء على العثمانيين هناك، ولتمكين الهاشمين من التغلغل في سوريا بعد احتلال العقبة في يوليو من عام (١٩١٧م)، كل ذلك أدى إلى زيادة طموحات حسين في أن يصبح «زعيم القضية العربية» وأن يبسط نفوذه على المناطق المحيطة، إلا أن صعود نجم الشريف حسين وبلوغه مرتبة الزعامة العربية أثار قلق الزعامات المحلية الأخرى بسبب أطماعه ونشاطاته وتصريحاته التي أدت إلى الاخلال بتوازن القوى بين الحكام المحليين وتهديد مراكزهم، وخصوصًا ابن سعود(٢). فحتى عام (١٩١٦م) الذي نشطت فيه ثورة الشريف حسين في الحجاز، كانت بريطانيا ما تزال تتعامل بحذر شديد مع الشريف حسين وتبدو أكثر ميلًا للثقة بابن سعود، الأمر الذي يمكن عزوه إلى تلك السياسة المزدوجة التي اتبعها حسين في علاقاته مع بريطانيا والعثمانيين، وهذا ما تكشف عنه إحدى الوثائق البريطانية، التي تضمنت تقريرًا عن زيارة مندوبها إلى الشريف حسين في مكة، والتي أشار فيها كاتب التقرير البريطاني إلى الجهود التي بذلها حسين في تفسير سياسته في الاحتفاظ بالمظاهر والعلاقة الشكلية مع السلطات التركية، بأنها لا تعدو كونها مجرد ستار يخفي وراءه نواياه الموالية لبريطانيا، والتي يأمل جادًا ألا تشك الحكومة البريطانية في صدقها، حتى لو وردت تقارير تفيد بأن ابنه يرافق الحملة التركية ضد مصر»(٣).

---

(١)جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١١.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١١.

(٣) نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الثاني) ١٩١٦، بيروت - دار الساقي للطباعة والنشر ١٩٩٦، ٢: ١٠٥ - ١٠٦.

كما كتبت في تلك الفترة البريطانية (غيرترود بل Gertrude Bell) صورة قلمية ــ مقالة ــ عن ابن سعود، تظهر نمط السياسات البريطانية في توظيف الحامل العشائري والقبلي سياسيًا لتحقيق مصالحها في المنطقة، من خلال جهود كبار موظفيها في المنطقة في عقد اتفاقيات مع زعماء القبائل العربية، أشار فيها إلى الاتفاقية التي عقدها كوكس مع ابن سعود والتي -حسب تعبيرها ــ رسخت الصلات الوثيقة بينه وبين بريطانيا، وهي الصلات التي حصلت على التأييد العام في الاجتماع الذي عقد في الكويت في نوفمبر (١٩١٥م)، بحضور ثلاثة من زعماء العرب الأقوياء: شيخ المحمرة، وشيخ الكويت، وابن سعود حاكم نجد(١).

ما كادت الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى اضطر مجلس الوزراء البريطاني للاعتراف بأن سياسته في الجزيرة العربية قد اختلت. فالخصومة بين حليفي بريطانيا الشريف حسين وعبد العزيز بن سعود، كانت قد بلغت أشدها. وقد اشتكى حسين من انه مضطر لإنفاق مبلغ كبير من الدعم البريطاني الذي يتلقاه، في سبيل الدفاع عن نفسه من هجمات ابن سعود، الذي يتلقى هو الآخر دعمًا من بريطانيا(٢).

وفي ذات السياق وبعد انتهاء الحرب كان فيصل بن الحسين قد اختار دمشق عام (١٩١٨م) عاصمة لإمارته القصيرة العمر، إلا أن تنوع المكونات العرقية فيها من غير العنصر العربي وخصوصًا الأكراد، وفي لبنان كالدروز والموارنة، فضلًا عن أهمية دمشق بالنسبة للمشروع الاستعماري الذي حرص على انفصال لبنان وفلسطين وشرق الأردن عن سوريا بعد اطلاق تصريح بلفور (١٩١٧م)، كل ذلك حال دون أن تكون دمشق والأجزاء الأخرى من سوريا ضمن المشروع الهاشمي، وبالتالي بقائها تحت سيطرة الانتداب الفرنسي، بعد تسريح الجيش التابع للأمير فيصل، وتمكن

---

(١) نجدة فتحي صفوة: المرجع السابق، ٨٠٥.

(٢) دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ - ١٩٢٢، ترجمة: أسعد كامل إلياس، لندن - قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٢، ٤٧٣.

القوات الفرنسية من اخماد الثورة الدمشقية في العام (١٩٢٠م)، بالإضافة إلى قمع الثورات المحلية الأخرى كثورة العلويين (١٩٢١م)[1].

أدت سياسات الدول الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى وما بعدها إلى تطورات اقتصادية في المنطقة وغيرت من العادات والولاءات القبلية، فطرق التجارة التقليدية ألغيت أو فقدت أهميتها، ومع انتشار الثورة العربية أقام البريطانيون حصارات بحرية في موانئ كل من البحر الأحمر والخليج الفارسي ولاسيما في الحجاز والكويت، وهو إجراء ترك تأثيره على البدو الرحل وسكان المدن. وبالرغم من تخفيف حصار البحر الأحمر مع تقدم الثورة استمر حصار الخليج حتى عام (١٩١٨م)، وكان يهدف أساسًا إلى تدمير خطوط تموين العثمانيين والرشيديين في ما بين النهرين؛ وعلى طول الطرق التجارية البرية الممتدة من شبة الجزيرة العربية والعراق وسوريا، حتى حدث تغير آخر؛ إذ بسبب العداء القائم بين القبائل التي يساندها البريطانيون ــ أي تلك الخاضعة لسيطرة حسين وابن سعود: مطير وعتيبة وحرب وغيرهم ــ وقبائل شمر الموالية للعثمانيين، منى الجميع بخسائر فادحة في تجارة الخيول والجمال، وبعد أن احتل البريطانيون العراق في ربيع عام (١٩١٧م) حظر على قبائل شمر ارتياد أسواقهم المعتادة في قلب العراق، ولم يكن أمامهم سوى تهريب السلع إلى الكويت، وبات من الهام بصورة متزايدة أن نجد قبائل شبه الجزيرة وحكامها لأنفسهم طرقًا تجارية وأسواقًا ومصادر مالية بديلة[2].

لعبت السياسات البريطانية في المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الأولى دورًا خطيرًا في إعادة ترتيب العلاقات والتوازنات القبلية على أسس جغرافية واقتصادية وقبلية متعددة المحاور، أثارت المنافسات بين الحكام وأدت إلى نشوب المنازعات

---

(١) أكرم محمد عدوان: مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ – ١٩٤٦)، مجلة الجامعة الاسلامية للبحوث الانسانية، مجلة تبين، المجلد (١٨)، العدد (٢)، (٢٠١٠)، ٥ – ٧.

(٢) جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١٢ – ١٣.

القبلية من أجل السلطة الإقليمية والمصادر الاقتصادية الجديدة، وحتى يتسنى للمشيخات البقاء في ظل هذه الظروف؛ تعين عليها أن توسع من نطاق تحالفاتها وبسط نفوذها على القبائل المحيطة، وهكذا أصبحت السيطرة على المواقع الاستراتيجية ومصادر الدخل والجماعات القبلية محور المنافسات بين المشيخات في شبه الجزيرة العربية، تلك المنافسات التي دفعت كل حاكم إلى تطوير وسائل تحقيق الاندماج الداخلي وشن الحروب والتوسع، وأسفرت ضغوط الحرب وعملية الاندماج الداخلي عن تقوية المشيخات في المنطقة التي أدت بدورها إلى التوسع في الأراضي إلى حد وضع أساس للدولة يقوم على الأرض التي تسيطر عليها(١).

على مدى النصف الأول من القرن العشرين، خضعت المؤسسات القبلية السياسية لتغيرات كبيرة واكبت عملية تشكل المشرق العربي الحديث، عندما تخلت النخب الحاكمة عن لباسها التقليدي، وحولته إلى دولة حديثة، ومتحولة أيضًا من نمط الاقتصاد الريفي والرعوي البسيط إلى نمط اقتصاد الدولة، والدولة الريعية بالذات بسبب اكتشاف النفط في المنطقة. فقد عمدت الكيانات السياسية الطامحة إلى إقامة دول مستقلة ومشكلة من أطياف عرقية وقبلية متنوعة خاضعة لحكمها، مستفيدة أولًا من القبيلة كعامل من عوامل بناء الدولة من جهة، وإلى إصلاح النظام القبلي من جهة أخرى. إذ تعود محاولات إصلاح هذا النظام إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما ظهر تيارين مختلفين: الأول بقيادة قوى مدفوعة بالحماس الديني الأصولي للحركة السلفية ــ مثل حركة الإخوان القبلية التي شكلها ابن سعود ، وشبيه بهذا التيار أيضًا ظهرت أشكال حضرية أخرى تجذرت في مصر وسوريا أثناء الكفاح من أجل الاستقلال ــ على غرار حركة الإخوان المسلمين. أما التيار الثاني: فيشمل التجار الوطنيين التحديثيين في الطبقة الوسطى، وكان مطلبهم

---

(١)جوزيف كوستنر: مرجع سابق، ١٣ - ١٤.

الأساسي السعي إلى إقامة أشكال ديمقراطية دستورية الحكم[١].

استطاعت الدول الملكية الناشئة فيما بعد الحرب العالمية الأولى أن تستفيد من كافة العوامل والمتغيرات الداخلية والدولية، في تفتيت الولاء السياسي للقبيلة لصالح الولاء للنظام السياسي، وفي المقابل تخلت القبيلة تدريجيًا عن وظائفها التي تتمتع بها لمصلحة الطبقات والحكومة معًا وفي الدرجة الأول لمصلحة أبنائها الذين دخلوا أطر النخب الحكومية، حيث ظهر التعبير عن التغيرات حيال مضامين الولاء والهوية أثناء التحولات السياسية وأثناء عمليات التجنيد السياسي، إلا أن جوهر الهوية العامة للقبيلة لم يتغير بشكل جذري وبقت القبيلة قادرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة وعلى إنتاج شروط استمرارية دورها في ظل الولاء للدولة ومؤسساتها ورموزها[٢]. حيث يبدو هذا المظهر جليًا في الملكية (المتوكلية) التي نشأت في اليمن (١٩١٨م)، والملكية الهاشمية في الأردن (١٩٢١م)، والملكية التي أسسها عبد العزيز آل سعود في جزيرة العرب (١٩٣٢م) والمملكة الهاشمية في العراق (١٩٣٢م).

يعزى ذلك إلى طبيعة الولاءات القبلية التي تظل من بين أكثر الولاءات رسوخًا في الحياة العربية، مما أدى لظهور تنظيم اجتماعي يقوم على مبدأ قرابة الدم الذي يحدد الولاءات والعصبية، من خلال القبيلة التي ظلت دائمًا وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية قائمة بذاتها[٣]. فضلًا عما تتسم به التحالفات القبلية في أغلب الأحوال بالثبات والمنعة من الانهيار[٤]. وهي الخاصية التي استطاعت الملكيات العربية الناشئة أن تُحسن توظيفها بدرجات متفاوتة تحت الغطاء الديني أو المذهبي أو القبلي الذي

---

(١) جمعة الزورق فرج بلعيد: دور القبيلة في الأنظمة السياسية العربية - اليمن نموذجًا، رسالة ماجستير، عمان - الأردن: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٥، ٤٠ - ٤١.

(٢) باسم الطويسي: مرجع سابق، ١٥ - ١٦.

(٣) جمعة الزورق فرج بلعيد: مرجع سابق، ٥٤.

(٤) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٣٤.

تبنته كل منها، كالمذهب الزيدي في اليمن، والوهابية السلفية في السعودية، والمكانة الدينية والاجتماعية لطبقة الأشراف التي تنتسب إلى البيت النبوي في سوريا والأردن والعراق، فضلًا عن تمسك الأشراف بالمذهب السني.

ومع ذلك، فقد كان للقبيلة دورًا بالغ في الانتفاضات والثورات الشعبية التي شهدتها بعض الدول العربية في الفترة (١٩١٤ ــ ١٩٤٧)، الأمر الذي دفع إلى إعادة ترتيب أوضاع القبائل والعشائر والحد من دورها المناهض. ففي العراق على سبيل المثال شهدت الحقبة الملكية عدة انتفاضات سواء من القبائل التي عارضت إصلاحات قانون الإصلاح الزراعي (ملكية الأراضي) أو من العراقيين الشيعة الذين شعروا بالتهميش. كانت القبائل الشيعية ترى أن القوميين من العرب السنة في بغداد يفتقدون الشرعية لأنهم علمانيون وتسيطر عليهم بريطانيا. وبعد القضاء على تمرد القبائل عام (١٩٣٥م) وحتى عام (١٩٤١م) كان الجيش هو اللاعب الرئيس في السياسة العراقية، لكن شرعت بريطانيا بعد عام (١٩٤١م) في التدخل العسكري دعمًا للتيار الليبرالي المتمثل بنوري السعيد والوصي عبد الإله في مواجهة ما أطلق عليه التيار الثوري بقيادة رشيد عالي الكيلاني[١].

ظلت ظواهر الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الحقبة تدل على واقع يقوم على التحالف بين القبيلة التي تقوم على الولاء العشائري والقبلي، والذي يقسم المجتمع إلى مجموعات قائمة على صلة الدم والقرابة، وهذا من جهة، وبين الدولة من جهة أخرى، والتي تقوم على الولاء الوطني الذي يغطي السيادة على الأرض والموارد والسكان، ويتجسد حضورها في العلاقة مع الدول الناشئة المجاورة التي تحتفظ هي الأخرى بأصول قبلية كانت تتقاسم النفوذ في المنطقة من قبل. بيد أن هذا التحالف بين القبيلة

---

(١) أحمد عبد الحافظ فواز: التوظيف السياسي للقبيلة في العراق: من الملكية إلى ما بعد صدام، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد (٤٥٠)، أغسطس (٢٠١٦): ٣٥.

والدولة الذي اعتمدت عليه بالذات ممالك ومشيخات الخليج العربي والجزيرة العربية، كان ينطوي على مخاطر جمة، تتمثل أبرزها في إمكانية أن تنقلب المنافسات والمنازعات بين القبائل تلك إلى عامل من عوامل هدم الدولة نفسها، الأمر الذي فرض على دول الخليج العربي أن تتعامل بازدواجية باهظة التكلفة في بناء الدولة والحفاظ عليها من خلال ضمان ولاء القبائل إليها بأي ثمن كان[١].

يتضح هذا المسلك على سبيل المثال، في الاستراتيجية التي تبنتها الدولة السعودية في توظيفها للعنصر القبلي، تمثلت في تقسيم البلاد التي تحت سلطتها إلى إمارات تقوم على الأسس القبلية المتحالفة مع الأسرة الحاكمة، وتأمين الدولة من مخاطر التفكك أو التمرد، من خلال إقامة شبكة من التوازنات الدقيقة، كما جرى إلحاق القبائل بالإمارات إلحاقًا تبعيًا، وجرى رسم حدود الدولة السعودية للحد من أثر ترحال القبائل وانتقالها من مكان إلى آخر، واتباع سياسة حدودية أجبرت القبائل على البقاء داخل حدود الدولة، في حين جرى أيضًا توطين عشرات المشيخات القبلية في المناطق الساحلية[٢].

جاءت سياسات التوطين البريطانية للقبائل بناءً على مصالحها أولا، الأمر الذي يكشف عنه الموقف الذي اتخذه ابن سعود في مؤتمر العقير عام (١٩٢٢م)، حين أصر على ترسيم الحدود انطلاقًا من حدود حركة القبائل، ومطالبته بأن تكون حدود إمارة نجد والحجاز تابعة إلى الحد الذي يصل إلى القبائل التي تدين بالولاء له، وذلك فهمًا وإدراكًا منه لسعة ذلك المفهوم وتوسعه، وهو ما رفضه المقيم السياسي البريطاني في الخليج (كوكس) رفضًا حاسمًا، وأصر على ترسيم الحدود استنادًا إلى معطيات جغرافية طبوغرافية، وليس استنادا إلى جغرافية الحركة والانتقال البدوية، كما أن

---

(١) محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة اطروحات الدكتوراه (٤١)، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ٨٥.

(٢) مسعود ضاهر: مرجع سابق، ٦٨.

العراق ضغطت بقوة ضد مطالب ابن سعود تلك، ونجحت في تعطيلها بدعم بريطاني واضح[١].

أما في اليمن، فقد حالت ظاهرة تماسك البنية القبلية دون تمكن الدولة المتوكلية التي حكمت اليمن حتى مطلع ستينيات القرن العشرين، من فرض نفوذها وسلطاتها المركزية المباشرة عليها، كما حالت في الوقت نفسه دون محاولات الغزو الأجنبية التي كانت تهدف إلى احتلال اليمن والسيطرة عليها. فقد حافظ البناء القبلي على حضور قوي عبر استمرارية فاعلية القبيلة في الدولة. فمن جهة حافظ هذا الحضور القوي للقبيلة على الدولة وبقائها نسبيًا، لكنه من جهة أخرى أضعف سلطاتها المركزية في المناطق القبلية[٢].

وفي بلاد الشام (سوريا، الأردن، فلسطين، لبنان)، ورغم التغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهدتها هذه البلدان في بداية القرن العشرين، إلا أن النظام القبلي العشائري ظل مؤثرًا في بنية المجتمع، وقادرًا على الاستمرارية والحضور الفاعل سياسيًا في مختلف المحطات والمراحل والأحداث التاريخية، حيث لعبت العشيرة والقبيلة دورًا فاعلًا في البناء السياسي والعسكري للدولة لاسيما في الأردن وفلسطين. وإذا كان الاتجاه المائل للتحضر قد ساهم في تفكيك البنية القبلية بشكل واضح في سوريا ولبنان، فإن الأرياف في سوريا ولبنان حافظت على بعض الملامح الثقافية للبناء القبلي المنحل، من حيث يبدو أن حضور البنية الطائفية في المجتمعين السوري واللبناني قد عوض عن وجود البنية القبلية، الأمر الذي ينطبق إلى حد ما على البنية العشائرية في العراق[٣].

أما في مصر فقد كان للقبيلة بمعناها المجزأ دورها الاجتماعي والسياسي في مناطق الصعيد جنوبًا وفي سيناء شمالًا، غير أن التقاليد العريقة للدولة المركزية في مصر حدت

---

(١) غانم النجار: مرجع سابق، ١٢.

(٢) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٨٧.

(٣) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٨٩ - ٩٠.

من استمرار الفعل العشائري في الحياة السياسية في المجتمع المصري[١].

بالإضافة إلى ما سبق، فإن خفوت دور القبيلة السياسي في مصر يعزى إلى قوة حضور النخب الوطنية وبروز الأحزاب والقوى السياسية فيها منذ وقت مبكر، والتي استطاعت أن توظف قطاعات مختلفة من المجتمع المصري في الحركة الوطنية. يتضح هذا في طبيعة العناصر المجتمعية التي قامت على أكتافها ثورة (١٩١٩م)، والتي تتمثل بما يلي[٢]:

١. **الفلاحون:** وهم من أطلق عليهم (أصحاب الجلاليب الزرقاء) ويمثلون الطبقة الكادحة من الشعب المصري، وقد عانوا كثيرًا بسبب نظام الاحتكار الذي فرضه نظام محمد علي، ونظام السخرة الذي كانوا يدفعون اليه كرهًا ــ كما في مشروع حفر قناة السوس، ولما قامت الحرب العالمية الأولى، عانى الفلاحين المصريين من السياسات البريطانية، التي استهدفتهم بشكل مباشر وحرمتهم من حقوقهم الزراعية، فضلًا عن التجنيد الاجباري الذي فرضته عليهم، في الوقت نفسه الذي كانوا يرزحون فيه تحت وطأة كبار ملاك الأراضي.

٢. **العمال:** وهي الفئة الأخرى من الشعب المصري التي عانت كثيرًا من نظام الاحتكار، وتصدع نظام الطوائف الذي كان سائدًا في مصر مما زاد في سوء أحوال العمال وشعورهم بالظلم، وقسوة أصحاب رؤوس الأموال، وقد شعرت الأحزاب السياسية بذلك، وعلى رأسها الحزب الوطني فسارعت إلى بسط نفوذها على النقابات العمالية التي بدأت تظهر وتفرض وجودها.

٣. **المثقفون:** وهي أكثر الطبقات الاجتماعية التي شاركت في ثورة (١٩١٩م)، نظرًا لقوة هذه الطبقة واحتكاكها الحضاري بالحضارة الغربية، وبحكم شعورها

---

(١) محمد نجيب بوطالب: مرجع سابق، ٩١.

(٢) عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجمل: تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، القاهرة – دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٧، ٢٨٧ – ٢٨٨.

بالظلم أكثر من غيرها من الطبقات نتيجة حرمانها من الوظائف الكبيرة، وقد أدركت بريطانيا مدى خطورة هذه الطبقة، وسعت إلى احتوائها تارة وتارة أخرى إلى تحييدها، ولكنها فشلت، عندما نجحت هذه الطبقة بتأسيس نادي المدارس العليا، والذي أصبح فينا بعد معقل القوى المحركة لثورة (١٩١٩م). بالإضافة إلى دور الأزهر الشريف في الحركة الوطنية في ظل اتجاهات التجديد الفكري التي شهدها.

الخاتمة

يتبين من خلال دراستنا هذه والمتمثلة في المبحثين السابقين:

أن المكون العرقي لم ينفصل يومًا عن المكونات الدينية والقومية التي لعبت دورًا بارزًا في توجيه مسار الدور الذي تقوم به الكيانات العرقية في تشكيل المشرق العربي وبناء الدولة العربية الحديثة في تلك الفترة، وإن كان الأساس العرقي على تماس دائمًا مع الجغرافيا السياسية، ونازعًا أكثر إلى الاستقلال والانفصال منه إلى الوحدة والتماسك الوطني، كما في حالة النموذج الكردي، حيث ارتبطت الهوية العرقية بملامحها الدينية والطائفية والأيديولوجية، مما جعل المسألة أكثر تشابكًا وتعقيدًا عند تناولها من زاوية بعينها.

وأن الظروف السياسية والاجتماعية لتطور مجتمعات المشرق العربي في النصف الأول من القرن العشرين، تشير إلى أن القبيلة قد ساعدت على تشكيل المشرق العربي الحديث ، من خلال دورها في نشأة وقيام الدولة العربية الحديثة. كما أدت الهيمنة الاستعمارية إلى انتقال مركز الثقل من المدن التجارية الساحلية إلى الداخل القبلي بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد ظهور أهمية النفط الاقتصادية والاستراتيجية، وهو ما أدى إلى رسم وتشكيل الخارطة السياسية على ما كانت عليه طوال القرن العشرين وحتى اليوم.

وبالتالي، فإن الجذر الأساسي لتحول القبيلة إلى دولة والزعيم القبلي إلى زعيم دولة معترف بها عالميًا وعضو في هيئة الأمم المتحدة لا يمكن أن يفسر بعدد أفراد القبيلة فقط، أو بمدى الالتحاق بعجلة السياسة البريطانية أو الفرنسية في المناطق، بقدر ما أصبح يعود إلى ظهور النفط فيها وحاجة بريطانيا الدائمة إلى وجود الأسباب الكفيلة بإثارة النزاعات بين هذه الدول القبلية الناشئة، الأمر الذي يفسر بقاء معظم دويلات الخليج والمشرق العربي بكامله في حالة نزاع دائم على الحدود مع الدول الناشئة المجاورة.

كما يتبين أيضًا أن المكونات الحضرية كان لها دورًا مقابلًا لدور القبيلة، بل أنها من حيث الفاعلية والتنظيم والتأثير كانت أكثر حضورًا في المناطق التي ضعف فيها الحضور القبلي والعشائري، كما في حالة سوريا ولبنان ومصر، في الوقت نفسه الذي دخلت فيه المكونات الحضرية في صراع داخلي مع البنية البدوية، سعت الأنظمة السياسية العربية إلى توظيفه لصالحها بصور وأشكال شتى.

المراجع

أولًا: المراجع العربية

- إياد عايد والي البديري، التركيب الاثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة واستقرارها، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (١٣)، العدد (١)، (٢٠١٠).
- أحمد عبد الحافظ فواز، التوظيف السياسي للقبيلة في العراق: من الملكية إلى ما بعد صدام، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد (٤٥٠)، أغسطس (٢٠١٦).
- أكرم محمد عدوان، مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي (١٩٢٠ – ١٩٤٦)، مجلة الجامعة الاسلامية للبحوث الانسانية، مجلة تبين، المجلد (١٨)، العدد (٢)، (٢٠١٠).
- باسم الطويسي، دور العوامل الاجتماعية في التجنيد السياسي ــ دراسة في النخب الحكومية الأردنية في بداية مرحلة التحديث، (عمّان: جامعة الحسين ، ٢٠١١).
- جمعة الزورق فرج بلعيد، دور القبيلة في الأنظمة السياسية العربية ــ اليمن نموذجًا، رسالة ماجستير (عمان ــ الأردن: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٥).
- جوزيف كوستنر، العربية السعودية (١٩١٦ ــ ١٩٣٦) من القبيلة إلى الملكية، ترجمة: شاكر سعيد (القاهرة، مكتبة مدبولي، ب. ت).
- حيدر صبري شاكر الخيقاني، جذور التحديث الاجتماعي في العراق (١٨٥٠-١٩١٤) ــ دراسة تاريخية، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد (١٢)، يونيو(٢٠١٣).
- خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف، الطبعة الثانية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩).
- خيرة ويفي، تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، رسالة ماجستير (قسنطينة ــ الجزائر: جامعة منتوري، ٢٠٠٥).
- دافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ ــ ١٩٢٢، ترجمة: أسعد كامل إلياس، الطبعة الأولى، (لندن ــ قبرص، رياض الريس للنشر، ١٩٩٢).
- ستيفن همسلي لونغريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل (بيروت: دار الحقيقية، د. ت).
- عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧).

- عمر الحضرمي، الدولة الصغيرة: القدرة والدور ــ مقاربة نظرية، مجلة المنارة، المجلد (١٩)، العدد (٤)، (٢٠١٣).
- غانم النجار، القبيلة والدولة في الكويت والجزيرة العربية (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٩٦).
- فايز عبد الله العساف، الأقليات وأثرها في استقرار الدولة القومية ــ أكراد العراق نموذجًا، رسالة ماجستير (عمان: جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٠).
- مايكل إم غينتر، كورد العراق: آلام وآمال، ترجمة: عبد السلام النقشبندي، ط ١ (أربيل ــ كردستان العراق: دار اراس للطباعة والنشر، ٢٠١٢).
- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة اطروحات الدكتوراه (٤١)، الطبعة الأولى (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢).
- مسعود ضاهر، المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦).
- ميمونة خليفة العذبي الصباح، ردود الفعل التركية على اتفاقية الحماية البريطانية للكويت ــ مقارنة بين الوثائق الإنجليزية والعثمانية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، المجلد(١٥)، العدد(٥٩)، (١٩٨٩).
- نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الأول) ١٩١٤ ــ ١٩١٥، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الساقي للطباعة والنشر، ١٩٩٦).
- نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز (المجلد الثاني) ١٩١٦، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الساقي للطباعة والنشر، ١٩٩٦).
- وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني ــ قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، الطبعة الثالثة (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣).

ثانيًا: المراجع الأجنبية

1. Craves Philip, The life of Sir Percy cox, (London, 1951). 101.
2. F. O. 78/5114 Memorandom on Kuwait Confidential Foreign office (secret 29 Oct. 1901).
3. F. O. 78/5114 from Sir Nichola O'Conor to Lord Salisbury No. 228 (secret).
4. Phillip Knightley and Colin Simpson, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, (New York, McGraw-Hill Book Company, 1969).